رواية

سمر يزبك

لها مرايا

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

دار الآداب

ليلى بطلة الرواية تعيش عدّة حيوات في حياة واحدة، عبر فكرة التقمّص، وتلاحق روحها رجلاً يمشي معها في الزمن، ضمن خطوط سياسة متشابكة بين حاضر قريب وتاريخ بعيد. وفي كلّ حياة، تُعيد قصّة الحبّ نفسها، وتظلّ تبحث في فكرة الوجود والفناء عن معنى هذا الحبّ وما يجلبه من شقاء. إنّها باختصار لعنة الحبّ، ولعنة السلطة...

سمر يزبك كاتبة وإعلاميّة سوريّة. ناشطة في مجال حقوق المرأة. كتبت في الرواية «طفلة السماء» و«صلصال» و«رائحة القرفة».

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

IS... -9-166-8

9789953891668

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

لها مرايا
سمر يزبك/ روائيّة سوريّة
الطبعة الأولى عام 2010
ISBN 978-9953-89-166-8
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
ranaidriss@hotmail.com
Website: www.adabmag.com

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

إليك أمل عثمان، أمّي:

مثلك أنا،

بات اللاشيء يكفيني.

الجنازة

بقعة صغيرة تتهادى على سطح الشاشة: أحمر. أبيض. أسود.

حشود متدافعة حول عربة مدفع عليها نعش ملفوف بعلم البلاد. رجال ونساء يتلاصقون وتلتحم أعضاؤهم بتداخلات سرياليّة، لا يفكّرون فيها الآن. في هذه اللحظة فقط! ولو كانوا في حالتهم العاديّة لصرخوا واستشاطوا غضبًا بعضهم من بعضهم الآخر. لا يعبؤون باللطمات أو الانحناءات والركلات. كلّ واحد منهم يبحث عن مكانه وسط الأمواج البشريّة. أيادٍ غريبة ومختلفة الحجوم تتعانق، ورؤوس مربّعة الشكل يناطح بعضُها بعضًا في سباق هستيري لاختراق السدّ البشري المحيط بالعربة. كانوا يريدون الوصول إلى النعش، يحلمون بلمسه وتوديعه، لا نيّة أخرى لديهم سوى أن تلمسه أكفّهم. ربّما يصدّقون أنّ ما يحدث حقيقة، وهذا المدفع الحربي اللامع ليس لعبة أو زيًّا

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تنكّريًا لسلاح ما، وهذه الحشود ليست مجرّد أوامر جديدة للبدء بمسيرة تجعلهم يصيحون بأعلى أصواتهم.

على حزنهم أن يكون حقيقيًّا، ولا يذهب جزافًا، على الرّغم من أنّهم، بعدما لمسوا النعش، كانوا غير مصدّقين ما حدث.

الكاميرا تقفز من وجوه الحشود إلى العلم الذي يغطّي النعش. صورة كبيرة تحتلّ المساحة المضيئة كلّها.

ـ إنّه يرقد هنا!

تمتم سعيد ناصر وهو يراقب شاشة التلفزيون.

كان يستطيع رؤية رجال الأمن الذين أحاطوا بالعربة ليمنعوا الأيادي الممتدّة كأغصان نبتة، من وصول النعش المتحرّك ببطء شديد. ومن الصعب تقدير المدّة التي عليه استغراقها لتجاوز الساحة الكبيرة؛ فالزحام الشديد وتدافع البشر، على الرّغم من ترتيبات الجنازة، واستنفار قوّات الجيش، صعّب الأمر على العناصر الذين توزّعوا في المكان، واندسّوا بين الناس، وأحاطوا بالساحة، وأمسكوا باللافتات البيضاء الكبيرة، والصور التي تحمل الشريط الأسود على طرفها، وراقبوا المداخل الأربعة للشوارع المتقاطعة التي يتوجّب أن يخرج النعش من أحدها، ثم تفرّقوا في الجهات المقابلة لنهايات تلك

التقاطعات، وتوزّعوا على مفارق المدينة، وتحلّقوا حول البشر الذين لم يحضروا الجنازة، وتوقّفوا أمام بعض المحلاّت القليلة التي بقيت مفتوحة، وأنصتوا لكلّ شاردة وواردة يهمس بها الناس، وكلّ ذلك لم يمنعهم من أن يكونوا حاضرين في كلّ عشرة أمتار من المدينة.

مع ذلك خرج الأمر عن سيطرتهم عندما صار الحشد البشري المتهافت من كلّ الجهات أقوى من أن يقفوا في وجهه، وينظّموا حركة تنفّسه وانضباطه، كما اعتادوا في المسيرات العاديّة. وهم في الحقيقة كانوا غير مصدّقين ما حدث، وخائفين ومرتبكين ممّا يمكن أن يحدث بعد هذه المصيبة.

الكاميرا تبتعد عن النعش، والمدينة تحت سفح الجبل والبشر بدت رماديّة.

يحدّق سعيد في الشاشة الصغيرة الميّالة إلى اللون الأحمر، ليس من فعل مصيبة يواجهها الآن في بيته الجبلي الذي يجاور الغيمات، عبر ذلك الاحمرار الداخل من النافذة المطلّة على اتّساع البحر، والتي تتوهّج بغروب نادر لم يشاهده طوال حياته. لون أحمر يخطف الألوان من شاشة التلفزيون، ويستقرّ عميقًا داخل الجنازة.

يراقب الغروب باستمرار. يشعر به مختلفًا هذه المرّة. يدور

حول نفسه. يتأمّل في اللون الأحمر الخالص النقاوة. أحمر يحيل لون الشاشة إلى الأرجواني، ويجعل من المدفع الذي يحمل نعش الرئيس الراحل عربة إلٰهيّة نزلت بغتة من السماء، واخترقت الجموع البشريّة. تخيّل سعيد للحظة أنّ المدفع سيطير، وأنّه سيغيب مع زرقة السماء، أو يخرج من مربّع الشاشة. هكذا تخيّل واستراح قليلاً لهذه الفكرة التي ستعفيه من غصّة الأسى القادم. لو يبقى الجناحان الأبيضان اللذان سيعودان بجسد الراحل المبجّل إلى أصله.

تنفّس بعمق، واتّجه نحو النافذة بعد أن حمل جهاز التحكّم، وكتم الصوت، وفكّر أنّه لن يسمع الأصوات والنواح، وسيكتفي بمشاهدة الصورة التي ستطير أيضًا بجناحين بيضاوين، وتعفيه من ضيق يزداد اتّساعًا في نقطة عمياء من صدره.

لن يستطيع البكاء ببساطة وقد قطع الخطّ الهاتفي، وأغلق كلّ منفذ للاتّصال به من العالم الخارجي. إنّه الآن محكوم بتلك النافذة؛ بهجته الوحيدة. يا لخراب اللون الذي أخذ يتداعى بين السماء والبحر، ويترك وراءه مساحة ضبابيّة ودخانيّة من الفوضى.

انهمر نصفه العلوي خارج النافذة وهو يجرّب أن يفتح عينيه ثانية، ويستدير لينظر إلى الشاشة اللعينة، ويتأكّد من أنّ تلك الصورة هي مجرّد وهم، لكنّ الساحة التي كانت طريقه اليومي

إلى مكتبه لا تزال على حالها، ويحفظ تفاصيلها، ولا تزال الألوان المضيئة تتحرّك ببطء شديد.

ـ إنّها جنازة الرئيس. ما سمعته لم يكن إشاعة! الأوغاد أهملوني حتى في موته. رحلة صيد تجعلني بعيدًا كلّ هذا البعد!؟

كان يصرخ من جوفه المعبّأ بالغازات وروائح الشواء من الليلة الفائتة. وحرقة العرق لم تتركه منذ أن تعوّد شربه دون خلطه بالماء، مكتفيًا بقطعة ثلج صغيرة تكسر حدّته، وتحوّل لونه، ببطء، إلى الحليبي الناصع.

تجشّأ وشمّ رائحة العرق ثانية، وعنّ على باله أنّه بحاجة لكأس عرق جديدة، لكنّ الوقت لا يزال مبكّرًا لينزل إلى البهو الداخلي حيث حفر قطعة من الجبل الصخري، وصنع منها صالة فسيحة، تركها على حالها، وأدخل في التجويف الصخري للنتوءات التي أحدثتها عمليّة الثقب، أضواء خافتة وملوّنة، فبدت مثل نادٍ ليلي رخيص. كان مفتونًا بهذه الأضواء والظلال الملوّنة، ولم يمارس طقوسه في شرب العرق إلاّ وتلك الأضواء منارة، حتى إنّ بعض أصدقائه كانوا يتندّرون بأنّ سعيدًا جعل بيته على هيئة الملهى الليلي الأوّل، الذي ارتادوه معًا، هو ورفاقه العسكريّون منتصف الخمسينيّات، عندما جاؤوا إلى العاصمة. وأحيانًا كان تندّرهم هذا يصل مسامعه، فيضحك،

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ويقرّر جعلهم يتقيّؤون أحشاءهم، على ضوء ذينك اللونين المقدّسين لديه: الأحمر والأخضر.

هو بحاجة الآن لتلك الأنوار قبل أن يطفئ التلفزيون، ويقرّر ألاّ يشاهد بأمّ عينيه غياب أحبّ الناس؛ الرجل الذي كان مستعدًّا لحمايته بروحه وحياته إلى اللحظة الأخيرة.

كان من المستحيل تخيّل أنّه سيموت يومًا. ربّما تخيّل ذلك، لكنّه كان جازمًا بأنّه سيرحل قبله، ولن يشهد اللحظة التي تجعله يصدّق أنّه غاب إلى الأبد. كان مؤمنًا أنّه لن يموت، وما يراه الآن على الشاشة هو مجرّد مشهد تمثيلي جديد، يضاف إلى هوسه بمتابعة المسلسلات التلفزيونيّة.

اتّجه نحو جهاز التلفزيون، ووجّه إصبعه المتشنّج نحو أحد الأزرار، على الرّغم من أنّه يحمل جهاز التحكّم في كفّه، فأصدر الجهاز صوتًا عاليًا، وزعيق مذيع، وسُمعت الأصوات البشريّة تتدفّق، كأنّها تأتي من رأس الجبل. ولوهلة تخيّل أنّ الدفق البشري سيخرج من الشاشة، ويستقرّ كلّه في قلبه.

تهالك على الكنبة المنفردة، وفتح عينيه مدهوشًا، شبه مخدّر. عيناه تضيقان، ثم تنفتحان على اتّساع مبهر لحركة الشاشة التي تتنقّل بين الوجوه الغريبة، واللافتات البيضاء وصور الرئيس.

استغرب أن تكون فوهة المدفع واضحة بهذا الشكل. ولوهلة، فكّر أنّ صاحب فكرة عربة المدفع أحمق، وأنّ النعش كان يجب أن يُحمل على الأكتاف. هكذا خرج رئيسه؛ من الشعب، وعليه أن يعود معه!

هبّ واقفًا، واستشاط غضبًا. فلو أنّه كان ما يزال هناك في المدينة، لتصرّف بشكل مختلف، ولجعل من هذه الجنازة يومًا تاريخيًّا لن ينساه العالم لمئات السنين. اقترب من التلفزيون، وثبّت نظّارته، وشرع يحدّق في تفاصيل الجنازة، يراقب حركة الكاميرا المتنقّلة بين المدفع والناس، ومن ثم السماء الزرقاء وأسراب الحمام في سفح الجبل. يضرب كفًّا بكفّ، ويتمتم بعبارات غير مفهومة. الجملة التي استطاع حرّاسه سماعها، وراء الباب الذي وقفوا وآذانهم ملتصقة به، خوفًا على معلّمهم: الأغبياء، ما هكذا تُقام جنازات العظماء!

صوت ارتطام كفّه بالكفّ الأخرى يدوّي ويعلو فوق أصوات الجنازة. يبرطم ثانية بالجملة نفسها، ويفتح النافذة ويغلقها، ثم ينظر باتّجاهات عدّة، ويقول، وكأنّه يريد للجميع من حوله أن يسمع: الأغبياء.. الأغبياء..

بعد أن يترك النافذة، يرخي يديه وراء ظهره، ثم يشبكهما، ويقترب من الشاشة، يقرفص أمامها. يرفع كفّه عاليًا، ثم ينزلها ببطء وحنوّ، وتلامس أصابعه النعش. تمرّ عليه بهدوء، فتنتفخ

خدوده وتلمع عيونه باحمرار قان. يجلس على الأرض، مرخيًا رجليه بسلام، قبل أن ينشج، بخفوت، نشيجًا يمنعه من متابعة ما تنقله الشاشة، أو مواصلة اللمس بحنوّ على النعش الذي يتهادى بين الحشود مثل قارب تائه. تعالى نخيره، ومن حلقه خرجت بضع زفرات، تشبه تنهّدات النساء، وهو ما أغاظه أكثر. ابتلّت عيناه بدموع حرقت وجنتيه، وجعلته يتجشّأ، فخرج سيخ نار من معدته، وشمّ رائحة الشواء من جديد، وعرف أنّه بحاجة لقيلولة حتى لا ينفجر بطنه، قبل قلبه.

كانت نافذته تشبه إطلالة على نهاية العالم. تسلّل من خلالها الغروب الأحمر، وجعله حزينًا إلى حدّ أنّ وجعًا بدأ ينمو في أحشائه، وهو يمرّر رأسه عبرها، فيكتشف أنّه معلّق في الفضاء. ليس هو فحسب؛ النافذة مع الغرفة معلّقة في الفضاء أيضًا. وما سمّاه تجاوزًا: بيتًا جبليًّا، كان أشبه بقلعة صغيرة، بناها على شكل عشّ سنونو؛ نصف دائرة كرويّة ملتصقة بمنحدر صخري. أعلى نصف الدائرة، سطح تغطّيه أشجار تبدو قطعة من حدائق بابل، وعلى امتداده، بركة مائيّة عميقة تحيط بها طاولات حجريّة صغيرة ومقاعد خشبيّة، وتعلو السطح قبّة بلّوريّة شفّافة، تُفتح في أيّام الصيف، وتُغلق في أيّام الشتاء، وأسفل العشّ المعلّق، بهو الأضواء المحبّب إليه، وفي وسط العشّ، تتوضّع بنفور حادّ مساحةٌ من عشرات الأمتار، ناتئة عن البناء

المصقول للجدران، تصطفّ منحنية على شكل موشورات زجاجيّة، تُفتح بجهاز خاصّ يحتفظ به في جيبه. تلك الأمتار الزجاجيّة المعلّقة بين السماء والأرض كان يسمّيها نافذته. الحقيقة الفعليّة أنّها كانت دائرة زجاجيّة مفتوحة على أفق مطلق بين البحر والسماء، حيث لا يمكن أن يبدو منها سوى الفراغ، قرب قمّة جبل يشكّل امتدادًا طبيعيًّا لقريته الساحليّة الجبليّة التي خرج منها، دون أن يخطر بباله أنّه سيعود يومًا ويعيش في أكثر أماكنها وحشة ورعبًا؛ المكان الذي يُطلق عليه أهل القرية: عشّ النسر.

مدَّ جسده ثانية. تطاول عبر النافذة، وأحسّ بخفّته وهو أمر يعرف أنّه سيريح قلبه، حيث يستطيع أخيرًا إطفاء موته، لكنّ تأرجح نصفه العلوي من النافذة لم يمنحه السكينة المعتادة لتلك الحركة التي درّب نفسه عليها، كلّما نما الوحش في أحشائه، والذي لم يفصح عنه، لأنّ وحش المُغص يختفي حالما يقرّر الحديث عنه. وقد جرّب ذلك مرارًا، وكانت النتيجة نفسها. ترك النافذة المعلّقة وفتح بابه وصرخ بأعلى بصوته، فهرع إليه مجموعة من الرجال ضخام الجثث. مرّت ثانية فقط، قبل أن يتحلّقوا حوله، مذعورين من أنّ مكروهًا أصابه لكنّه ما إن صرخ أيضًا، حتى انطفأ الوجع، فقرّر التمادي:

ـ كأس الزوفا يا أولاد.

اختفى الوجع نهائيًّا في تلك اللحظة، واختفى معه الرجال لجلب كأس الزوفا، فعاد سعيد إلى غرفته، وأغلق بابه بهدوء وهو يفكّرُ بنافذته، ويبعد عينيه عن شاشة التلفزيون. لم يكن يعرف إن كان حزنه على حبيبه الذي رحل، أم على رؤية روحه المتدلّية من نافذته؟

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

ليلى

في اللحظة التي ابتعد فيها سعيد عن نافذته، وبدأ بارتشاف كأس الزوفا، كانت سيّارة أجرة صفراء تقف بانتظار فتح طرقات المدينة، بعد أن سدّت الجنازة كافّة المنافذ المؤدّية إليها. داخل السيّارة جلست الممثّلة ليلى الصاوي ذات الثلاثين عامًا. تلفّ حول رأسها وشاحًا فضّيًّا، تخفي به شعرها المنكوش، وتضع نظّارات سوداء بإطار أحمر عريض، احتفظت بها من أيّام نعيمها البائد. تقضم أظافرها بشراهة، وتنفث دخان سيجارتها، بعد أن اهترأ عقبها بين أسنانها.

كانت متخفّية، تتنهّد وتزفر بشدّة، ممّا جعل السائق العجوز يطلب منها الترجّل من سيّارته، لأنّه لم يعد يحتمل نقّها، كما قال لها وهو يفتح الباب ويصرخ: هيّا انزلي يا عمّي، لم أعد أريد منك شيئًا!

تنفّست الصعداء ونزلت تجرّ حقيبتها الصغيرة؛ فقد كانت

تستعدّ لجدال معه، حول قيمة الأجرة التي لم تكن تملكها، وكانت بانتظار الوصول إلى ماري لتقترض منها. لم تصدّق ما سمعت. لقد أعفاها من الأجرة! قفزت من الفرح. أبسط التفاصيل كفيلة بإسعادها الآن. نسيت نفسها حين أطلقت ضحكة خافتة، فبانت أسنانها الصفراء، ولمعت تجاعيد ناعمة حول شفتيها مع حركة الزغب الأشقر. لوهلة شعرت بانتعاش، وهي تتخلّص من مشكلتها الأولى. نزلت إلى الشارع. صفقت الباب وابتعدت عن السيّارة، وراقبتها وهي تغادر مسرعة باتّجاه شارع آخر، دون أن تكفّ عيناها عن مراقبة رأس السائق الذي كانت تخاف، للّحظة الأخيرة، أن يغيّر رأيه ويعود مطالبًا بنقوده. لكنّ الرجل لم ينظر إلى الخلف، ومضى بعيدًا عن التجمّع البشري الذي يمتدّ بالجنازة من الساحة إلى منافذ المدينة وهو يشتم المرأة المخمورة التي جلست في المقعد الخلفي.

حملت ليلى الصاوي حقيبتها الصغيرة، ومضت تنظر في وجوه المارّة، تحاول تخمين ما يمكن أن يوحي به منظرها. وبين لحظة وأخرى تتوقّف لترفع جوربها المثقوب، وترخي تنّورتها المتشابكة بين ركبتيها، فتعيقها عن الحركة. الأهمّ من كلّ هذا ألاّ يتعرّف عليها أحد معجبيها. ستكون تلك مصيبة. النظّارات تخفي هويّتها، وتريحها من أعين الفضوليّين. لن يصدّق أحد أنّ ليلى الصاوي هي نفسها المرأة المترنّحة بحذاء

ذي كعب عال عريض مخلخل، وتمشي نصف عرجاء، خائفة أن تسقط من تخلخله، وتلمّ تنّورتها بين فخذيها، وتراقب الخطّ الذي بدأ ينسل من جوربها ويتحوّل إلى ثقب، وهو ما حدث خلال ثوان، حين مسّت بأصابعها حركة انسلال الجورب فلامست لحمها، وأدركت أنّها صارت فرجة للناس الذين لم يكونوا ليعيروا أهمّيّة لجورب مثقوب، ترتديه امرأة تبدو مثل شخصيّة في فيلم كرتوني، فشل الرسّام بضبط حركتها. كلّ أعضائها تتحرّك منفردة، وعكس اتّجاه الأعضاء المقابلة، وهي تسرع الخطى غير مبالية. رأسها مرفوع نحو السماء، وتهتزّ باضطراب، وتمشي بسرعة أقرب للركض.

بعد دقيقتين ركضت، وانفلت الوشاح عن شعرها الذي انتشر في الفضاء. والثقب الذي بدأ صغيرًا كبر وصار فتحة كبيرة، لكنّها لم تتوقّف. ركضت بسرعة، والناس الذين اعتقدوا أنّها جزء من المشهد الذي لفّ المدينة كانوا يتحسّرون على عقلها. رؤيتها تثير انطباعًا بأنّها هربت من مصحّة عقليّة. وعلى الرّغم من ركضهم السريع إلى الجنازة أو إلى بيوتهم، كانوا يتابعونها بعيونهم حتى تختفي، ويتحسّرون على شبابها وجمالها. فقد كانت ما تزال قادرة على إبهار مَنْ حولها.

وصلتْ أخيرًا. تتنفّس بصعوبة، وبالكاد تستطيع الوقوف على قدميها. والصمت الذي خيّم على الشارع أخافها. اختفى

الناس فجأة. نظرت إلى ساعتها، فاكتشفت أنّها ركضت نصف ساعة. تابعت التنفّس بانتظام، ودخلت بناء أبيض من أربعة طوابق، شُيّد على الطراز الفرنسي في أربعينيّات القرن الماضي. . قرعت الجرس، ولامست بأصابعها اللافتة التي تعرفها جيّدًا، والتي ما تزال على حالها لامعةً ونظيفة: House of Beauty. قرعت ثانية، وثالثة. شعرت أنّها ستتهاوى على الأرض، فكيف ستعود؟ وإلى أين ستذهب الآن؟

فُتح الباب، وظهرت ماري، نظرت إليها بازدراء، وأغلقت الباب نصف إغلاقة:

ـ ماذا تريدين؟ قالت باقتضاب. لم تجب ليلى. سمعتْ صوتًا من الداخل يسأل، فأجابت ماري:

ـ هذه شحّاذة. . ستّ ميرنا.

توقّفت ليلى عن التنفّس لثوان، ونزعت نظّارتها عن وجهها، تنظر بدهشة في عيني ماري وتفكّر ما الذي دفعها للقدوم إليها؟ ومن بقي لها لتذهب إليه؟ ولِمَ تجاهلت ماري معرفتها؟ كان صدرها يعلو ويهبط، لا تعرف عند أيّ نقطة توقّفت حكايتها. أمر غامض وسرّي جعلها تأتي إلى هذا المكان. أجل إنّها هنا، تقف كما وقفت منذ زمن طويل. فارق بسيط يجعل كلّ شيء مختلفًا! الفارق بضع سنوات تمحوها الآن وتقلب صفحاتها، وتعود كما كانت. أمّا لماذا اندفعت إلى

ماري دون كلّ الناس، فهذا سؤال غريب، لم ترتّب ما الذي تنوي فعله بعد خروجها. كانت الأفكار تتدفّق في أحشائها فتنفثها، وكأنّ كائنًا خفيًّا يحرّكها من وراء ظهرها. فكّرت وهي بالكاد تقف على قدميها أنّها ضائعة. عند تلك اللحظة، حيث اكتشفت الضياع، حدّقت ماري في عينيها الجامدتين. شهقت وهي تهوي إلى حضنها وتهمس لنفسها: هذه عيناها.

لا يمكن أن تتغيّر عينا ليلى الصاوي. عينان لا تملكهما أيّ امرأة على وجه الأرض. عينان مسحوبتان من طرفي الوجه، مشدودتان كوتر، خضراوان تميلان إلى الأزرق. يتحرّك فيهما سائل عسلي باستمرار، ويستقرّ ثقل هذا السائل في طرفي العينين الوحشيّتين. أمّا رموشها السوداء الطويلة، فلم تزل على حالها. ليست كالسابق، لكنّها طويلة حادّة مثل نهايات شعرها الإبريّة.

اعتصرتها ماري، وتشمّمت رائحتها. كانت رائحة صابون من النوع الرخيص، لكنّها مع ذلك تخصّها، وحدها ماري تعرف أسرار روائح ليلى، وهي وحدها تستطيع أن تخمّن مزاجها من الرائحة التي تشمّها.

جذبتها بقوّة إلى داخل House of Beauty وهي لا تزال تحضنها، واغرورقت عيناها بالدموع، صرخت:

ـ ليلى. . مدام ميرنا.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

خرجت الستّ ميرنا من الصالة، ونظرت باندهاش تحدّق في المرأة الغريبة الشكل:

ـ ماري، من هذه؟

ـ الستّ ليلى الصاوي، زبونتنا..

ـ أيّ زبونة؟

ـ الممثّلة... مدام!

تهزّ الست ميرنا رأسها، وبالكاد تصدّق عينيها وتبتعد، ثم تدخل ثانية إلى الغرفة المخصّصة لنتف شعر العانة ومن هناك تصرخ بصوت حادّ:

ـ مارررري.

تدخل ماري إلى غرفة جانبيّة، وتغيب بضع دقائق، ثم تخرج مكفهرّة الوجه. تجلس قرب ليلى التي استلقت على أريكتها المفضّلة، وأغمضت عينيها. لا بدّ أنّها تحلم، وكلّ ما حدث هو مجرّد لعبة ذهنيّة تسافر فيها كما اعتادت أن تفعل، منذ أن كانت طفلة تمسح وجهها بالطين، وتصرخ: أنا كونتا كينتي!

هي لعبة أخرى؟ ألم تبق لشهور تصرخ في القرية وتظلّل وجهها بالطين، إنّها ليست ليلى الصاوي، وهي كونتا كينتي، الآن تستطيع تذكّر تلك اللحظات، عندما تداخلت روحها مع عيني المستعبد الأسود. إنّها هي نفسها روح الزمن البعيد.

الزمن الذي أفاقت منه، بعد ضرب مبرّح على قفاها تحت شجرة التوت، لتمتنع عن قول الجملة اللعينة: أنا كونتا كينتي...

حينها كانت عائلتها تجتمع لشرب الشاي، وأولاد الأعمام والأخوال يراقبونها. يتوزّعون من حولها، ليحقّق الواحد منهم لذّته في الوشاية بها. فقد كانوا مستفزّين من صمتها القاسي؛ لا تلعب معهم، ولا تردّ على بذاءتهم. تكتفي بنظرة واحدة، تسبل عينيها بعدها بحزن وكبرياء، ثم تتجاهلهم. فرصة الوشاية بها لن يفوّتوها ببساطة، يريدون رؤيتها غاضبة. تابعوها طوال النهار، وما إن بدأت تلعب بالطين، وتمرّغه على خدّها، حتى سارعوا بالصراخ من حولها، لكنّها لم تكترث واكتفت بأن مشت يومها كمنوّمة مغناطيسيًّا وهي تقول: أنا كونتا كينتي.. كونتا كينتي.

أفاقت على لطمة قويّة أوقعتها أرضًا، ففتحت عينيها. شعرت أنّها تطير في الهواء. كان عمّها يحملها على ظهره، ويركض بها. علّقها من يديها على أحد فروع شجرة السنديان، بعد أن أحكم ربطهما بحبل قوي، وترك جسدها الصغير يتأرجح في الهواء، ونزع حذاءها، وضربها بجذع رمّان رفيع ذي لون أحمر قاتم وصرخ بها ألاّ تعود لتلك التّرهات. لم تعلن التوبة، ولكنّها منذ اللحظة التي تُركت فيها معلّقة وجسمها يوجعها، تتأرجح تحت شجرة التوت، قرّرت الصمت نهائيًّا، كي تصبح ممثّلة عندما تكبر. وكلّ ما فعلته عندما كبرت وصارت ممثّلة،

أنّها عاشت بروح تلك اللحظة فقط. لم تبذل أيّ جهد إضافي. اللحظة التي دفعتها لطلاء وجهها بالطين والصراخ: أنا كونتا كينتي.

ربّما هي لعبة من ألعاب عقلها الممتعة، وستفتح عينيها وتنظر في المرايا، وتكتشف أنّها ما زالت كما هي، ليلى الصاوي الممثّلة الأكثر جاذبيّة، وليست المرأة التي أدمنت الهيروبين والحشيش، والإبر التي تُغرس في جسدها تركت علامات زرقاء لن يمحوها الزمن، حتى لم تبق ذرّةٌ من جلدها لم تثقبها إبرة ساحرة تحوّلها إلى أميرة، أو كائن غير مرئي، كائن شفّاف، لا يُرى، ولا يَرى. مجرّد شيء ما يشبه راحة نفس أبديّة في عالم مجهول. يبدأ بخدر لذيذ، يتسلّق المسامّ والأوردة، وينحلّ ببطء تحت الجلد، ويحوّله إلى حبيبات تدغدغ العقل بكركرة تبدو ناعمة، لكنّها سرعان ما تتحوّل إلى مسرح من العدم. ضحك... ضحك.. ضحك، ثم بطن كبير خاوٍ لا يمتلئ أبدًا من الضحك.

كانت تضحك بعد الشمّ أيضًا، الشمّ اللذيذ المترع بسحب الكون دفعة واحدة إلى أعماق روحها التي لبست أجسادًا كثيرة، وتعرف أنّ أوّل الدخول في عالم الهباء الجميل هو الضحك. تضحك بخفوت، وترخي رأسها على مادّة صلبة حتى لا تقع وتفقد لذّة الإحساس بالإكسير السحري الذي يسري في عروقها،

أو يدخل عبر حواسّ شمّها بالنثرات البيضاء التي كانت تتشمّمها بهوس شرب فنجان قهوة يومي.

أجل. ستفيق الآن وتفتح عينيها وتكتشف أنّها ما زالت تقف أمام مرآتها المفضّلة، عند الستّ ميرنا. وماري ستكون برفقتها أيضًا.

تفتح عينيها بعد أن لسعها ألم في أصابع قدميها، فتتأكّد أنّها ليست في حلم، وهذا الألم يعود إلى حذاء الكعب العالي الذي منحتها إيّاه إحدى بنات الليل اللواتي رافقنها في مهجع السجينات. هي ليست واقفة أمام ضوء مسلّط عليها وسط ظلام داكن، ولا ترتدي أحد الأقنعة تحت جلدها. جلدها يبقى على حاله أمام الكاميرا، والقناع يدخل تحت الجلد. تنتهي الشخصيّة ويبقى القناع. ثم تعود وتشقّ جلدها من جديد وتضع القناع. تضيع أصابعها بين الجلد والقناع. يختفي حدّ فاصل هشّ بينهما. تفتح عينيها على صوت ماري:

ـ سأنظّف المكان وأنصرف. مع السلامة ستّ ميرنا.

خرجت الستّ ميرنا، بعد أن وضعت نظّاراتها السوداء، تجاهلت وجود ليلى، وصفقت الباب بقوّة. قبل أن تسمع طقطقة حذائها تنحنحت ليلى، وجلست مستقيمة كأنّها تعود من ألف سنة نوم. تأتأت ماري:

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ـ أنت تعرفين أنّنا لا نعمل اليوم، الدنيا مقلوبة في الخارج. الرئيس مات.

ـ أعرف.

ترتخي ليلى على الأريكة وتهمس:

ـ أريد سيجارة.

تعطيها ماري علبة دخان كاملة، ترتجف وهي تشعل لها سيجارتها.

ـ لن أطيل هنا، سأخرج بعد إنهاء السيجارة.

ـ إلى أين؟ تسألها وتتحرّك في أرجاء المكان، متحاشية النظر في عينيها. تمسك منشفة صغيرة، وترشّ المرايا ببخّاخ أزرق، ثم تدعك سطحها المصقول، تعقّم أدوات التجميل، وملاقط الشعر الناعمة والمقصّات، وتطوي المناشف التي تصطفّ فوق رفّ خشبي من الزان اللامع. تشعل ليلى سيجارتها الثالثة، فتدخل ماري إلى المطبخ، وتعود بفنجان قهوة ساخن، تضعه أمامها، وتلقي بأعقاب السجائر، وتعود بمنفضة جديدة.

كان House of Beauty أكثر صالونات حيّ الرمّان شهرة وقدمًا، ورثته الستّ ميرنا عن أمّها. وارتادته معظم سيّدات الطبقة الغنيّة، والقليل من سيّدات الطبقة المتوسّطة، قبل أن تبدأ تلك الطبقة بالاختفاء، وراء الفقر، أو تحت قشرة من الثراء

عندما يستطيع بعض أفرادها تسلّق سلّم الأغنياء الجدد. كانت الستّ ميرنا حريصة على نوعيّة النساء اللواتي يأتين إليها، وتعرف كيف تنتقيهنّ بعناية وتدلّلهنّ. ومن خلالهنّ ولسنوات طويلة، استطاعت أن تؤسّس لنفسها مكانة خاصّة من خلال نفوذ زوجات المسؤولين في الحكومة وعشيقاتهم. وليلى نفسها قبل بضع سنوات كانت زبونتها المفضّلة، تقوم على خدمتها بنفسها، وهي حظوة لم تحظ بها سوى نساء قليلات، خاصّة عندما كان يخطر على بال ليلى أن تتمشّى في صالونها شبه عارية، تدخّن سيجارتها، طالبة استراحة قليلة من وجع نتف الشعيرات. كانت الستّ ميرنا تلحق بها وتمسح عن جبينها بعض قطرات العرق، وتأمر مستخدماتها بالاعتناء بها. وكانت ليلى تطلق ضحكاتها وغمزاتها، وتتغنّج أمامها، ثم ترتخي بعد سيجارتها، وتفرد ساقيها أمام ماري التي تنتف شعر جسمها. وبعد ذلك، تقلّم البنات الأخريات أظافر قدميها وأصابعها، قبل أن تنتهي أمام إحدى المرايا لتصفّف شعرها. وفي اليوم الذي كانت تقوم فيه ليلى بزيارة House of beauty تحجز أدوار خمس زبونات، حتى تتاح لها الحركة على راحتها، وحتى لا تضطرّ لرؤية أجساد النساء المترهّلات اللواتي ينتشرن في الصالة، ويتمدّدن مسترخيات.

كانت ماري هي البنت الوحيدة التي سمحت لها ليلى برؤيتها عارية، ونتفت لها عانتها. تعرف أدقّ تفاصيل ثنيّات

جلدها وتقوم بنتفها، وتلمّعها بعد ذلك بالكريم الخاصّ الذي تأتي به ليلى، رافضة استخدام أيّ كريم آخر. وبعد أن تنتهي منها تحمّم جسدها. وهو أمر لم تفعله مطلقًا لزبونة أخرى، وكانت تخرج من بين يديها طريّة بضّة ملساء، لا أثر لزغب فوق جلدها الرطب. وعلى مرور سنوات صارت علاقة ماري بليلى الصاوي هوسًا لا تُحسد عليه ماري، لأنّ كلّ رفيقاتها كنّ يتغامزن عليها، خاصّة عندما يمرّ بعض الوقت، وتغيب فيه ليلى، وتفقد ماري حظوتها عند الستّ ميرنا. فقد كانت مكروهة من قِبَل النساء الأخريات. ويجدنها دميمة، ويدها ثقيلة على جلودهنّ، ويقرفن من الشعر الذي يغطّي ذقنها ووجهها السمين.

توقّفت ماري عن الحركة، وأشعلت ليلى سيجارة من جديد، فجلبت ماري ركوة القهوة ووضعتها أمامها. صبّت لها فنجانًا آخر. جلست إلى جانبها صامتة، وأشعلت هي سيجارة. استغربت ليلى أن تدخّن ماري. مالت عليها:

ـ أما زلت تحتفظين بالصبّار؟

ـ طبعًا. تردّ ماري باقتضاب.

تبتسم ليلى بخفوت، وتظهر أسنانها الصفراء، فتتحاشى ماري النظر إليها:

ـ كنت أفكّر أن تنتفي لي اليوم. أفكّر بالذهاب إلى سعيد ناصر..

كيف خرجت هذه الكلمات من فمها؟ من قال إنّها تريد الذهاب إليه؟ كيف تفكّر فيه عبر لحظاتها الصعبة هذه؟ اخرسي أيّتها المجنونة، تقول ليلى بصوت مسموع، وهي تنهر نفسها وتحرّك يدها حول رأسها وكأنّها تهشّ ذبابة، ثم ترتجف. هل فعلاً تريد رؤيته؟ لماذا تركها في السجن؟ كم سألت نفسها هذا السؤال وهي تتكوّر بين السجينات في زاوية المهجع، تنظر في نافذة ضيّقة عالية مغطّاة بشبك معدني! كم بكت وهي تناجيه أن لا يتركها تموت ببطء بين رطوبة الجدران! تحدّق ماري في حركة رأسها مدهوشة، وتتحرّك بسرعة أقرب إلى الغضب، تلمّ بعض الأشياء، وتتظاهر بالانشغال وتحبس دموعها. تحاول استراق النظر إلى ليلى، فقد خُيّل إليها لوهلة أنّ هذه المرأة مجنونة، وليست مدلّلتها التي زارتها منذ سنة في سجن دوما.

كانت الوحيدة التي فعلت ذلك، بعد مضيّ أكثر من سنتين على وجودها في السجن. والسبب الوحيد الذي أوقفها أنّ مدير السجن منعها، وأخبرها فيما يشبه السرّ، أنّ هناك تعليمات لمنع الزيارة عن ليلى الصاوي، وأنّ عليها العودة إلى بيتها.

ذلك الصباح أعدّت فطائر باللحم والسبانخ التي تفضّلها ليلى، وجلبت معها أحمر شفاه وكريمًا مرطّبًا، ليس من النوع

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الجيّد جدًّا، لكنّه يكفي لأصابع ليلى، وارتدت أجمل ما لديها: فستانًا أخضرَ وحذاء أبيض، علوّ كعبه خمسة سنتيمترات، وفردت شعرها على غير العادة، لأنّ الزيارة الأولى أرهقت روحها عندما عاتبتها ليلى، وطلبت منها، لأوّل مرّة، أن تنتف شعر ذقنها وهي تضحك، وتهمس بصوتها المبحوح: الإسكافي حافي حبيبتي.

حتى إنّ شعرها المعقوص نحو الأعلى على شكل كعكة عيد صغيرة، تحرّر وتحوّل عند مزيّن الشعر إلى شعر ناعم طويل ولامع. لم تكد تتعرّف على نفسها، وهي تحدّق في مرآة غرفتها التي تتخلّلها البقع السوداء، وتحاول جرّ أمّها العجوز إلى إبداء ملاحظة أو رأي. وعلى الرّغم من أنّ الأمّ قالت لها: ما أجملك! إلاّ أنّها صفقت الباب وخرجت، حتى قبل أن تكمل الأمّ جملتها. وصارت تردّد تلك الجملة، بعد أن استقلّت التاكسي طوال الطريق إلى السجن. وتغمض عينيها لترى فتاة سمينة داخل إطار مرآة مضبّبة، تدور حول نفسها، فتضحك ويستغرب السائق. ثم تتخيّل تلك البنت الجميلة ذات الفستان الأخضر، بشعر أسود مسترسل ووجه لامع، وساقين منتوفتين للمرّة الأولى فتضحك أكثر. يلتفت السائق إليها ويسألها إن كانت تعاني من مشكلة، فتلمّ ضحكتها وتبتسم له في لطف وتقترب منه:

ـ اليوم أنا سعيدة.

ينظر إليها بفضول وخوف، ويتمنّى لها السعادة طول العمر.

ـ أمّي قالت إنّني جميلة!

فيضحك السائق ويهزّ برأسه:

ـ كلّ الأمّهات يقلن ذلك عن بناتهنّ.

ـ إلاّ أمّي.

ـ لماذا؟

ـ إنّها عمياء.

يصمت السائق. يثبت نظرات عينيه ويقود بسرعة. تصمت ماري، ولا يسمع سوى صوت هدير الشاحنات على الطريق الصحراوي العريض.

في السجن لم يُسمح لها بالدخول. الفطائر والعصائر وأدوات التجميل تركتها عند مدير السجن الذي وعد بإيصالها إلى ليلى، وطلب منها عدم الحضور ثانية. وكما اعتادت امتثلت لأوامره. وغادرت السجن دون أن تفكّر ثانية بالرجوع.

الآن تجد ليلى الصاوي أمامها، أو امرأة تشبهها، ليست مدركة حقًّا إن كانت هذه المرأة هي ليلى، أم امرأة أخرى قادمة

من عالم الأموات. تنظر في جواربها وتستغرب لماذا تلبس الجوارب في حزيران. جوارب غامقة وسوداء. تجلس إلى جانبها.. تحدّق في الثقب الكبير الذي يظهر ركبتها البيضاء، تكتشف أنّ شعيرات سوداء غزيرة تغطّي ساقها، حتى حذاءها؛ كان مغبرًّا ومهملاً. شفتاها مشقّقتان. أظافرها مدمّاة. بشرة وجهها تتموّج بقشور تشبه الحراشف، وتغطّيها طبقة من البثور السوداء، تمتدّ من أعلى خدّيها حتى أسفل ذقنها. اقتربت منها. أمسكت يدها، فشعرت ببرودة تسري في عظامها. نظرت في عينيها، وحدّقت بدهشة فيهما، العينان فقط بقيتا على حالهما، على الرّغم من أنّ السائل العسلي لم يعد رقراقًا فيهما، اقتربت أكثر، وضمّت ليلى إلى صدرها، وتنهّدت بعمق.

وقفت ليلى بثبات، وتابعت تدخينها، وكأنّ ما يحدث مع امرأة أخرى تراقبها. صوت غريب خرج من حلقها. صوت بدأ بقوّة وانتهى بنشيج. صوت يشبه رجع صدى عميق وخشن ومتوحّش:

ـ ركبوني يا ماري كلّ يوم حتى ملّوني. مثل عنزة ركبوني. حلقوا شعر رأسي. رأسي مثل بطّيخة. شلّحوني ثيابي. جعلوني أجلس مثل عنزة. يتفرّجون عليّ ويقولون: الممثّلة.. الممثّلة هئ هئ هئ هئ. لا أعرف وجوههم.. من هم؟ يثبّتني اثنان منهم من كتفيّ. أشعر بأعضائهم تدخل مثل سكّين حادّة،

ثم تخرج. أغمض عينيّ. لطمات أكفّهم على مؤخّرتي. هياجهم. صياحهم. أشمّ روائحهم المقزّزة حتى أفقد وعيي. أفيق أتكتك من البرد عارية أمسح بقاياهم عنّي.

تتنهّد وتشهق، تبدأ الأقنعة تخرج من تحت جلدها. عشرات الأقنعة تتطاير من حول وجهها، وتصرخ:

ـ لم أحفظ حتى أصواتهم. يدخلون مع بعضهم. ثلاثة، أربعة.. لا.. لا أعرف.

كانت ليلى ترتجف، وماري تمسكها من كتفيها، وتحاول تهدئتها بعد أن بدأت الكلمات تتدفّق من فمها.

ـ ركبوني مثل كلبة. يعطونني شمّة صغيرة بعد كلّ مرّة، ويقرصون نهديّ، ويقولون: انبسطِ؟

تتوقّف عن الكلام، تنظر في عيني ماري المرعوبتين:

ـ اهدئي الآن.. ستخبرينني كلّ شيء في البيت.

لكنّ ليلى تتابع، تهذر بكلام غير مفهوم. وكانت ماري أثناء ذلك تقوم بجمع أشيائها، وتستعدّ لمغادرة المكان، وتنظر من النافذة خائفة، وتمرّر يدها بحنوّ بين لحظة وأخرى على شعر ليلى التي بدأت تتحرّك بعصبيّة، وتتنقّل بين المرايا، وتلمّ شعرها، وتحدّق في عينيها، وتدور حول نفسها، وتكتشف أنّها ليست هي، ثم تمسح على بطنها الذي تكوّر بطريقة غريبة،

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وتدقّق في ردفيها الكبيرين، وعينيها المحمرّتين، وشفتيها الزرقاوين. لم تكن هي! أبدًا ليست هي؟ عيناها فقط هما نفساهما، تتمتم بصوت مسموع:

ـ ربّما استبدلوني هناك؟

تضحك ماري، وتضحك ليلى، تضحكان بصوت عال، تقفان متجاورتين، وتنظران بدهشة في المرآة:

ـ تعتقدين أنّي مجنونة؟

تهمس ليلى. تتوقّف ماري عن الضحك، يشحب وجهها:

ـ أبدًا، فلنذهب إلى البيت.

تطفئ ماري الأنوار، تخرجان إلى صمت الشارع وحرّ حزيران. الشارع ما يزال خاليًا، والجنازة لم تنته بعد، والطرق ما تزال مسدودة، لكنّهما تستطيعان المشي حتى تصلا إلى حارات باب توما، حيث تسكن ماري مع أمّها في غرفة وحيدة، ضمن بيت كبير يعجّ بالمستأجرين الذين لا يلتقون إلاّ في أرض الفناء صباحًا، وهم يتأهّبون للانتشار في المدينة. فكّرت ماري أنّها ربّما تجد سيّارة تقلّهما إلى مكان قريب من ساحة باب توما. كانت ليلى في حالة يُرثى لها، وربّما تقع في أيّ لحظة، وعندها سيكون من الصعب عليها حملها. أمسكت بيدها ومشتا ببطء. تسيران بعرج واضح. الاثنتان معًا، ليلى تعرج، وماري

تمسك بها فتعرج مثلها، وتنحني كما تفعل حتى لا تسبّب لها الإرباك، فتشمّ رائحة منفّرة. لأوّل مرّة تشعر أنّها بحاجة للبكاء بصوت مسموع وعال، لكنّها تحجم، وتشدّ على يد ليلى المسترخية في كفّها بسلام وتدفعها نحو الأمام، وهي متيقّنة أنّها لن تجد سيّارة أجرة قريبة، ليس بسبب الجنازة فقط، بل لأنّها تحفظ هذا الشارع الأنيق الذي تتخلّل رصيفه أشجار حور عالية، وتتدلّى من أصص شرفاته الورودُ والعرائش.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

أبو سعيد ناصر

سعيد ناصر، الولد الذي جاء إلى الحياة على هيئة مخلوق ضخم مدوّر الأبعاد، يزن سبعة كيلوات، يلتفّ حول رقبته خطّ أحمر رفيع. ولدته أمّه بعد خمس بنات، وبقيت في فراشها ثلاثة أشهر متيبّسة بفعل الشقّ الذي خرج منه، وحوّلها إلى امرأة عجوز، فصار عزاءها الوحيد في الحياة بعد انفضاض زوجها عنها. وعلى الرّغم من شعور الزوج أنّ ابنه غريب الشكل قد حرمه لذّته من امرأته، فقد كان يجد فيه عزاءه أيضًا، بعد أن قضى سنواته ينتظر صبيًّا يحمل اسمه، في الواقع ليس اسمه الحقيقي، لكنّه كائن خرج من صلبه، من نطفته التي تتدفّق بالحياة. ويستطيع أن يسمّي نفسه به ليستعيض عن جذوره التي قطعها يومًا ما عن سابق قصد وتصميم. النطفة التي أراد لها أن تكبر وتعمّر هضبة عمياء استوطنها، وبدأ بصنع حلواه الغريبة فيها والتي لم يعتد أهل الجبل عليها، وكانت نطفته الغالية تتحوّل، وخلال تحوّلاته تلك، لم يعرف الأب أنّ الخطّ

الأحمر الذي بدأ يظهر على رقبة ابنه منذ ولادته، ويفصلها إلى نصفين، كان من صُنع يديه في يوم ما.

كبر سعيد في بيته المحاط بأعواد القصب، وأشجار الرمّان اليابسة، والأشواك التي صنعت الأمّ منها سورًا يُحيط بالبيت الطيني المكوّن من صالة فسيحة ينامون فيها جميعًا، وفي وسطها مدخنة صغيرة يطبخون طعامهم فيها. في الغرفة الثانية التي كانت بيتًا لبقرتهم ومعزاهم صنعوا عرزالاً، يقضي فيه الأب جُلّ أوقاته، عندما يريد الانفراد بنفسه، واسترجاع ما فاته من أيّام.

كان البيت الطيني قبل سنوات طويلة بعيدًا عن القرية، يشكّل رأسًا لهضبة صخريّة، تتخلّلها بعض المدرّجات الترابيّة التي قام أبو سعيد باستصلاحها، وزرع فيها أشجار التفّاح والمراب والزيتون. ولأنّ الهضبة القاحلة كانت بالنسبة لكثير من أهالي القرية مكانًا موحشًا أجرد، يفوق قريتهم بؤسًا، فلم يعترضوا عندما جاء في أحد الأيّام رجل في نهاية العشرينيّات من عمره، ونصب خيمته فوقها، وأشعل ناره التي لم تنطفئ من حينها، وحوّل الهضبة إلى مدرّجات صغيرة متفاوتة الطول والعرض. كان يكدّ طول النهار في أيّام الصيف، وتحت الشمس اللاهبة، وفي أيّام الشتاء حين يغمرها الثلج يتجوّل حول الهضبة. يهبط ويصعد من أسفلها حتى عاليها، ويقوم بقياسات غير مألوفة للقرويّين الجبليّين الذين استوطنوا هذه

الجبال من مئات السنين، ناجين من بقر بطون نسائهم وخوزقة أجساد رجالهم، بعد أن حُوّلت قراهم وتجمّعاتهم إلى أكوام من الجثث البشريّة، حيث كانوا يُرمون فوق بعضهم البعض، جثثًا تتكوّم كلّ يوم. منهم من لم يفارق الحياة لكنّه يُطمر تحت الجثث الأخرى ويختنق، وبعضهم ينتظر أيّامًا، لتنزف منه آخر قطرة دم، ويُرمى فوق كتل الأكوام البشريّة، قبل أن تحرق هذه الأكوام بنيران الجنود.

عاشوا أجيالاً طويلة يحملون أرواحهم على أكفّهم، غير مصدّقين نجاتهم من قدرهم المحتوم المروّع. وكان أغلب الذين ينجون من هذه المجازر الجماعيّة يتعاونون فيما بينهم، ويتحوّلون إلى عائلة كبيرة، تخرج على شكل جماعات هائمة على وجهها، تصعد نحو السماء. وتعبير «نحو السماء» لم يكن يعني الموت بالنسبة إليهم، لكنّه يعني المكان الأكثر علوًّا؛ في الجبال البعيدة حيث لا تطولهم أيدي جنود السلطان التركي.

هذا الخوف لم يبدأ معهم، فقد تعلّموا السرّيّة من أسلافهم البعيدين. وبعد أن كانوا رجال علم ودين تحوّلوا إلى جماعات هائمة مشرّدة، لا تفكّر إلّا برمق الحياة المتبقّي. أُحرقت كتبهم، وأشعارهم ومخطوطات تاريخهم أُتلفت، ولم يبق إلاّ حكايات موغلة في القدم، حوّلها الناجون فيما بعد إلى خرافات وأساطير، ونسوا معها أرواحهم هناك في المحارق والمذابح.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وفي رحلة هروبهم المستمرّ عندما يجدون كهوفًا ومغارات، كانوا يستقرّون فيها بحثًا عن مكان أكثر أمانًا وقربًا من الغيوم، يُعيدون فيه إنتاج ذرّيّتهم، ولكن جهودهم كانت غالبًا تذهب سدًى، إذْ لا يكادون يطؤون أرضًا، ويسعون لإطلاق زفرات الراحة، حتى يلحق بهم جنود السلطان ينكّلون بهم، ويحوّلونهم إلى كتل من الجثث المذبوحة والمحروقة، وكانت روائح شواء اللحم البشري، في تلك المحارق، تجعل وحوش البرّيّة تُحيط بالجنود وتُحوّل أيّامهم القليلة التي يقضونها في الحرق والقتل إلى رعب دائم.

في واحدة من أشهر مذابحهم، كان جندي تركي لم يتجاوز الثانية والعشرين، يقوم بنوبة حراسة، ورفاقه يغطّون في نوم عميق، وكان الرجال فوق الخوازيق مشرّعين مثل غزلان مشويّة، وينتشر صراخ النساء المغتصبات اللواتي تُركن أيّامًا إضافيّة للعيش، لأنّهنّ يشكّلن فرصة ثمينة للجنود كي يحظوا ببعض المتعة الزائدة. ذلك الجندي البائس أحسّ ببعض الخوف في لحظات ترافقت مع أنّات خافتة وحركة مريبة من عمق كومة الجثث التي كانوا يستعدّون لحرقها فجر اليوم التالي، فمشى ببطء وحذر، ومدَّ رأسه، ليلمح كائنًا يقف على أربع قوائم، يسحب إحدى الجثث. ركض مذعورًا وأطلق رصاصاته في الهواء، فإذا بالجبل البشري يتهاوى، وتسقط الجثث فوق رأسه وتغطّيه. يهرب الوحش وقد استطاع اقتلاع أضلاع أحد القتلى،

وبقي الجندي تحت الأكوام يئنّ، لكن أنّاته لم يتمّ تمييزها عن الأنّات الأخرى، وقضى رفاقه وقتًا طويلاً يبحثون عنه، قبل أن يقتنعوا أنّه فرّ من الجنديّة. وفي ظهيرة اليوم التالي قاموا بحرق الجثث، وبينها جثّة زميلهم الذي لم يميّزوا صراخه المرعب في البداية، وتركوه حتى فقد وعيه تحت ثقل كومة أحشاء تبدّد معها إلى رماد فوق هضبة جرداء، تشبه الهضبة التي استصلحها أبو سعيد.

بعد سنة من إقامته في الهضبة، وتردّده على القرية، حمل أبو سعيد لأهلها طعامًا غريبًا ذا مذاق حامض على شكل مكعّبات كبيرة، تتخلّلها جبنة ذائبة وتعلوها طبقة محمّرة مقمّرة. قال أبو سعيد لأهل الضيعة إنّها تسمّى كنافة، وهم يصنعونها في كلّ مكان من الدنيا، وإنّ بإمكانه صنع الكثير منها. ظهيرة اليوم التالي قام أهل القرية بجمع البيض، وبضعة أرغفة من الخبز، وجلبوا ديكًا ودجاجة، وأعطوا أبو سعيد وعاء كبيرًا مملوءًا بالحليب، وفي خرقة نظيفة لفّوا له قطعة كبيرة من السمن. وقبل أن يغادروا طلب منهم أن يأتوا له ببعض البذور الجيّدة ليزرع ما يستطيع أن يأكل منه. كان متحفّظًا وصامتًا عندما أرادوا الاستفسار منه عن سبب وجوده في منطقتهم. قال إنّه من الجبل الشمالي. ولم يضف شيئًا، حتى إنّ أحد القرويّين طلب منه إخبارهم بتفاصيل أكثر، خوفًا من الدرك الذين يبحثون عن الفارّين من الجيش، أو اللصوص الجياع، فطمأنه قائلاً: لست

لصًّا ولا فارًّا، أنا فقط عابر سبيل.

عابرِ السبيل هذا لم يكتف بزرع الأشجار، وتحويل الهضبة إلى مدرّجات ترابيّة خصبة، بل بدأ بتعمير غرفة طينيّة صغيرة، فاستاء أهل القرية وخافوا منه، وأرسلوا بطلبه في ليلة شتائيّة باردة إلى بيت الشيخ، وقد أضمروا إبعاده عن قريتهم التي حظيت بقليل من الاستقرار. ليس الاستقرار بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنّه العيش بسلام دون أن يُذبح أحدهم أو يموت جوعًا، أو أن تأكل الوحوش دواجنهم وحيواناتهم. وهذا السلام كان أقصى ما طمحوا إليه.

جاء أبو سعيد ذلك اليوم بسترة خفيفة على الرّغم من البرد، لكنّ وجنتيه الحمراوين وصدره المكسوّ بالشعر، ومنكبيه العريضين اللذين تقدّما رأسه، جعلته مهيبًا بين الحضور. كان يبلغ المترين تقريبًا، وقد أورث طوله وعينيه الخضراوين لابنه، ورأسه المسطّح الذي يتّصف به أغلب أبناء الجبل، وأنفه الطويل الحادّ والمستقيم، أمّا بشرته المحروقة فتحوّلت إلى الأحمر من البرد، وأمّا في أيّام الصيف فكانت تتحوّل إلى الأحمر المحروق بفعل الشمس.

بعض من شيوخ ذلك الزمان كانوا أشبه بعلماء يقضون أوقاتهم في القراءة والعبادة مثل أئمّة المتصوّفين، ويقضون أوقاتهم بين الناس لفضّ الخلافات وتنظيم العلاقات، وتأسيس

مجتمعات صغيرة. وفي الغالب عاش بعضهم حول أماكن بعيدة عن التجمّعات في غرف صغيرة تظلّلها الأشجار العملاقة. الغرف التي تحوّل بعضها في زمن لاحق إلى مزارات يؤمّها الناس من كلّ البلاد. هؤلاء الشيوخ قلّوا سنة بعد أخرى، وتحوّل معظمهم إلى مرتزقة، لكنّهم في ذلك الزمن كانوا يستطيعون التفرقة بين الخير والشرّ عبر دلائل بسيطة في حياتهم المتقشّفة.

شيخ القرية لم يكن واحدًا منهم. كان يعيش بين الناس ويحفظهم عن ظهر قلب، لذلك عندما دخل أبو سعيد، ونظر الشيخ في عينيه وألقى السلام، وجلس بينهم مثل كائن أليف، أدرك الشيخ أنّه أمام رجل مختلف. رجل ليس بخسيس أو نذل، أو قاطع طريق، لكنّه عرف أنّ خوفًا يعشّش في قلب هذا الرجل الجبّار، جلس في مواجهة الشيخ، وفتح عينيه على اتّساعهما:

ـ أنا هنا يا شيخ. ما الذي تريدونه منّي؟ أنا لم أقترب منكم.. و..

ـ لا تستعجل.. أنت بيننا منذ سنة، وأقمت في أرضنا، وآن الأوان لتخبرنا قصّتك.

أدرك من كلام الشيخ أنّه في وضع حرج، وهو مطالب بتقديم تفسير؛ لماذا يهجر رجل بيته وأرضه، ويهرب إلى الجبال؟

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

صمت وتلفّت حوله، واستقرّت عيناه على رفوف خشبيّة تتوضّع فوقها عدّة كتب بنّيّة اللون، حدّق فيها بثبات طويل، فانتبه الشيخ إليه، وقال بصرامة:

ـ هل تقرأ يا...

ـ جمال.. جمال العيسى يا شيخنا. أنا من قضاء أنطاكية، وأنا أستاذ مدرسة سابق وعندي محلّ حلويات...

فوجئ! كيف يعطي كلّ هذه المعلومات الحقيقيّة عن نفسه دفعة واحدة، وشعر أنّه بحاجة للجم نفسه، وتيقّن أنّ الشيخ وحضوره هما السبب في انجرافه وتهوّره هذا، فأضاف بهدوء وضراعة:

ـ هل يأذن الشيخ بأن نكون وحدنا؟

انتفض الرجال من حول الشيخ، وصاروا متحفّزين؛ فما قاله الغريب يوحي بقصّة وهو ما أثار فضولهم. وقف الشيخ بصرامة، فنهض الجميع معه حتى جمال العيسى تأهّب. مرّت لحظات صمت ثقيلة، قال الشيخ بعدها:

ـ اتركونا وحدنا يا رجال حتى نرى في أمر هذا الغريب.

تطلّع الرجال بعضهم إلى البعض الآخر باستنكار، فقد جرت العادة أن يتشاوروا في أمورهم، لكنّهم استجابوا له، وانصرفوا على مضض، واحدًا تلو الآخر، وبقي الشيخ وجمال

واقفين. في تلك الأثناء دخلت امرأة مسنّة، وضعت إبريقًا من الشاي، وكأسين صغيرتين من الزجاج وخرجت بصمت. جلس الرجلان على الحصير. وضع الشيخ إبريق الشاي على موقد حجري صغير، دخانه يعمي عيونهما، ثم جلس القرفصاء وأشار إلى جمال ليجلس إلى جانبه، وناوله كأس شاي حارّ، واقترب منه هامسًا:

ـ والآن ارو لي حكايتك، فأنا هنا كفيلك وشفيعك.

نظر جمال إلى الشيخ، وتسرّب دفء إلى قلبه. دفء لم يشعر به منذ زمن طويل، عندما كان لا يزال يعيش بين أهله:

ـ ستعاهدني عهد الله أن يبقى ما أقوله بيننا؟

ـ أعاهدك، ويجب أن تعاهدني عهد الله، إن أخبرتني بأمرك، وأمرتك بالرحيل، أن ترحل في الحال؟

ـ أعاهدك.

اقترب الشيخ منه، وهو معجب بفصاحته ولغته الرصينة السلسة. وضع صينيّة الشاي في الوسط وتربّع أمامها، وحرّك الموقد، فاشتعلت النيران، ونثر فوق النيران نتفًا من حبيبات البخور، فعبقت رائحة الغرفة بجوّ مهيب جعلت جمال العيسى يشعر أنّه في لحظة موته، وأيّ حركة منه خارج حدود عيني الشيخ ستودي به إلى الهلاك المقدّر له. وربّما تجسّد الهلاك

على هيئة هذا الشيخ الذي لم يجد مفرًّا من مصارحته بأمره، وبعد ذلك سيقرّر إن كان سيهرب في منتصف الليل ويواصل ارتحاله، أم سيعفيه الشيخ من عذابه ويسمح له بالبقاء في هذا المكان الأجرد الذي لا يشبه قريته الخضراء، ربّما فقط في تشابه سحنات وجوه الناس.

انتظر الشيخ قليلاً، لكنّ جمال حافظ على صمته، واستطاع الشيخ أن يسمع لغطًا في الخارج، تيقّن أنّه لغط الرجال الذين خرجوا قبل قليل، وكانوا مستائين لاستحواذ هذا الغريب على شيخهم، لم يكن الاستياء فقط، بل الفضول الذي حوّل أصواتهم إلى طنين حادّ في أذني الشيخ. ابتسم، ومدَّ له كأس الشاي هامسًا:

ـ والآن.. ما قصّتك أيّها الغريب؟

تيبّس جمال. ليس من الخوف، لكنّه لم يفكّر حتى الآن فيما فعله وفي قصّته، وهل ما حدث واقعي؟ أم هو مجرّد حلم، وهل يستطيع أن يركّب خيوط قصّته. لم يستطع حتى أن يبدأ. من أين يبدأ حكايته، ومن أيّ قصّة؟ هي قصص كثيرة حوّلته من رجل سعيد إلى رجل مشغول بالتعاسة. يهرب من ظلّه إن أمكنه ذلك.

ـ هل قتلت؟

ـ قتلت.

أجاب بسرعة، وكأنّه أرخى أخيرًا حمله، وارتشف شايه، ومدّ يده بجرأة إلى جراب التبغ. قرّب صينيّة الشاي وفتح الجراب، فرد التبغ المفروم ببراعة، ولفّه بورق أبيض، ثم وضعه جانب الشيخ على طاولة خشبيّة صغيرة بحجم دائرة الوجه، واقترب من النار وأشعل سيجارته مقرّبًا وجنتيه من الوهج. سعل بخفوت. نظر في عيني الشيخ الجامدتين. حاول قراءة ردّ فعله، لكنّ الشيخ كان حجرًا، كان بعيدًا وقريبًا. يقترب منه ويبتعد عنه بالقوة نفسها. ولوهلة شعر جمال أنّ يدًا خفيفة مسّته، فتحوّل أيضًا إلى تمثال من الصوّان. تغلّب على برودته التي سرت في عروقه، وقال:

ـ لست بقاتل يا شيخنا، لكنّي قاتل! إن أذنت لي أحكي لك حكايتي، أو تترك لي فرصة كي أكتبها فالحكي ثقيل عليّ.

نظر الشيخ بدهشة إلى وجهه وقال:

ـ أفضّل سماعها منك، بلسانك وقلبك.

تنحنح، وأدرك أنّه هالك. ليس بسبب قصّته الفاضحة، وإنّما لأنّه يملك الجرأة على البوح بما فعل علانيّةً أمام هذا الرجل. فكّر أن يتركه ويهرب، تمنّى لو أنّ عروقه تتجمّد وينتهي من هذا كلّه.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

امتدّت يد الشيخ ولمست كتفه. نظرته الثاقبة في عينيه جعلت جمال يرتخي ويقرّر بدء حكايته:

ـ كنت أفضّل لو أعفيتني من محنة اللقاء بك هذه، وتسطير الحكاية على ورق. عندي ورق كاف أستطيع أن أكتب لك ما تشاء.

ـ ليس ضروريًّا، عليك توفيره لوقت الشدّة.

صمت لدقائق. الشيخ كان صامتًا، وينظر إليه بصرامة، قال:

ـ كنت في إسطنبول أزور إحدى المدارس لجلب بعض الكرّاسات للصبيان الذين أعلّمهم، فهم يأتونَ إليّ من عدّة قرى، ويقطعون طرقًا وعرة في رواحهم ومجيئهم. كانت روحي معلّقة بهؤلاء الأولاد، ليس لأنّي لم أنجب من امرأتي التي أهواها صبيانًا أو بنات، ولكنْ، والله شاهد، لأنّي نذرت نفسي لهم. واسمع يا شيخنا! أنا لا أجمّل نفسي أمامك. ولكنّ أبي من كبار الملّاكين، يملك نصف قريتنا، وعمّي الذي تزوّجت ابنته يملك نصفها الآخر. وحتى لا تذهب بك الظنون؛ فقد تزوّجت ابنة عمّي وكلّ من حولنا يعارض هذا الزواج، فعائلتنا كانت تنجب المجانين بعد أجيال من الزواج من بعضها البعض..

يغبّ من سيجارته نَفَسًا طويلاً ويتابع:

ـ كان أبي وعمّي الوحيدين اللذين سَلِما من تلك الأمراض، فقرّرا ألاّ يتزوّج أيّ من أولادهما بعضهم من بعضهم الآخر. ولكنّي منذ فتحت عينيّ على النور عشقت المرأة التي صارت زوجتي، بعد أن خطفتها في ليلة ملعونة، وسافرت بها إلى إسطنبول. بعد سنة عدنا إلى القرية وسط تخوّف الجميع من حولنا؛ فقد انتظروا كائنًا مخبولاً يضاف إلى سلسلة المخبولين التي مُنيت بها ذرّيّتنا، والذين كانوا يجوبون الطرق، وهم يصرخون ويلعنون، يتغوّطون، ويتبوّلون على الناس، ويجلبون لنا الفضيحة والعار. لذلك كانوا يحبسونهم في غرفة طينيّة واسعة إلى جانب زريبة البهائم، وكانوا يتلقّون المعاملة نفسها، إذ مُنعوا من الخروج ومن الاختلاط بالناس. وقام على خدمتهم مجموعة من الفلّاحين الغلاظ الخَلق والخُلق. كنت أسمع أصواتهم حين يجلدون، أو يزعقون...، كانوا أكثر من عشرة، ثلاث نساء وسبعة رجال.

توقّف جمال عن الكلام، وبدا أن تنفّسه صار مسموعًا، فاقترب من النار ثانية، وأشعل سيجارته التي انطفأت، ثم عبَّ نَفَسًا عميقًا، وسرحت عيناه. شعر أنّ الشيخ يحدّق فيه، لكنّه لم يتنحنح، واستمرّ تدفّق الكلام:

ـ أثناء خصام عائلتنا عشنا. كانت كلّ حياتي وكلّ ما

أردته. اخترنا مكانًا في طرف القرية لنعيش فيه، ونحن ننتظر كلّ يوم مصيبة من الله، عقابًا لنا على ما فعلنا. مصيبة تخرج من بطن زوجتي، وتلقي بها بين يديّ، لكنّ ذلك لم يحصل، واستمرّت الحالة هكذا لسنوات حتى اقتنعوا في العائلة أنّنا لن ننجب لهم مسوخًا جديدة، فتصالحنا معهم، وبقيت سنة قبل أن أقرّر السفر إلى إسطنبول من أجل مدرسة الأولاد. نسيت إخبارك أنّي تعلّمت صنع الكنافة عندما هربت مع ابنة عمّي، واشتغلت أجيرًا عند أمهر صنّاع الكنافة في إسطنبول. لن تصدّق يا شيخي، هذه المدينة جنّة على الأرض.

يبتسم الشيخ، ويومئ برأسه، ويتمتم: أصدّق أصدّق. ثم يحمل كأس الشاي الفارغة، ويصبّ من الإبريق حتى تمتلئ الكأس وتطوف حوافّها بالشاي الساخن. يجمد جمال من جديد، ويحمل الكأس عن الشيخ، وتحترق أصابعه. يشعل الشيخ سيجارة له، ثم سيجارة لنفسه، وهو يراقبه بحذر:

ـ عندما ذهبت إلى إسطنبول مرّة ثانية، بقيت ستّة أشهر، أتعلّم صناعة الكنافة، وأدرس على يد أحد الشيوخ في مدرسته المخصّصة للغرباء طالبي العلم، وأدوّن ما تعلّمته في كراريس. قرّرت العودة لأنّي لم أطق العيش بعيدًا عن زوجتي، وشعرت بالشفقة عليها لأنّي تركتها وحيدة، وبدأ جسمي يذوي من الفراق، فعدت مشتاقًا، ويا ليتني لم أعد. في عودتي كان

الموت وتحقّقت اللعنة، ولكنّ اللعنة لم تكن طفلاً مسخًا، بل في تحوّلي إلى مسخ.

يرتجف جمال وتتقلّص عضلات وجهه، ويختفي الضياء المحيط به، والذي طالما جعله رجلاً مشتهى من كلّ امرأة أبصرته. تنتفخ وجنتاه ويضيق صدره، وتختلج قسمات وجهه بتعبير ألم حادّ، يجعل منه مسخًا بشريًّا، فترتفع شفتاه نحو الأعلى وتنقلب، ويتوسّع منخراه، ويطبق جفناه، وترتجف أصابعه، ويخيّل للشيخ أنّ الرجل الذي أمامه يحتضر، فيشدّ على أصابعه ويفركها ويقترب منه، ويمسح على جبينه، ولكنّه لا يطلب منه التوقّف عن سرد حكايته. يشهق جمال وتتدفّق من عينيه الدموع. وحتى تلك اللحظة كان الشيخ مؤمنًا أنّه لا توجد قوّة في هذا العالم تستطيع زحزحة هذه الرجل عن صرامته وجبروته، لكنّ دموعه جعلته يوقن أنّ مصيبة شرخت هذا الرجل إلى أبد الآبدين.

ـ هيّا يا بنيّ أكمل قصّتك.

نشم جمال، ومسح مخاطه ودموعه، وشعر أنّه يقتلع عينيه مع دموعه المالحة التي شربها وكأنّها جدول ماء، ثم ارتشف آخر قطرات في كأس الشاي:

ـ واجهني أهل القرية بنظرات الاستنكار، وكانوا يردّون التحيّة بتهكّمات واضحة. ولم أعرف السبب حتى لاقتني

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

زوجتي، وقضيت ثلاثة أيّام بلياليها، لا أبرح فراشها، ولا أنفكّ أنهل من متعتها. وفي اليوم الثالث، قلت لها: عليّ بزيارة أهلي. منعتني. قالت إنّها لم ترتوِ منّي، وبقينا أيّامًا أخرى، كنّا ننام لنفيق ونفيق لننام على متعتنا، وهالني تحوّلها. فرحت من قلبي، فقد أمتعتني كما لم تفعل أبدًا، وجعلتني أكتشف نفسي وجسدي وحواسّي. وعندما انقضى الأسبوع، تركتها نائمة، وخرجت إلى بيت أهلي الذين أغلقوا الأبواب بوجهي واتّهموني بالفسق. الكلّ فعل ذلك، ولم أعرف السبب. عدت إلى بيتي، أشكو لزوجتي الحال فلم تكترث.

في مساء ذلك اليوم جاء أهلي لزيارتي، وأخبروني أنّ زوجتي تخونني، وقالوا لي إنّه يجب عليّ غسل عاري بيدي. لن تصدّق يا شيخنا ثقل تلك الأيّام. أيّام بلياليها أحاول معرفة الحقيقة، ومراقبة الرجل الذي خانتني معه، لكنّي لم أعثر على دليل. لست طائشًا. كنت صاحب عقل ودين، وكنت أحبّها أكثر من روحي، حتى جاءني أخي، وطلب منّي الاستماع إليه، والقول إنّي مسافر إلى إسطنبول لستّة أشهر أخرى، ففعلت وانتظرت متخفّيًا، ورحت أراقبها. بقيت على هذه الحالة شهرًا كاملاً، ولم ألمح ما يشير إلى خيانتها، وفي اليوم الأوّل من بداية الشهر الثاني، وكنت متخفّيًا في بيت أخي، أنام في العلّيّة نهارًا، وأراقب بيتي ليلاً، خرجت بعد منتصف الليل، انتظرت تحت نافذتها بين شجيرات التين. هناك يا شيخنا شاهدت ما

جعلني أموت. صدّقني أنا الآن رجل ميّت، لا قلب ولا روح ولا عقل لي. أنا بهيمة تمشي على الأرض، ولولا خوفي من الله لنحرت نفسي في ساعتها. كانت هي نفسها، كانت في سريري مع رجل. رأيتها بين أحضانه. بصمت وهدوء دخلت البيت. فتحت باب غرفتي. كانا عاريين في سريري. لم يشعرا بي، كانا متلاصقين لدرجة أنّي حززت رقبتيهما ولم أسمع صوت صراخ. دخلت زاحفًا على أربع مثل دابّة بجوار السرير. ذبحتهما، ولم ينفصل رأساهما من المرّة الأولى، أعدت حزّ رقبتيهما بالقوة نفسها وركضت مسرعًا. ومنذ ذلك الحين، ما زلت أركض.

أنهى جمال العيسى كلامه، ثم تهاوى بين قدمي الشيخ، وغاب في دوّامة لم يصحُ منها إلاّ بعد أيّام على وجه فتاة جاوزت الثلاثين من عمرها، ولم تجد عريسًا لها مع أنّها ابنة الشيخ، لكنّها صارت تُلقّب بعد تلك الليلة بسنة واحدة، بأمّ سعيد ناصر.

قميصا ليلى وسعيد في الجبل

الشابّ الذي انتظر طويلاً، عودة معلّم القرية وزوجته الجميلة من إستانبول، كان ينظر بولَهٍ إلى النافذة التي بانت من ورائها خيالات الزوجة، وهي تروح وتجيء وتضحك. كان يستعدّ في قرارة نفسه للموت مع النار الحارقة التي استولت على قلبه، عندما أيقن أنّه هالك وواقع في غرام امرأة متزوّجة. كيف يمكن له أن يجد هدوءًا بعد اللحظة التي رمقته بها بعينين واسعتين وأهداب عسليّة تتوهّج تحت غرّة شقراء. كلّ ما تذكّره منها في صحوه ومنامه، أهداب عسليّة وغرّة ذهبيّة تلوح فوق جلدها الأبيض البضّ. ومنذ تلك اللحظة وهو يحوم حول البيت الذي تحوّل إلى مزار له. روحه انسلّت منه وسكنت تحت نافذتها. كان يترك عمله في الأرض، وكان إخوته وأبوه يصيحون به كلّ يوم وهو يرمي بمعوله، ويشمّر عن ساعديه، ويهرب بين الأشجار، ويستقرّ في زاوية قريبة من بيت المعلّم، حيث ستُتاح له فرصة أن يلمح معبودته. ولمّا بقي ثلاثة أيّام ذاق

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

خلالها كلّ أنواع الحزن والقلق وخفقان القلب، قرّر أن يفعل شيئًا، وصار يتمنّى في أعماقه، أن تحدث مصيبة، وتجعل من هذا الزوج يختفي عن الوجود.

كان الشابّ قد تجاوز العشرين. بشرته بيضاء وعيناه خضراوان لوزيّتان، وخصره نحيل كخصر فتاة، لكنّ صدره عريض وواسع، حيث عمد إلى جعل قمصانه مفتوحة دومًا حتى بداية خاصرته، لتتسنّى لفتيات القرية رؤيةُ صدره الواسع المكسوّ بالشعر. وهذه العادة انقلب عليها بعد أن وقع في غرام زوجة المعلّم، وصار شكله ميّالاً للحزن والفوضى. كان يلحق بها أثناء تنقّلاتها في القرية. يلمس الأشجار، ويحفّ أصابعه بأوراقها، ويهرول لاهثًا بعيدًا عن مرمى نظر زوجها. وعندما كان المعلّم ينتبه إلى ابن جارهم الذي يظهر في كلّ مكان من حوله، كان يعتقد أنّ الأمر صدفة، ولم يفكّر البتّة في أنّ هذا الشابّ قد وهب قلبه وجسده لامرأته الجميلة التي كانت تشعر بما يفعله الشابّ المجنون، فتسري في عروقها دغدغة غامضة لم تعرف سببًا لها، لكنّها تحكي لزوجها قصصًا غريبة عن الحبّ الذي جمعها يومًا في حياتها السابقة مع رجل ذبحها في صدرها، عبر سكّين مصوّبة بدقّة إلى قلبها حتى لا يغتصبها الجنود. وكان المعلّم يطلب منها السكوت عن هذه القصّة لأنّها محزنة. وعندما تنام بين يديه في الفراش تشير إلى ندبة ذات لون زهري تخترق نهدها الأيسر، وتقول له: هنا تمامًا في القلب.

وكان المعلّم يقوم بتقبيل نهد زوجته ويقول: غدًا يختفي، فتضحك المرأة الجميلة، وتقول له: ولدتُ في الطريق إلى الجبل بعد المذبحة، فيقبّلها ثانية ويطلب منها الصمت. تصمت وتنام وترى في أحلامها أنّها ستعيش يومًا في كلّ بيت، وأنّ جسدها سيتحوّل إلى صور كثيرة يستطيع الناس رؤيتها بعيدًا عن وجودها الحقيقي، وهي نفسها تنظر إلى صورتها عبر نافذة صغيرة تبدو مثل مربّع صغير. وهذه النوافذ تظهر على بيوت الناس جميعًا، وهم يفتحونها ليل نهار، ويقومون برؤية العالم كلّه من خلالها وليس صورتها فحسب. وفي صباحات أحلامها تلك، كانت تقول لزوجها: إنّها ستكون امرأة ذات شأن في حياة ما، وكان الزوج يضحك من هلوسات امرأته بحياتها السابقة وحياتها اللاحقة، لكنّه لم يعتقد أنّ ما تقوله مناف للحقيقة. على العكس تمامًا، كان يأخذ بجدّيّة بالغة ما تحكيه من حكايات ويدوّنها.

كانت القرية التي عاشا فيها تشكّل مجموعة من عائلات استوطنت أنطاكية قبل مئات السنين، واستطاعوا النجاة من مذبحة حلب. عاشوا على الزراعة وعلى مساعدات بعضهم البعض الآخر، وحينها كانت تلك الأراضي تمتدّ بين البحر والجبل شمالاً. ولولا مصادفات واهية لبقيت تلك المجموعات البشريّة تعيش في فردوس منفاها القسري، قبل أن تنفصل عن البلد الأمّ، وتصير جزءًا من دولة مجاورة.

الشابّ الذي قرّر مواجهة الزوجة ذات صباح، بعد خروج المعلّم من البيت، وقف بقوّة أمام شجرة البلّوط التي تبعد عشرات الأمتار عن البيت المنزوي عن القرية، بعد أن قرّر المعلّم بناءه بعيدًا عن تطفّل الأهل الذين وجدوا في زواجه من ابنة عمّه نذير شؤم لهما. كان البيت يتكوّن من غرفة نوم وفناء واسع وغرفة كبيرة في جانبها مدخنة من الطين والحجر. أمّا الغرفتان الأخريان فقد خُصّصتا للبقر والماعز. وعدا الورود المحيطة بالبيت من داخله وخارجه، كان يبدو مثل أيّ بيت آخر، وميزته كانت في نوافذه الواسعة التي صمّمها المعلّم خصّيصًا له. قال لزوجته: إنّ النوافذ الواسعة تأتي بالشمس والضحك، وهي كفيلة بجعلنا أكثر سعادة من غيرنا، لكنّ النافذة الواسعة لم تكن لتحقّق سعادة أكبر من تلك التي حقّقتها للشابّ ذلك النهار.

وقف قليلاً وانتظر بضع دقائق يراقب الطريق الترابي الضيّق الذي يشقّ الأشجار الكثيفة، ويؤدّي إلى عتبة البيت الطيني. المكان خال، ولا أصوات تُسمع سوى هسهسة بعض الأوراق التي تساقطت وتحوّل لونها إلى البنّي والأحمر. مشى ببطء، فأحدث وقعُ أقدامه خشخشةً مفزعة جعلته يشعر بالخوف. قال بصوت مسموع: تجرّأ يا ولد.

وتجرّأ الولد حتى وصل عتبة البيت، وطرق الباب الخشبي

بقوّة، ثلاث مرّات متتالية. انتظر دقيقتين. سمع الصرير، وظهرت المرأة التي جعلته لا يدرك ليله من نهاره. وقف بصلابة واستقامة، وتراجع أمام العتبة. نظرت إليه بعينين واسعتين. حلّ الصمت لدقائق، كان كلّ منهما ينظر بخوف وجزع، هي تعرف تينك العينين، وهو مأخوذ بالبياض المنهمر من وجهها عندما شقّت الباب. صار نهدا المرأة يعلوان ويهبطان بسرعة، وهو يحدّق بعينيها بصمت. ولمّا حاول تحريك شفاهه، كانت قد جذبته إلى الداخل وهي تهمس: هل جُننت.. ماذا جئت تفعل؟ لم أستطع الصبر، قال الشابّ، وكأنّ تواطؤًا يجمعهما منذ عمر مضى، أو كأنّ ذكريات ما قادتهما في الماضي نحو الخوف. تركته داخل فناء البيت وخرجت إلى الطريق، وتلفّتت يمينًا وشمالاً، ثم أسرعت الخطى، وأقفلت الباب عليهما، وهناك قبل أن يُتاح لأيّ منهما أن ينبس بكلمة كانا قد التصقا، وكلّ منهما يحضن الآخر. قالت: قدّرت أنّك ستأتي يومًا. كنت خائفًا، أجاب، وعيناه تحدّقان بدهشة في عينيها.

عصرها بين ذراعيه، وكان يشعر بقلبه يفيض ويفيض، ويملأ العالم من حوله بأمواج عاتية، وجسده يرتجف، حتى إنّ قطرات كثيفة من العرق بلّلت قميصه. قال إنّه أحبّها منذ أن ولدته أمّه! فأجابت: وأنا. أمسكت به من يده، ودخلت به إلى غرفة يتوضّع فيها سرير نحاسي عتيق، جلست عليه، فَأَنَّ السرير، ثم جذبته إلى حضنها، قبّلته بنهم. كان ينظر إلى عينيها

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

بذهول وهو يعرفها ولا يعرف أين عرفها وسيعرفها، لكنّه ترك نفسه لها، ودخل فيها حتى تحوّلا إلى عجينتين يصعب الفصل بين تداخل أعضائهما. بعد وقت ليس بالطويل، كان يقف أمام عتبة البيت خائفًا فرحًا مضطربًا، يُداري ارتعاش نشوته، ويراقب الطريق الذي بدا منه خيال ما، فهرب إلى الجهة الخلفيّة. وكانت المرأة تكمل ارتداء ثيابها، عندما سمعت طرقات على الباب، وصاحت: من؟ ثم فتحت له الباب الخلفي المخصّص للحيوانات، وركضت لتفتح الباب الأمامي، وترى إحدى أخواتها تحمل لها جرّة من الحليب. نظرت إلى الأخت بشرود، ثم تهاوت على الأرض، وهي تشهق من فرط السعادة.

بعد ذلك اليوم لم تهدأ روحها. والشابّ الذي قرّر أنّه سيهرب بها، كان بحاجة للمرور يوميًّا وراء أكمة الشجر التي تدور حول بيتها، لكنّه لم يجد بُدًّا من الصمت وتحمّل حريق قلبه، حين أخبرته أنّ زوجها سوف يعود من إستانبول.

كانت المرأة، خلال أشهر، قد امتلأت، وصار جسدها بلون زهري فاتح، وتلوّنت وجنتاها بالأحمر الذي صار يصبغ وجهها كلّما تحرّكت وتحدّثت إلى أحد ما. كان العالم من حولها أجملَ من أيّ وقت مضى، بعد أن وجدت أنّ لحمها يرقص في حضن الرجل الذي عثرت عليه في غامض أيّامها. وكانت تريد أن تقول لزوجها، في كلّ ثانية وفي كلّ يوم، إنّها

وجدت حبيبها الذي قتلها يومًا في حياتها السابقة حفاظًا على حبّه. لكنّها كانت تحجم وتفكّر أنّ عليها التفكير بتروٍّ حتى لا تخسر حبيبها. وأيقنت أنّ أحلامها وكلّ ما رأته في الطفولة لم تكن من اختلاق عقلها، فقد عرفت، في اللحظة التي فتحت بابها، أنّ الشابّ الذي نظر إليها بولَهٍ هو الرجل الذي أحبّته في حياة ما، وقبل أن تموت عرفت أنّها ستعود وتحبّه أيضًا.

كان السبب الرئيس الذي منعها من السفر مع زوجها إلى إستانبول هو عجزها عن مفارقته. أيقنت أنّها هالكة في فراقه. والشابّ الذي صار يتخيّل الحياة من دونها موتًا محتّمًا، قضى ثلاثة أيّام ينام تحت شجرة البلّوط باكيًا وراجيًا إيّاها أن تسمح له بمعاودة لقائهما في البيت، وهذا ما فعلته.

نسيت القرية وأهلها، وكلّ من يُحيط بها. صار بيتها مملكتها الوحيدة. تنام في النهار، وتنتظر قدومه في آخر الليل لتطير معه. تشعر أنّهما يطفوان فوق الفراش الذي تسمع صوته يئنّ كلّما انهمر بثقله فوق جسدها، وكلّما دخل فيها وهو يهمس لها بكلمات الحبّ. وكانت تلمس بأصابعها السرير لتتأكّد أنّها لا تسبح معه، وفي كلّ مرّة تكتشف أنّ أصابعها تخترق حالة رطبة وناعمة. لم تعرف أنّ هذه الحالة هي الهواء أو هي السباحة فيه أو انعدام الجاذبيّة. لم تفهم كثيرًا في هذه الأمور، لكنّها، وحين يغادر سريرها، قبل طلوع الفجر، كانت تنزلق

ببطء من ذلك العلوّ الذي ارتفع إليه جسدها. وفي نهار اليوم التالي، كانت تغرق في كآبة غريبة لا توقظها منها إلاّ وشوشات تحت نافذتها، وهو يطرق بخفّة ملامسًا بأصابعه الزجاج السميك.

ولم تستفق من حلمها وتقوّلات من حولها، إلاّ حين وصل المعلّم ذات مساء من إستانبول. ومضت عدّة أشهر، ولم يفهم العاشق الشابّ ما الذي حدث فجأة؟ وانهار العالم من حوله. كيف عاد زوجها؟

حبس نفسه في بيته، ولم يغادره حين صدّته قائلة إنّها لن تستطيع لقاءه بعد الآن. قالت ذلك في لحظات، وهو يقف متوسّلاً أمام بيتها بعد انقضاء ثلاثة أيّام يراقب فيها ما تفعله هي وزوجها وينتظر خروجه. وعندما لمحه خارجًا ذات مرّة، ركض بسرعة ووقف على عتبة الباب. كانت خائفة وصفراء اللون وشاحبة، طلبت منه الابتعاد عنها على الأقلّ في الوقت الحالي.

بعد أيّام من الحمّى الشديدة، انتشر خبر مرضه في الضيعة، وانفضّ الناس من حول عائلته. ولم يفهم أيّ واحد منهم ما يحدث حتى حدث ما حدث. وقام الزوج في ليلة ملعونة، بذبح زوجته وابنهم العليل.

كانا في لحظة الموت يطيران كعادتهما، في مكان خفي لا يدرك كائن سواهما كنهه. ومع ذلك لمحت الزوجة لمعان نصل

حادّ أمام عينيها قبل أن تفارق الحياة. وفي تلك اللحظة بالذات، تذكّرت موتها السابق، ونصل السكّين الذي اخترق قلبها، فلم تصرخ، ولم تمنع موتهما معًا. بقيت تحدّق في زوجها وحبيبها يدخل فيها، ثم رأت بكلّ وضوح، كيف تفجّرت الدماء فوق صدرها، وأحسّت بحريق حادّ ومؤلم يفصل رأسها عن جسدها، ثم دخلت في لون أزرق داكن، يشبه عالمًا من الدهشة، وهي تغمض عينيها، وتحدّق في عيني حبيبها الجاحظتين الميّتتين قبل أن تموت قربه. الأهمّ من كلّ هذا، أنّ إحساسهما بالطيران لم يتوقّف لحظة، لأنّ الموت الذي أدركهما عاريين لم يمنحهما حتى فرصة السقوط من أعلى ذروتهما. ماتا تمامًا كما يليق بعاشقين أن يموتا، لحظة الاندفاع المجنون لرغبتهما في الوصول.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

سعيد ناصر

الهضبة الجرداء التي حوّلها أبو سعيد ناصر إلى دائرة ملوّنة، تشكّل في أحد أطرافها امتدادًا طبيعيًّا لسهل واسع بين جبلين. أمّا طرفها الآخر فينتهي بمنحدر صخري حادّ جعل منها مصدر رعب وخوف لأهالي القرية. لم يقتربوا منها ويسكنوها، بعد أن شاهدوا بأمّ أعينهم تساقطَ من حاولوا اكتشافها. ومع مرور الزمن تحوّلت إلى مكان ملعون، تُحكى عنه الحكايات، حتى جاء اليوم الذي قام فيه شيخ القرية بتزويج ابنته الوحيدة من الرجل الغامض الذي سكنها، وحوّلها إلى مزرعة صغيرة، وبنى على حافّة المنحدر بيتًا وجدارًا من الطين.

عند الجدار الطيني بنى سعيد ناصر عشّ النسر، واقتلع الأشجار التي غرسها والده، وعبّد طريقًا بالإسفلت إلى الهضبة، واحتفظ بالبيت القديم الذي عاش فيه، بعد أن حوّله إلى مقام لجدّه. بنى قبّة بيضاء وغرس كلّ أنواع الأشجار الغريبة، وجلب

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

نخلات كبيرة أحاط مقام جدّه بها. وكان يُعيد طلاء المقام مرّتين في السنة، ويحرص في كلّ مرّة يقوم بزيارته على أن يلمح البياض الذي يفرح قلبه. وإلى جانب المقام دفن أباه وأمّه وأخته الصغيرة التي هوت يومًا من المنحدر، فدفنوا ثيابها في حفرة وسمّوها قبرًا. وعدا ذلك كانت الهضبة محاطة بأسلاك شائكة، يتوزّع جنود حولها من كافّة الأطراف. عيونهم مثل ضباع جائعة لا ينامون. كانوا عشرة جنود، نحيلي الجسد طوال، ومن أبناء القرى المجاورة، يتناوبون الحراسة في الليل والنهار، وداخل الهضبة التي تحوّلت إلى كرة خضراء صلعاء عدا البقع الصغيرة حول المقام، فقد التفّ الطريق إليها على شكل شريط حلزوني، معبّد بإسفلت قاتم على جوانبه تتوضّع قوائم حديديّة مترابطة فيما بينها بسلاسل نحاسيّة مزخرفة، والطريق العريض المؤدّي إلى عشّ النسر كان يحتاج لأربع بوّابات لاجتيازه. البوّابة الأولى يتناوب عليها حارسان وثلاثة كلاب، أمّا الثانية فتشتغل على الكهرباء، ولا تُفتح إلاّ من الداخل، والبوّابة الثالثة عبارة عن باب زجاجي، ينفتح أيضًا من الداخل، أمّا البوّابة الرابعة فكان يقف أمامها رجل ضخم الجثّة، يحمل بيده جهازًا لاسلكيًّا كبيرًا، ويوزّع المهامّ على رجاله المنتشرين حول المكان. كان هذا في الأيّام الغابرة. الآن تغيّرت الأحوال، وبقي لديه خمسة رجال فقط؛ اثنان في الداخل رافقاه في حياته أكثر من عشرين سنة، أمّا الثلاثة الباقون فأحدهم على البوّابة الأولى، والاثنان

يعملان في المطبخ. الأسلاك الشائكة بقيت على حالها دون حراسة، لكنّ المكان كان آمنًا، وما لم يعرفه سعيد ناصر، أو ربّما يعرفه، أنّه طالما كان آمنًا.

الرجل الضخم الجثّة، والذي كان يحمل فيما مضى جهاز اللاسلكي، صار الحارس الخاصّ له. وهو من أتى له بكأس الزوفا، وحاول إطفاء جهاز التلفزيون ليعفي سعيد ناصر من حزنه، فصرخ به وطلب منه الخروج. خرج الرجل بصمت، وبقي سعيد أمام شاشة التلفزيون يفكّر فيما يجب عليه فعله. يذهب إلى العاصمة؟ أم يحتفظ بصمته ويتجاهل ما حدث، ويكتفي بحزنه مثل هذه السماء الخرساء؟

سيكون صمته مضيعة لوقته، ويكون ذهابه ذبحًا لروحه. ما الذي يتوجّب عليه فعله، وما الذي حدث؟ ما الذي سوف يحدث؟ ستقوم الدنيا وتقعد في العاصمة، قال لنفسه، وهو يقترب من الشاشة ويراقب الجنازة. ابتسم بمرارة، وهو يفكّر في أنّ الناس سيجتمعون لأيّام طويلة حول راحلهم، يبكونه ويتحسّرون على الأيّام القادمة بدونه. لو كان ما يزال في العاصمة لصنع شيئًا يشبه أفكاره هذه؛ جنازة لائقة بعظمة القائد. القائد الذي لا يموت أبدًا. الأوغاد في العاصمة حرموه من هذه المتعة. لم يكلّف أحدهم نفسه، ويتّصل به ليخبره أنّ الرئيس مات. إنّها خيانة!

لكنّك كنت في الصحراء تصيد! قال بصوت عال.

هل يعقل ذلك؟

مات الرئيس!

جملة غريبة عليه، لم يعتقد أنّه سيردّدها، ولا يريد سماعها. هذا الرجل ليس رئيس البلاد فحسب، إنّه الرجل الذي خدمه طول عمره بتفانٍ وإخلاص، وجعل من وجوده ملاذًا له، بعد أن عرفه عن قرب كما لم يعرفه كائن حيّ، أو على الأقلّ هذا ما خُيّل إليه، لأنّ كلّ المقرّبين من حول الرئيس الراحل كانوا يجمعون على قدراته في جذب محاوره، ليس فقط جذبه، بل جعله يشعر بالرضا والاطمئنان مهما يختلف معه. وعلى الرّغم من أنّه في نهاية المطاف لن يفعل إلاّ ما يريده، لكنّه كان يعطي بحواره، كما وصفه سعيد ناصر دومًا، أملاً في أن يغيّر رأيه في اللحظة الأخيرة.

كان هادئًا وذكيًّا إلى درجة أخافت كلّ من حوله، وسعيد ناصر الذي أراد أن يتخلّى عنه يومًا ما، وحده يدرك ما الذي حصل عندما جاء رجل قوي مثل رئيسه، وقاد بلاده دون أن يراوده شكّ بأنّ هذا الرجل العظيم هو الوحيد الذي يحقّ له ما لا يحقّ لغيره. وفي لحظات كثيرة، كان يقول لنفسه إنّ الله عوّض جماعته بهذا الرجل الذي أعاد لها وجودها وحفظها من

ضياعها. هذا ما اعتقده حينها. والأدقّ كانت هناك حادثة جعلته يعتقد ذلك.

فقد دخل يومًا إلى مكتب الرئيس، وكان لم يزل وزيرًا، فقابله بحرارة، وضمّه إلى صدره، وربّت على كتفه. كان الحضور الحسّي لسيادته كما يقول سعيد، يعطي إحساسًا بأنّ له قريبًا بعيدًا قد وصل من آخر الدنيا. عينا الرئيس الصغيرتان اللامعتان والذكيّتان قادرتان على قراءة أفكار محاوره ببساطة. ولن يفوته أن يبتسم، وأن يكون صوته هادئًا ذا بحّة غريبة تجعله دافئًا. وكان سعيد مفتونًا به وبحضوره، ويتمنّى لو أنّ الله منَّ على هذه البلاد برجل جبّار يحكمها، ويُعيدها إلى جادّة الصواب، وينقذها من الانقلابات العسكريّة. كان سعيد أطول من الرئيس بعدّة سنتيمرات، لكنّه أقلّ رشاقة منه، وأقلّ اعتدادًا بالنفس. هذا ما كان ينقصني. يردّد بينه وبين نفسه جملتَهُ هذه في كلّ مرّة يلتقيه. جلس الرئيس قبالته، حانيًا ظهره قليلاً، وشبك يديه، وابتسم برقّة ثم قال بتحبّب:

ـ اجلس يا سعيد.

جلس مرتبكًا، تغمره سعادة خفيّة، وهو يحاول قراءة وجهه، ولكنّ ذلك كان من أصعب الأمور. لم يستطع أحد، أيًّا كان، قراءة أفكار الرئيس. كان غامضًا ودمثًّا، ومن الصعب تحديد ما سيقوم بفعله. وسعيد يعتقد أنّه يملك عدّة أدمغة! أمّا

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

كيف؟ فهذا ما لم يحاول تفسيره، على الرّغم من أنّ ما قاله الرئيس في ذلك اليوم جعله يشعر أنّه غبي، وهو آخر العارفين بما يحدث، وليس أكثر من ورقة يحرّكها رفاقه.

كانت العاصمة هادئة كما تبدو، والزحام لم يبلغ حدّه المزعج. وحينها كان يقطنها ما يقارب مئتين وخمسين ألف إنسان، ولم تتحوّل إلى مدينة يسكنها أكثر من ستّة ملايين نسمة، وتخرّبها الأحياء العشوائيّة الفقيرة، ولا تغطّيها بعدُ السحب السوداء، وبإمكان المساء أن يكون عليلاً ونسماته باردة لذيذة. لذلك عندما فتح الرئيس نافذته المطلّة على فضاء نظيف تدفّقت نسمات باردة لسعت وجه سعيد بنعومة. مكتب الرئيس بسيط ولا تظهر عليه أيّ بادرة من بوادر الترف، وهو النمط المعيشي الذي اعتاد الظهور به أمام شعبه:

ـ هل تشرب القهوة سعيد؟

ـ كما تأمرون سيادتك؟

ـ سعيد أنت هنا بصفتك صديقًا، هل نشرب القهوة معًا؟ قالها وابتسم فبانت أسنانه، وشعر سعيد أنّه يحبّ وجهه أكثر من ذي قبل.

ـ نشرب القهوة.

ردّد سعيد الجملة بشكل ميكانيكي، ونبض قلبه بشدّة.

ـ هل سمعت بما ننوي القيام به؟

ـ سمعت ماذا؟ لم أسمع بشيء، أنت تعرف، كنت خارج البلاد!

ـ أعرف، أنت متّفق معي.. على هذه الحال البلد سيكون في خطر؟

يصمت سعيد. يشبك أصابعه. ويحدّق بثبات في عيني الرئيس:

ـ وتعرف أيضًا أنّنا لا نريد العودة إلى الانقلابات. صار صوت الرئيس حادًّا وجهوريًّا وهو يلفظ جملته الأخيرة:

ـ أعرف سيّدي. لكنّي أعرف أيضًا أنّ هذه مبادئ حزبنا العظيم.

ـ الواقع متغيّر وعلينا أن نتغيّر معه. ولو بقينا هكذا سنكون معزولين في المنطقة. أريد أن تكون معنا..

ـ أنا معكم دائمًا.

ـ هل أنت متأكّد؟

ـ ما الذي تنوون القيام به؟

يصمت الرئيس، ويتحوّل سعيد إلى كتلة من شرايين الدماء

التي تتدفّق إلى صدغيه، فيبرق لمعان في رأسه. الرئيس يحدّق فيه بتمعّن ويقول:

ـ لم يعد مقبولاً ما يحدث، علينا إحياء المؤسّسة العسكريّة.

يقول جملته ويحدّق في سعيد ليرى تأثيرها عليه، لكنّ سعيدًا كان شاخصًا، عيونه لا ترمش:

ـ كما تريد سيّدي.

ـ ما رأيك؟

ـ ما الذي تنوي فعله بهم؟

ـ موقّتًا، سأضعهم في السجن.

ـ هل سنعود إلى الانقلابات؟ البلد استُنزف!

يصمت سعيد ثانية بعد سؤاله وينتظر ردًّا، فيدخل الحاجب ويضع صينيّة القهوة. يرتشف قهوته بسرعة. يجلس الرئيس بهدوء إلى جانبه. كان وجهه مستسلمًا لدعة غريبة لم يفهمها من حوله، لكنّها كانت وداعة صارمة. عيناه ثابتتان، وتفيضان بلمعة حادّة، لم يكن يتحدّث بانفعال، ولا يريد أن يعطي سعيدًا أكثر ممّا يجب من معلومات، ويدرك أنّه يفهم ما يقوله.

مرّت لحظات أخرى من الصمت، ارتشف فيها القهوة. قام

الرئيس من مكانه. نظر إلى النافذة، ثم أغلقها، فنهض سعيد واستقام مثل عمود من الإسمنت المسلّح، واستطاع ترتيب حروف جملته بتأتأة:

ـ لكنّهم رفاقنا في الحزب. أنا أفهم لماذا اعتقلنا الآخرين، ولكنّي لا أفهم لماذا سنعتقل رفاقنا في الحزب؟ نستطيع تسوية المسألة بطريقة أخرى.

ابتسم الرئيس، وحدّق مليًّا في عيني سعيد المضطربتين. هو يعرف أنّه أكثر العسكريّين إخلاصًا ونقاء، يعرف أنّه سيجد فيه رجلاً يعتمد عليه في بناء حكومته العسكريّة الجديدة. عندما سمع تعليقه ابتسم بعينيه، وربّت على كتفه، ثم انسحب، وجلس وراء مكتبه، ونظر إليه بهدوء وثقة:

ـ معك حقّ.. هذا أمر لا نختلف عليه.

ثم صمت. انتظر سعيد في تلك اللحظة أن يكمل الرئيس ما بدأه، لكنّه لم يتلقَّ أيّ جواب. شعر أنّه أخطأ، ولكنّه لم يستطع أن يكذّب عينيه؛ فهذا الرجل قادر بكياسة لا تتعدّى اللعب بالكلام على إخضاع من حوله، حتى ولو كان عدوًّا له.

ـ هل تريد شيئًا آخر؟ قال الرئيس جملته، وتوجّه إلى سعيد.

ـ لا يا سيّدي.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ربّت على كتفه، وضمّه بحرارة، وقال:

ـ إذًا تستطيع الانصراف.

قالها بلهجة عسكريّة، فرفع سعيد يده وأدّى التحيّة العسكريّة، وبعجلة غادر المكتب. كان يهبط الشارع وقلبه يدقّ بصعوبة. لم يلتفت إلى الوراء ليعرف ما الذي سيحدث. كان موقنًا أنّ أمرًا جللاً ينتظره، لكنّه لن يخون رفاقه الذين درسوا معه في المدرسة وفي الكلّيّة العسكريّة، واعتُقل معهم وطُرد ولوحق، ولن يخون حزبه، بانقلاب جديد يطيح بهم.

أوقفه صوت عسكري يناديه باسمه فتوقّف، وبعد دقيقة ظهر الرئيس، وأشار له بيده ليستقلّ السيّارة معه، فأذعن بصمت. كان سعيد ينظر حوله، يريد معرفة ما الذي سيقوله له وأين سيأخذه، لكنّ الصمت كان مخيّمًا، وعندما دخلت السيّارة في شارع فرعي قال له:

ـ هل تعرف أين نحن الآن؟

نظر سعيد حوله، وابتسم:

ـ في السوق القديم.

أومأ برأسه، أمر سائق السيّارة أن يدور في شوارع السوق، ويقف عند مدخل السوق المقبّب. لفّ السائق عدّة دورات، ثم توقّف أمام الباب.

مرّت لحظات ثقيلة قبل أن يستدير الرئيس بوجهه نحو سعيد، وبهدوء قال له:

ـ هل ترى كلّ هؤلاء، وكلّ تجّار العاصمة.. هؤلاء يريدون إزاحتهم أيضًا، إنّهم معنا.

ـ التجّار؟ يقول سعيد مدهوشًا.

ـ كلّ التجّار يظنّون أنّهم سيتخلّصون منهم من خلالنا، وبعد ذلك قد يفكّرون بإزاحتنا. علينا أن نستفيد من هذا.

يصمت سعيد.

ـ الخارج والداخل يريدان إزاحتهم.

لا يجيب سعيد.

يصمت الرئيس، ويطلب من سائقه العودة إلى مكتبه. تقف السيّارة أمام المكتب، يترجّل سعيد، ثم يبتسم له الرئيس ويحيّيه بوداعة. يؤدّي سعيد التحيّة العسكريّة. جفونه لا ترفّ، ثم يجري مسرعًا ليصل إلى سيّارته، ويطلب من سائقه التوجّه إلى البيت. كان صوته متهدّجًا وهو يلقي السلام على خادمه الذي وقف ذاهلاً يحدّق في وجهه الأصفر. يهرب من خادمه إلى غرفته ويدفن جسده الثقيل في الفراش. ولا تغمض عيناه أبدًا، وهو يفكّر إن كان سيبيع روحه لهذا الرجل الجبّار، أم ستضيع حياته سدًى؟

في صباح اليوم التالي، فُرضت عليه الإقامة الجبريّة، وأُحيط منزله بالجنود. ولم يصدّق أنّه معتقل في بيته حتى أعلنت الإذاعة بعد يومين الانقلاب، وعرف أنّ رفاقه صاروا في السجن، ومنهم من اغتيل، ومنهم من فرّ خارج البلاد، ومنهم من قيل إنّه انتحر وطلب من زوجته الانتحار بعده. عندها فقط أدرك غلطته الفادحة، وعرف أنّه لن يستطيع كسب ثقة الرئيس ثانية، ورأى بعينيه كيف نُحرت الخراف ترحيبًا بالرئيس الجديد، نحرها التجّار وعائلات عريقة في العاصمة أمام الجامع، وشاهد الدرج الأسود المؤدّي للجامع الكبير والشهير، وقد تحوّلت ألوان درجاته إلى لون أحمر قان.

بعد مرور ثلاثة أشهر طلب سعيد مقابلته، فرفض الرئيس بداية، وكان حينها مشغولاً بالترتيبات الجديدة، فطلب ثانية رؤيته على وجه السرعة. وفي المرّة الثالثة استقبله الرئيس، وجلس معه لساعات طويلة.

من يومها صار سعيد أكثر رجاله إخلاصًا، وتعلّم، بحاسّة الشمّ لديه، أنّه لن يكون بمأمن إذا حاول تجاوز أفكار رجله المقدّس. وبعد وقت ليس بقصير كان الرئيس الجديد للبلاد أهمّ ما في حياته، وأهمّ من فكرة زواجه ونزواته النسائيّة التي صارت حديث الناس. كان يعرف ما يريده رئيسه وما يطلبه من دون الإشارة إليه. يفهم من تلميحاته ويتصرّف بعد ذلك، ونسي رفاقه

القدامى الذين تحوّلت صورهم يومًا بعد يوم إلى خونة الشعب، ومات معظمهم في السجن، ومن بقي منهم خرج إلى قبره.

كان مرتاح البال والضمير، آمن بقوّة رئيسه وعظمته، فقد جعل منه رجلاً قويًّا، وتخيّل أنّه باقٍ إلى الأبد، ومن المستحيل أن يموت.

الآن، ببساطة يموت! فكّر بذلك ثم استعاذ من الشيطان الرجيم. وخفق قلبه بقوّة.

لماذا فكّر أنّه سيموت قبله؟ لماذا تخيّل أنّه لا توجد قوّة يمكنها أن تزيح هذا القائد عن عرش البلاد. قدّم له كلّ ما أراده، وحوّله من ضابط عادي إلى واحد من الأثرياء الكبار. وهذا جميل لن ينساه له أبدًا، ولن ينساه لعائلته أيضًا. منذ حوالى سنة عندما أمر الرئيس بتسريحه لم يشعر بأيّ غبن، فهو يعرف أنّه تجاوز السنّ القانونيّة، وعليه أن يستريح. وما فعله الرئيس لمصلحته ومن أجل حمايته فهو العليم بكلّ شيء. إنّه كائن قادر على رؤية ما لا يراه الناس، وهو يثق بحنكته، لذلك انصاع لقرار تسريحه برضًا. وَعْزلُه عمّا يحدث في البلاد رأى فيه صوابًا يفعله رئيسه وقائده الأعلى، ولا ضرورة لمناقشته فيه. كان يعرف أنّه سيكون عرضة لخطر ما، خطر لا يعرف بدقّة ما هو، لكنّه خطر محدق به. والرئيس فقط يدرك الحكمة من إقصائه عمّا يحدث. الآن الوضع مختلف، الرئيس رحل وترك

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

البلاد. ما الذي تعنيه هذه البلاد من دونه! تمتم، وشعر بألم حادّ في عضلة قلبه، فجلس مسترخيًا، وتنهّد بعمق. الوقت لن يمهله ليفعل ما يريد. الوقت قصير جدًّا، وبالكاد سوف يصل لتعزية عائلته.

كان يحاول جاهدًا معرفة اتّجاهاته. الوخز الحادّ في صدره تحوّل إلى جرح عميق.

يشعر ببرد شديد، لكنّه حزيران! تطير ثيابه من جسده، ويتداعى وحيدًا أمام الحافّة، وتعود إليه ذكرى أخته المدفونة في المقام، والتي سقطت يومًا هنا. لون جديلتها العسلي التي لمسها للمرّة الأخيرة قبل أن تهرب يقترب منه، فيقشعرّ وتقف شعيرات جلده البيضاء. تطير من حوله الجديلة العسليّة. يغمض عينيه حتى لا يلمحها، ويقترب من شاشة التلفزيون، ويحدّق في وجوه الناس المتدافعة حول النعش، ويعود للعبته الأولى في لمس المدفع. تصطدم أصابعه بسطح الشاشة، لكنّه يشعر الآن بالجديلة، بملمسها فوق جلده فيهرب إلى النافذة، وعندما يلمح اتّساع السماء البنفسجي، يراها تمامًا كما كانت منذ أكثر من ستّين سنة؛ بنتًا صغيرة تركض حافية وجديلتاها تسبحان معها. أبوه يلحق بها، وأمّه تصرخ وتحمله وتمسح دموعه، ثم تختفي فجأة بين الأشجار، ويسمع صراخ أبيه. تركض أمّه بعد أن ترميه على الأرض. تتركه وحيدًا، لماذا تركته وحيدًا؟ من أجل

أخته التي اختفت فجأة، وطارت في الهواء. صعدت نحو السماء. قالوا له إنّها ذهبت إلى ربّها، وسكنت الضوء. أمّه قالت إنّ أخته قرّرت السفر عبر الغيمات إلى حياة جديدة، وهو لم يعرف لماذا هربت منه أخته، فقد اعتاد التأرجح على جديلتيها!

ليست هي فقط من ملكت هذا الشعر، كلّ أخواته البنات كنّ يملكن أجمل جدائل في القرية، جدائل ورثنها عن عمّاته اللواتي لا يعرفهنّ. أبوه أخبره أنّ أخواته ورثن جمال عمّاتهنّ وجدائلهنّ. الجدائل التي اعتاد التأرجح بها، بينما أخواته يصرخن ويبكين بصمت، وأمّه واقفة حريصة على بقاء جدائل بناتها في متناول يد حبيبها الوحيد. أخته تلك كانت ترفس وتخبط وهي واقفة في كلّ مرّة يشدّ شعرها، وتصرخ فيه من الوجع وهو يشدّها أكثر ويضحك. يشدّها بقوّة من جديلتيها ويحاول التأرجح بهما، حتى إنّ رأس الأخت كان ينحني ليلامس أسفل ظهرها، فتصرخ ثانية من الألم. كان حينها لا يتجاوز بضع سنوات، ولأخته جديلتان تشبهان جديلتيه، لكنّ جديلتيه ليستا طويلتين بما يكفي، كانتا منذورتين لسلامته، جديلتان شقراوان مضفورتان بعناية ومربوطتان بخيوط خضراء من ثوب مقام الأربعين. نذرت أمّه ألاّ تقصّهما حتى يكمل عامه العاشر، واحتفظت بجديلتيه، ولفّتهما بمنديل أسمر محبوك بخيوط الحرير، أورثت اللفافة لابنها سعيد الذي احتفظ بها

داخل وعاء زجاجي أسطواني، وضعها فيه كما توضع السفن الشراعيّة داخل الدوارق الزجاجيّة.

كان يطير من الفرح وهو يتأرجح على جديلتي أخته. يدير ظهره لها، ويجلس في حضنها ويضع مؤخّرته على الجدائل ويصرخ بأخته أن تحرّك رأسها. جديلتاه تحفّان بالأرض، وتتعفّران بالغبار، فتحمي أمّه شعره بكفّها، وتلفّ جديلتيه، وتنحني مع حركة أرجحته. كانت الأخت قد ضاقت ذرعًا بتحويل شعرها إلى حبل للولد المدلّل الذي يصرخ، ويأكل بلا توقّف. انتظرت حتى انشغلت أمّها بالنظر عنها، وصفعت سعيدًا بكلّ ما أوتيت من قوّة. صرخ سعيد. ارتجفت وصاحت الأخت بأنّها تتألّم في كلّ مرّة يشدّها من شعرها. كان سعيد قد خرّ على الأرض، واصطدم رأسه بالتراب، ووقعت الأخت وشُجّتْ ركبتها. وعندما حصل ذلك كان الأب يقف غير بعيد يراقب ما يحدث، فحمل عودًا من الرمّان. وركض متوعّدًا باتّجاه الأخت التي فرّت مذعورة من عود الرمّان الذي سيترك خطوطًا على ظهرها. تركض وتركض، والأب يلحق بها ويصرخ. وفجأة اختفت البنت، لكنّ الأب استطاع أن يلمح طيران ثوبها الكحلي في الهواء وهي تطير نحو الهاوية، قبل أن يستدير ويلتفت إلى من حوله، ويتأكّد أنّ ابنته رمت نفسها من حافّة المكان الملعون، بعد أن قفزت فوق الجدار الطيني.

منذ ذلك اليوم، قصّت الأم جدائل بناتها ودفنتها في قبر. لم يستطيعوا أن يصلوا إلى جثّة أختهنّ ليودعوها فيه، فاستعاضوا عنها بالجدائل مع ثيابها المتبقّية.

الأمر لا يهمّه الآن! فقد وجد نفسه رومانسيًّا أكثر ممّا ينبغي لعسكري كبير، وهو لم يكن ليتذكّر الآن تلك الحادثة وخرافاتها، لولا الإحساس الذي ينتابه حين ينتفض، ويشعر بملامسة هفهافة تمرّ على ساعده، تسحبه من لحظته نحو زمن أعمى، لا يستطيع ملامسته إلاّ بإحساس ذلك الحفيف الخاطف بجديلة عسليّة.

الغريب في الأمر أنّ صورة الجديلة لم تحضره دائمًا، ربّما ثلاث مرّات وهذه الرابعة. الرابعة الأكثر حسّيّة. يستطيع رؤية الجديلة تطير أمام نافذته المحبّبة، وتبتعد في حلكة السماء. يلمح وجوه أخواته اللواتي تزوّجن تباعًا وهنّ صغيرات، وأولاهنّ كان عرسها عندما ذهب للدراسة في مدرسة التجهيز في دمشق. فأبوه الذي وافق أن يتخلّى عن مهنته باعتباره معلّمًا، ورضي أن يكون حلوانيًّا للقرية بقرار من حماه الشيخ، حلم أن يجعل من ابنه الوحيد ضابطًا في الجيش، وحبس بناته في البيت حتى زوّجهنّ، كما فعل مع زوجته عندما اشترط عليها عدم مغادرة بيتها حتى قبرها، وإلاّ فسيقوم بذبحها كما فعل بابنة عمّه. ولعلّ هذا هو السرّ الغريب الذي لم يجد القرويّون له

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تفسيرًا؛ غياب ابنة الشيخ في بيتها أعلى الهضبة. لم يروها بعد ذلك، كانوا يزورونها فقط ولا يجرؤون على طرح السؤال الذي طالما حيّرهم: لماذا هي حبيسة الهضبة؟ وعندما مات والدها وحضرت بينهم، كانت تضع منديلاً أبيض على رأسها، تحجب به وجهها، ولا يبدو منه سوى عينيها السوداوين المدوّرتين. على غير عادة النساء في القرية. بقيت سبعة أيّام في العزاء ثم اختفت ثانية في الهضبة حتى يوم وفاتها، حيث رقدت في قبرها وجديلتاها البيضاوان اللتان تصلان حتى ركبتيها ملفوفتان حول رأسها ومرتّبتان بعناية، فقد كانتا الخيار الوحيد لابنها سعيد، ليمارس هوايته المرحة في الأرجحة، تلك الهواية التي نسيها زمنًا طويلاً، ثم عادت امرأة في يوم ما، وجعلته يمسك بجدائلها العسليّة، وهو يمارس الحبّ معها مثل الطفل الذي كانه.

ماري

ليلى الصاوي، الجميلة ذات الشعر العسلي. كانت تنثني وتعرج وتشدّ على يد ماري، وتلحّ عليها أن تعدّ لها ماء حارًّا للاغتسال. وقبل ذلك، عليها أن تقوم بتنظيفها كما فعلت سابقًا، عندما كانت تجرّها من يدها مثل طفلة إلى الحمّام الخاصّ بالسيّدة ميرنا، ثم تفركها وتمسح أصابعها، وتدلق الماء الساخن عبر مرشّ ناعم، وتدلّكها بواسطة قماشة بيضاء هي نوع نادر من الحرير الصافي. بعد النتف والتدليك والمسح يأتي دور الشعر. تجلس ليلى بين يدي ماري مثل طفلة، وتنزلق في الحوض البورسلاني، تغمض عينيها وتطلق تنهّدات استرخاء وسعادة: أمم أمممم أم أمممم.. آه ه وفي النهاية لا بدّ أن تقوم ماري بتدليك رقبتها بهدوء وحذر.

حمّام ليلى الأسبوعي على يد ماري، كان يستغرق حوالى الساعة. تخرج منه المرأتان منتفختين؛ ماري منتفخة كما هي

مثل كبّة شعر منكوشة، وعيناها محمرّتان وذقنها يرتجف، فترتجف الشعيرات النابتة أسفل الذقن، وليلى تتنفّس بصعوبة وعيناها شبه مغمضتين من فرط السعادة. الغريب أنّ أيًّا من زبونات الستّ ميرنا لم تحظَ بهذا الامتياز. ربّما مرّت فترات قليلة كانت هناك زبونات مدلّلات، ولكنّ ماري لم تعط أيًّا منهنّ الاهتمام الذي أولته لمعبودتها ليلى، ليس فقط لأنّها تتابعها على شاشة التلفزيون، وليس بسبب لطافتها المفرطة وكرمها، ومعرفة القاصي والداني أنّ سعيد ناصر هو حاميها. كانت تقول للسيّدات اللواتي يتهامسن سرًّا فيما بينهنّ عن حظوة وسطوة ليلى الصاوي، عند الرجل الذي كان اسمه كفيلاً ببثّ الرعب، بأنّهنّ مخطئات، وتنفي بشدّة ما يشاع عنها، مؤكّدة أنّ سبب حمايته لها هو أنّها بنت قريته. وكانت النساء حينها ينظرن إليها بشفقة ويضحكن، وهنّ يطلبن منها الصمت بأدب.

كانت ماري ابنة وحيدة لامرأة عمياء، لم تعرف يومًا مَنْ أبوها. وقالت لها الراهبات عندما بدأت تسأل عنه، إنّه مات بعيدًا في بلد غريب. وطالما تخيّلت الرجل الذي هجرها وهجر أمّها أنّه يشبه في قسمات وجهه صور السيّد المسيح، فاحتفظت بكلّ الصور التي تقدّمها لها الراهبات، أو تحصل عليها من عملها اليومي في تنظيف الكنيسة، وتلميع مقاعدها الخشبيّة. في تلك الأثناء كانت أمّها ترافقها في العمل المقرّر للبنت الصغيرة التي لم تتجاوز العشر سنوات، العمل الذي يتمّ بطريقة غريبة،

حيث تخاطب الراهبات أمّها العمياء ويقمن بإعطاء التعليمات لها، ويطلبن منها مراقبتهنّ في العمل، والبنت تمسك بيد أمّها تسمع وتصغي، وعندما تنصرف الراهبات كانت الأمّ تجلس، وتبدأ البنت العمل الذي يتمّ بصمت تامّ، دون أن توجّه واحدة من الراهبات تلميحًا للبنت. كنّ يعاملنها كأنّها غير مرئيّة. وفي الحقيقة كنّ متألّمات لمنظرها الدميم. تكاد تشبه كرة ذات قطر واسع مدوّرة كلّها، وجهها مدوّر، عيناها مدوّرتان صغيرتان، بطنها المنفوخ نصف دائرة، ساقاها مدوّرتان ومنفوختان، وقدماها مدوّرتان حتى أصابعها التي تستلزم استطالة ما، مثل أيّ تكوين طبيعي بشري كانت مدوّرة، وفمها صغير منفوخ ومدوّر. عبارة عن تقاطع مجموعة من الدوائر الصامتة. كانت العكّاز الذي تمشي أمّها من خلاله، وطالما شعرت في أعماقها أنّها كذلك. وعلى الرّغم من أنّ أمّها بقيت في البيت، وتركتها لتعمل عند الستّ ميرنا منذ سنوات، فقد ظلّت تمشي، وتقوم بحركات غريبة في رأسها وكأنّها تحمل وعاء ثقيلاً، فتميل برأسها قليلاً إلى جهة اليمين. الجهة التي كانت الأمّ تضع كفّها فوقها، وترفع رقبتها ببطء، ولم تتخلّ عن عادة المشي تلك بعدما كبرت. وحتى رفعة الرقبة التي تجعلها ترفع ذقنها معها، صارت إحدى العادات التي بدت مثل حركة تنبيه عصبي. وعندما كانت تعي ذلك تتوقّف، وتقول لنفسها: يا بنت أنت لست عكّازًا، وتتمتم بذلك، تحاول تثبيت رقبتها بقوّة، ولكنّها

بعد وقت قصير تعود لحركتها. لذلك كان مَنْ حولها يجدونها غريبة الأطوار في صالون الستّ ميرنا؛ فهي صامتة، لا يعرفن عنها أكثر من أنّها تعيش مع أمّها في غرفة صغيرة بالقرب من ساحة باب توما، وأكثر من ذلك لم تسمح به. الوحيدة التي تعرف سرّها هي الستّ ميرنا التي حمتها بطلب من الراهبات اللواتي فعلن ذلك، بعد أن قامت يومًا بعضّ إحدى الراهبات من وجهها، حتى كادت أن تقتلع قطعة لحم منه، وهي تحاول الدخول إلى الكنيسة في أحد أيّام الآحاد، عندما كانت، كالعادة، تميل برقبتها باتّجاه كفّ الأمّ التي تتوضّع فوقها بثبات، حيث كانتا تعيشان في دير إبراهيم الخليل، وكانت الأمّ حريصة على حضور قدّاس يوم الأحد في كنيسة السيّدة، وهو ما أزعج الراهبات على الدوام. فالأمّ العمياء جميلة إلى الحدّ الذي يصعب تحمّله، وعيناها الواسعتان لولا ذلك الشرود الأزرق تبدوان سليمتين. وشعرها الطويل المتموّج الملفوف بعناية فوق رأسها، والثياب السوداء التي داومت على ارتدائها، يضفيان عليها جوًّا من الجمال الغامض، إضافة إلى نحولها الشديد وطولها. تلك المسحة من الجمال الشاحب هي ميزتُها. وكانت الراهبات في كثير من الأحيان يقمن بتلاوة الصلاة قربها، وهنّ ينظرن في صور السيّد المسيح، ويقارنّ بين هذه الصور وبين الوجه الغريب الذي تحمله العمياء، والذي يجعلها شبيهة بالصورة المعلّقة أمامهنّ، وكنّ يرتجفن لمجرّد مرور فكرة الشبه

تلك بأذهانهنّ. وقمن بمصارحة الراهبة الكبيرة في الأمر، فوجه الأمّ العمياء هو نسخة مطابقة لصور السيّد المسيح الموزّعة في أنحاء العالم. الفرق الوحيد أنّها تنظر في الفراغ، أو ربّما في نقطة بعيدة مضيئة تبحث عنها في أعماقها. والأمّ في ذلك الوقت لم تكن تتجاوز السادسة والعشرين من عمرها، وهو العمر الذي كان يُرعب الراهبات، وهنّ يتخيّلن أنّ ما حدث يومًا للبنت الجميلة العمياء التي التقطوها من الطريق، سيتكرّر من جديد، وسيكون عليهنّ إعادة ترتيب أمورهنّ بطريقة مختلفة، لذلك كنّ حريصات على عدم خروجها من الدير. كنّ يشعرن بخوف مضاعف عليها، ولولا محبّتهنّ الشديدة لها لقمن برمي ماري بعيدًا عنها، لأنّها كانت تشبه مسخًا لا يليق بأمّ باهرة الجمال إلى حدّ القداسة الذي كانت تبدو عليه. وقدّرن في أعماقهنّ أنّها تشبه تلك النطفة الخاطئة التي دخلت يومًا إلى رحمها. فعاملنها بقسوة، وفي كثير من الأحيان كنّ يشعرن بتأنيب الضمير؛ فلا ذنب لهذه الطفلة الدميمة فيما حدث. لكنّ السلوك العدائي الذي أبدته جعلتهنّ يشعرن بالخوف، ويقرّرن إبعادها عنهنّ، حتى لو ابتعدت العمياء.

ما حدث ذلك الأحد أنّ إحدى الراهبات وقفت جانب الأمّ العمياء التي تسترسل في البكاء والصمت في كلّ قدّاس تحضره. الأمّ تصغي، وماري تجلس قربها. عيناها مفتوحتان بشكل غريب. حياديّة، تمسك بأصابع أمّها، وتشدّ عليها عندما تلمح

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

دموعها. الراهبات يراقبن البنت ذات العينين القاسيتين، ويشعرن بنفور من وجود الكائنين القريبين أحدهما من الآخر كلّ هذا القرب. وعلى الرّغم من ورعهنّ فإنّهنّ تمنّين في أعماقهنّ اختفاء البنت من حياتهنّ. وماري التي كانت تشعر بكراهية من حولها تلتزم الصمت، وتعرف أنّ لحظات عمرها التي تمشي تشبه حراب سكاكين حادّة تخزها بشكل متواصل، ولا تتوانى عن شقّ جسدها في أيّ لحظة، مثل اللحظة التي قالت فيها الراهبة بهمس لرفيقتها: ملاك يلد شيطانًا، ونظرت إلى ماري تلك النظرة الكارهة. وعندما التقت نظراتهما بعينيها الحاقدتين، لم تتوان الراهبة عن المتابعة: أتمنّى لو تختفي إلى الأبد.

قالت الراهبة جملتها تلك، وصمتت كأنّ شيئًا لم يحدث، وبقيت ماري صامتة وحياديّة، تحدّق في سقف الكنيسة. لم يكن السقف غريبًا عليها؛ فهو تسليتها الوحيدة في انتظار انتهاء القدّاس. كان السقف محاطًا بزخرفة غير واضحة؛ أوراق وأشكال زهور نافرة مصنوعة من الجصّ ومطليّة بلون ذهبي برّاق، وفي وسط السقف العالي الذي تتدلّى منه ثريّا ضخمة، كانت تبحث بين الكريستالات اللامعة عن سبب غبطتها بذلك اللمعان الذي تشكّله الكريستالات المصفوفة بعضها فوق البعض الآخر على شكل عنقود عنب، وبين الدائرة الذهبيّة اللون التي تتفرّع بأغصان يتّكئ عليها أطفال جميلو الوجوه تخرج من أكتافهم أجنحة فضّيّة. كانت ماري قد انتهت من عدّ الصفّ

الرابع من الكريستالات، وأخذت تتنفّس بسرعة، وتركت يد أمّها عندما انتهى القدّاس، وقفزت وعضّت الراهبة من خدّها. ولم تبتعد عنها حتى خلّصتها الراهبات. كان خدّ الراهبة المعضوض أحمر، تنزّ الدماء من أماكن الأسنان التي يمكن عدّها بسهولة. أمّا ماري، فلم تقم بأيّ حركة. سقطت على الأرض، ثم قامت ومشت بهدوء حتى وصلت إلى جانب أمّها. مدّت يدها وأطبقت بإحكام على أصابع الأمّ التي كانت تلتفّ حول نفسها، وتصيح بعد أن شعرت بفقدان رأس البنت الذي تتّكئ عليه. كانت ماري تعلم كلّ ما يدور حولها، وتصمت مندفعة بحسّ غريزي لفعل أيّ شيء، حتى لا تترك أمّها. أيّ شيء، مهما يكن هذا الشيء الذي عليها القيام به، حتى لو اضطرّت إلى القتل، أو ذبح أحد بسكّين، كما فعلت لاحقًا، عندما كانت في الثالثة عشرة، وقرّرت الراهبات إبعادها عن أمّها. وتلك الحادثة لم تكن بداية خوف الراهبات منها، بل كانت نهايته.

الحادثة الثانية في مساء العيد. كان البرد في الخارج يعوي، وكان الدير محاطًا بأشجار سرو عملاقة، وبفعل الرياح، تتمايل الأشجار مثل أذرع عملاق يلامس جدران الدير. الراهبات يتجمّعن حول طاولة كبيرة في الدير، والعمياء تجلس وقربها ماري، وكنّ يتناولن الطعام، وقد سمحن لها بتذوّق بضع قطرات من النبيذ، لا تعرف ما هو. كان «الليكور» أيضًا لا

تتذكّر. . تعرف أنّها كانت تشعر بضيق شديد فوق الكرسي الخشبي الضخم الذي تجلس عليه، وتراقب الراهبات اللاتي يتناوبن بالتحرّك حول الأمّ، ويناولنها الطعام، وكلّ واحدة تقوم بتخصيص قسم من حصّتها لعرضها كضيافة على الأمّ. كانت ماري تشعر أنّ فيما يفعلنه مبالغة غير مفهومة، وتضع الأمّ أمام ماري كلّ ما تقدّمه الراهبات في صحنها، وماري بالكاد تتذوّقه. كانت متعفّفة عن الأكل، وتريد أن تثبت لنفسها أنّها نحيلة وخفيفة. وهو ما شعرت به منذ اللحظة التي وعت فيها أنّها بنت سمينة وقبيحة، تريد الشعور بالخفّة في داخلها. قلّلت من كمّيّات الطعام والشراب، ولم تأكل إلاّ اليسير، وبقيت محافظة على عادتها حتى اللحظة، لكن إحساسها بخفّتها تلك لم تشعر به الراهبات حينها، ولم يشعر به أحد من الناس الذين عرفتهم فيما بعد. خفّتها تخصّها وحدها. كرهت المرايا، وكانت تشعر أنّ الناس قطيع عميان، لا يستطيعون رؤية خفّتها، وهو أمر يخصّهم وحدهم، فهي جسد يعيش بلا طعام، ومعدتها بالكاد تتحرّك، لكنّها كانت تسمن كلّما كبرت، ولم تتوقّف سمنتها حتى بلغت السابعة عشرة.

ربّما لذلك لم تمسّ شيئًا من الأطعمة التي حاولت أمّها أن تحشوها بها ليلة العيد، بينما الراهبات يراقبن البنت السمينة التي ستأخذ طعام الأمّ، ويتحيَّنَّ الفرصة لإطلاق نظرات الاشمئزاز.

جهلت ماري سبب كراهية الراهبات لها، وأنّها ثمرة لخطيئة لم يحتملنها. ووالدها الذي قيل إنّه غائب، كان رجلاً مجهولاً، أمسك بيد العمياء وهي تقف أمام الدير، واختفى معها عدّة أيّام، ثم عاد بها في إحدى الأمسيات إلى الدير ثانية. وتركها أمام بوّابته الحديديّة، لينتفخ بطنها بعد أشهر، وتقرّر الراهبات الاعتناء بها مهما يحدث. كنّ ينظرن إليها ويتخيَّلن أنّ الرجل القذر الذي لطّخ أيقونتهنّ، يشبه هذه؛ ابنته الدميمة. التعليق الوحيد الذي أخافهنّ كان جملة مرقت يومًا، ولم تتكرّر على لسان الأمّ: كان طويلاً ونحيلاً، وله رائحة طيّبة. مع ذلك، رسمن صورة الأب على شاكلة البنت، وهو ما جعلهنّ في ليلة العيد تلك يطلبن منها الانصراف إلى غرفتها مبكرًا، حتى يشعرن أنّهنّ متخفّفات من إحساس الكراهية الذي يثقل قلوبهنّ بالخطيئة أيضًا؛ فهذه الطفلة في النهاية لا ذنب لها فيما حدث.

تجمّدت ماري عندما طلبت منها الراهبة الكبيرة الانصراف، وأمسكت بحوافّ الكرسي الذي تجلس عليه، وشدّت بأصابعها عليها مثل مسامير مثبّتة، ونظرت باتّجاه غير محدّد بقسوة وعبوس. أعادت الراهبة طلب الانصراف منها، لكنّها بقيت على موقعها، فقامت راهبة وهي تحفّ بثوبها الأسود على الأرض، حيث استطاعت الراهبات سماع ذلك الحفيف من فرط الصمت، وأمسكت بكتفي ماري وهي تقول بحنوّ:

ـ هيّا يا صغيرتي.. سآخذك إلى سريرك.

لكنّ ماري شدّت بأصابعها على الكرسي، وصرخت أنّه لا قوّة في الأرض تستطيع زحزحتها دون أمّها. شعرت بأنّ شؤمًا قادمٌ، لكنّها بقيت على عنادها. قامت الراهبة بعد أن ساعدتها راهبة أخرى بحمل الكرسي الخشبي، وهمّتا بالخروج، فقفزت ماري، وحضنت أمّها التي تحرّكت بعصبيّة وخوف، وصارت تخبط بذراعيها في الهواء وتتلمّس طريقها. أمسكت الأمّ بها بقوّة وضمّتها، وصمتت كعادتها. لكنّ الراهبة أصرّت على انتزاعها وهي تصرخ بأنّها يجب أن تتّجه إلى سريرها الليلة. كنّ يطلبن منها برجاء مهذّب أن تفعل ذلك. لكنّ ماري تمسّكت بحضن أمّها، وفعلت الأمّ الأمر ذاته. وعندما ذرفت الأمّ أولى دمعاتها تراجعت الراهبتان، ونظرتا بعداوة إلى ماري. وخلال ثوانٍ عاد كلّ شيء إلى حاله. بقيت ماري معلّقة في حضن أمّها التي كانت بالكاد تتنفّس من ثقل طفلتها. لم تفلتها، وربّتت على رأسها، وقامت تتحسّس رأسها وهي تمسك بيدها، وغادرتا قاعة الطعام.

في تلك الليلة، أفاقت الراهبات على صياح مفزع؛ كانت الراهبة التي زحزحت الكرسي تصرخ وتولول في الممرّ. شعرها منكوش، والطفلة البدينة تلحق بها، وتحمل في يدها سكّينًا حادّة.

في صباح اليوم التالي، بقيت ماري حبيسة غرفة صغيرة في قبو الدير. لم تخرج منه حتى تيقّنت الراهبات أنّ الأمّ تشارف على الموت، وأنّها لم تمتنع عن البكاء لمدّة أسبوع كامل، وكانت تهمس باسم ابنتها، وتحرّك رأسها مثل رقّاص ساعة.

حادثتا السكّين وعضّ خدّ الراهبة كانتا ما جعل الراهبات يطردن ماري وأمّها من الدير، وإن كانت طريقة الطرد مبطّنة؛ فقد قمن باستئجار غرفة لهما، وأعطين الأمّ مبلغًا من المال، ثم انصرفن عنهما إلى الأبد، بعد أن صار وجودهما نحسًا يجب التخلّص منه بأسرع وقت.

في ذلك الحين غادرت الأمّ وابنتها إلى غرفة لا تزالان تسكنانها، والفرحة الوحيدة التي لم تشعر بمثلها ماري، كانت في لحظة مغادرتها المبنى المؤلّف من ثلاثة طوابق مكسوّة برخام رمادي، ونظيف إلى درجة لم تكن تطيقها، لأنّها تضطرّ إلى رؤية خيالها في الجدران والأرض، تلك الفرحة عاشتها بصمت، ثانية، وهي الغبطة ذاتها التي تجعلها تتدفّق بالحرارة، عندما قامت بإمساك يد ليلى الصاوي، وجرّها كطفلة تائهة، بعد أن قرّرت أن تأخذها إلى الغرفة الصغيرة، حيث تستطيع أن تقول لها: إنّ لها بيتًا في هذا العالم.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

في غرفة ماري

كانتا قد ابتعدتا عن ضجيج الجنازة. ماري صامتة تمسك بأصابع ليلى الخشنة، تستمع إليها وتدعو ربّها أن ينقذها بإرسال سيّارة أجرة. الشوارع فارغة، والسيّارات التي تظهر بين الحين والحين تمرّ بسرعة خاطفة، فتتوقّف ماري، وتستند على الجدران، وتطلب من ليلى التوقّف، ريثما تجدان سيّارة. تهمس ليلى بصوتها المبحوح، وتتضرّع إليها بعينيها أن تتابعا المشي، فالوقت يدهمهما. وماري التي لم تستطع أن تفهم ما هو الوقت الذي يدهمهما، جعلتها تتّكئ عليها، وسارتا بصعوبة.

عندما وصلتا البيت كانت ماري تعجز عن التنفّس، بعد أن تدفّقت الحرارة تحت جلدها، وشعرت أنّ ماء مغليًّا سينفجر من مسامّها. وقفت ليلى مدهوشة، تحدّق حولها ببلاهة، قبل أن تجلس على البلاط، وتفرد ساقيها أمامها وتباعد بينهما، وتلقي برأسها على الحائط الحجري، ثم تنفخ وتتنفّس باضطراب وتسارع.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

لم تمض ثوان حتى خرجت رؤوس غريبة من النوافذ العلويّة. رؤوس لم تتبيّن ليلى ملامحها، تتحرّك مثل ظلال باهتة لأشكال فضائيّة غريبة. تفتح ليلى عينيها باتّساع، وتشدّ جسمها، محاولة النهوض. نسيت أين كانت قبل دقائق! لم تعرف من التقط جسدها الثقيل، وحملها إلى الداخل. أشكال غريبة تحملها، وتلقي بها في عتمة شبيهة بالعتمة التي خرجت منها صباحًا. تعرف أنّها خرجت من السجن وهي واثقة من ذلك، لكنّ ما يحدث لها لم تكن تدركه، حتى إنّ اللغة المشوّشة التي تدور حولها ليست واضحة. لا بدّ من أن تتذكّر. ستفتح عينيها. شعرت بحرقة تكويها، فأغمضت جفنيها وحاولت التركيز. كانت منذ قليل تمشي بصعوبة في شوارع مدينة خالية، وتسير إلى جانبها تلك الفتاة ماري. أجل كانت ماري! الوحيدة التي تثق بحبّها. لقد مشتا أكثر من نصف ساعة، ولم تعثرا على سيّارة تقلّهما. أجل تذكّرت، كانت بالقرب من الجنازة، ثم..

تمسح ماري وجهها بماء الزهر، وتربّت على خدّها وتكلّمها. لم تفهم ما تقوله، لكنّ ماري وضعت رأسها في حضنها وهي تتمتم: كانت بخير منذ قليل يا أمّي.

الأمّ العمياء التي جلست في زاوية سرير حديدي يئنّ كلّما حرّكت جسدها، هزّت رأسها واكتفت بإرسال عينيها الزرقاوين الفارغتين إلى الأعلى، ثم تنحنحت، وأصدرت سعالاً خفيفًا.

أعادت ماري رشّ ماء الزهر على وجه ليلى، وقد اصفرّ، بعد أن تركتها لدقائق ريثما تفتح باب الغرفة، وتزيح عن الأريكة بعض الأغراض لتستلقي عليها، نزعت عنها جواربها، ورمت بحذائها على الأرض بعصبيّة، فارتطم بالجدار، وأصدر صوتًا حادًّا، أرعب الأمّ التي انتفضت وهزّت رأسها بارتياب. غطّت ماري ليلى بغطاء ناعم، وضمّت أمّها إلى صدرها: اهدئي اهدئي.. آسفة.. إنّه مجرّد حذاء. قالت ماري.

بقيت لدقائق تضمّ رأس أمّها في حضنها، تنظر إلى ليلى، تودّ البكاء. ليس البكاء بل أن تطلق صوتها للصراخ، وعينيها للدموع. لا تعرف ما الذي حلّ بقلبها في تلك اللحظة، ولماذا لم تستطع مقاومة دموعها. كان وجود ليلى الصاوي، بكلّ بهائها البائد الذي تتذكّره ماري تمامًا، يفعم عواطفها، أن يكون هذا الجمال حتى لو كان مجرّد بقايا في غرفتها الكريهة، يجعلها تشعر بالرغبة في الصراخ.

تعيش ماري مع أمّها في غرفة تشكّل جزءًا من بيت دمشقي كبير. في طابقه الأوّل، تتوزّع ثلاث غرف وحمّام صغير قذر دائمًا. جدرانه سوداء، ومطبخه فارغ تتقاسمه الغرف الثلاث. يحتوي الطابق العلوي أربع غرف؛ اثنتان منها تسكنهما عائلة، وغرفتان أخريان يسكنهما طالبان جامعيّان. البيت كلّه يميل إلى الأسود والرمادي، والبحرة التي تتوسّطه جافّة، يعلوها الغبار.

ولولا بعض الثياب التي كانت تتدلّى من حبال الغسيل القصيرة الموزّعة على جوانب النوافذ لكان الناظر يظنّ أنّه مكان مهجور لا حياة فيه. الأمّ العمياء فقط كانت لديها نبتتها الصغيرة على نافذتها. نبتة من نوع الصبّار، صغيرة بحجم الكفّ، وعلى جوانبها تتفتّح براعم صغيرة. لم تكن النبتة بحاجة لكثير من العناية، لكنّ الأمّ تقضي وقتًا طويلاً في ملاعبتها، تمرّر أصابعها فوق سطحها متفادية الأشواك التي حفظت طرقاتها، فتمرّر أصابعها بين الطرق الآمنة على سطح النبتة، قبل أن تداعب براعمها الملوّنة الرطبة. وكلّما يبست الصبّارة الغريبة، كانت تطلب من ماري أن تأتي لها بصبّارة أخرى، وتجعلها تقسم بالمسيح والسيّدة مريم، إنّها من النوع نفسه والشكل نفسه، وكانت ماري أحيانًا تجتهد لنهار كامل في البحث عن هذه الصبّارة، ولا تعود في اليوم الذي تشعر فيه الأمّ بذبول النبتة إلاّ وصبّارة جديدة في يدها، بعد أن تكفّلت ليلى، طول معرفتها بها، بإحضار صبّاراتها الغريبة حتى دخلت السجن. كان هذا الطلب هو الحاجة الوحيدة التي تجرّأت الأمّ، وقالت إنّها تريدها. وعدا ذلك فكلّ الأمور تجري بطريقة اعتياديّة، حتى طعامها لا تطالب به. تقضي وقتها جالسة على الأريكة قرب النبتة، أو مستلقية على سريرها، تستمع إلى الراديو الأحمر الصغير الذي قالت يومًا لابنتها إنّ رائحته تشبه رائحة ذلك الرجل! واستغربت حينها ماري، ما وجه الشبه بين رائحة راديو

ورائحة رجل! وذلك الرجل هو الصفة التي تطلقها على الرجل الذي حبسها في غرفته ولم يخرجها إلاّ بعد أن زرع في أحشائها حياة مجعلكة ستسمّى بعد ذلك «ماري». وعلى الرّغم من محاولات ماري حثّها على البوح بما حدث مع هذا الرجل، كانت تحجم، لكنّها تترك لنفسها حرّيّة الحديث عنه، كأن تكرّر دائمًا: إنّ الراديو يشبه رائحته! أو: إنّ ملمس الصبّار يشبه احتكاك ذقنه بصدرها، وهو التلميح اليتيم الذي استطاعت ماري انتزاعه منها، فحينها قالت ماري بفرح: إذًا كان ملتحيًا، نحيلاً وطويلاً وله رائحة غريبة! واقتنعت أنّها حظيت أخيرًا بمعرفة تفصيل ما عن الرجل قليل الإيمان، صاحب الخطيئة الكبرى، والذي كان أباها.

هدأت الأمّ، وأدارت لها ماري الراديو، وقرّبته من أذنها، وأمسكت بأصابعها وأحاطتها به، وهمست لها برفق: استلقي حتى أعدّ الطعام، فانسابت الأمّ بين يديها وتراجعت، واستلقت على فراشها، تنصت لصوت المذيعة، وتحرّك رأسها مع الراديو حتى التصقت أذنها به، ونامت عليه، فخفت الصوت، وصار ملكًا لها وحدها.

أرخت ماري الستارة ذات الألوان الصارخة، وبدت الغرفة أكثر عتمة، وأغلقت الباب بإحكام وهي تخرج إلى المطبخ، وتحمل بيدها بعض الأكياس، ثم صارت تروح وتجيء بين

الغرفة والمطبخ. كانت امرأة أخرى تقوم بإعداد الطعام. ولم تكن تتبادل مع ماري أكثر من التحيّة، ولا تعرف عنها شيئًا. كلّ منهما تقوم بغسل خضراواتها، وتنظيف صحونها، وإعداد طعامها بصمت، مع أنّ المرأة حاولت بدايةً أن تكونا صديقتين، لكنّ ماري صدّتها، فالتزمت المرأة الصمت والحياد.

جُهِّز الطعام، وأفاقت ليلى وتنحنحت. التفتت حولها، ودُهشت من حجم الغرفة. كانت تراقب الصينيّة الكبيرة التي وضعت عليها ماري عدّة أطباق متنوّعة: بعض شرائح البندورة والخيار، صحن حمّص، صحن باذنجان مع الطحينة واللبن، بصل أخضر وفجل، زيتون أسود، وإلى جانب الصينيّة الكبيرة قرب التلفاز الصغير بضع كؤوس من الشاي مع إبريق ستانلس ستيل مسودّ. طلبت ليلى أن تدخل الحمّام، فناولتها ماري منشفة، وشدّتها من يدها. كان الحمّام بالكاد يتّسع لوقوف شخص. ألوانه متداخلة، صفراء وسوداء وبنّيّة، ورائحته واخزة. مرحاض السجن أكثر نظافة. قالت ليلى بصوت هامس وهي تكاد تتقيّأ، لكنّها عندما التفتت ووجدت ماري تنظر إليها بقلق، ابتسمت لها، وأغلقت الباب الخشبي المهترئ ودخلت، ثم خرجت بعد دقائق صفراء الوجه. كانت ماري تنتظرها، وأرشدتها إلى المكان الذي تستطيع أن تغسل فيه وجهها. الجرن الحجري المستعمل لغسل الصحون والخضر هو نفسه الذي يستخدم لغسل الوجه وتنظيف اليدين. انتهت ليلى وهي تتظاهر

بالابتسام، فماري كانت تقف بمحاذاتها، حتى دخلتا الغرفة، وأغلقتا الباب، وأشعلت ماري الضوء الأصفر، والمروحة الكهربائيّة، فشعرت ليلى بقليل من الأمان، وتمنّت النوم على الأريكة لتنسى، لكن بطنها كان يقرقر أيضًا من الجوع، ولا بدّ لها أن تلتهم بضع لقيمات قبل النوم، وتستعيد قواها، استعدادًا لرحلة القرية.

ولكن لِمَ تذهب إلى القرية؟ ألم تسأل نفسها لِمَ تركها سعيد وحيدة كلّ هذه السنوات؟ ما الذي تريده منه بعد ما حصل؟ ستسأله لِمَ فعل هذا بها؟ أما زالت تحبّه؟ توقّف قلبها عن الخفقان. عرفت في ليالي شرودها الطويل داخل السجن أنّ قلبها لم يعد يخفق، لماذا انتظرت كلّ هذه السنوات لتخرج من سجنها وتذهب إليه؟ تريد معرفة سبب هذه اللهفة لرؤياه، هل هي رغبة الموت أم رغبة الحياة من جديد؟ إنّها مشوّشة، ومنذ أن دخلت السجن، قرّرت أن تواجهه عندما تخرج، ووضعت هذا الهدف نصب عينيها، ولم تعد تفكّر في أيّ احتمال آخر.

استقامت الأمّ بعد أن رفعتها ماري، كان الصمت قاسيًا. لم يخطر في بالها، منذ أن عرفت ماري، سؤالها عن أمّها. كانت فقط ترسل إليها بالصبّار، والآن اكتشفت أنّها تبدو أختًا لماري وهي صغيرة السنّ، وفائقة الجمال، رغم نحولها الشديد. كانت الغرفة صغيرة إلى الدرجة التي تستطيع فيها

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

النسوة الثلاث التحلّقَ حول طاولة الطعام، دون أن تتحرّك أيّ واحدة منهنّ. جلست الأمّ على سريرها، وليلى على الأريكة، وماري على كرسي حديدي صغير، تلقم أمّها الطعام، والأمّ تضيق بعادتها التي درجت عليها منذ سنوات، لأنّها كانت تحبّ أن تأكل وحدها، لكنّ إصرار ماري على العناية بها على طريقتها جعلها تتوقّف عن الحركة. كانت تغسل لها وجهها صباحًا ومساء، وتحمّمها كلّ ثلاثة أيّام، وتقلّم أظافرها وتنتف لها شعر جسدها، وتعطّرها، وتغيّر ملاءات سريرها. وكانت الأمّ تبدو وسط عتمة البيت وجدرانه مثل كائن غريب، حتى إنّ ماري تنظر إليها ولا تصدّق أنّ هذه الجميلة العمياء المشعّة مثل ضياء نجم بعيد.. هي أمّها!

الجدّ

البيت الطيني المقابل للهضبة التي استوطنها أبو سعيد ناصر، كان محاطًا بغابة صغيرة من أشجار الدلب والسنديان، وبالكاد تبدو من هذه الغابة نوافذه الخشبيّة المطليّة بلون أخضر زنجاري. وفي البيت الطيني عاش الشيخ علي الصاوي وابنه وحفيداه؛ ليلى وعلي، وبقي كذلك حتى سافر ابنه ذات يوم إلى العاصمة، وبنى له بيتًا في جبل صغير يطلّ على المدينة، هو وعدد من أبناء طائفته، بعد أن شكّلوا مجموعة وحدات عسكريّة تابعة لشقيق الرئيس، قبل أن يغادر الشقيق البلاد مكرهًا، ويأخذ معه أكثر العائلات المخلصة له إلى فرنسا وإسبانيا، ومن بينها عائلة العمّ. وكانت عائلة العمّ هي الوحيدة في القرية التي انضمّت إلى الأخ الشقيق، مع أنّ بعض العائلات الأخرى كانوا قد عملوا لديه، لكنّهم بقوا على حالهم في العاصمة، بعد أن استوطنوا إحدى هضابها المحيطة بسفح المدينة، وتحوّلت مع مرور الزمن إلى مكان بائس يعجّ بالأطفال والفقر. كان التقسيم

المفترض لحياة أهل القرية غريبًا من نوعه، فقد انقسموا على أنفسهم، بعضهم عملوا أجراء في أراضي الملاّكين، ومنهم من زرع أرضه بالتبغ، وأولادهم ارتادوا المدارس، ودخلوا الكلّيّة العسكريّة، وآخرون دخلوا الجامعات، ومنهم من استطاع أن يصل إلى مراكز حكوميّة رفيعة، ومنهم من بقي على حاله، خاصّة العائلات التي لم تربطها صلة ما بأحد ضبّاط الجيش الكبار، كسعيد ناصر ورفاقه، لكنّ بعض العوائل في القرية، وقرى كثيرة في الجبل والساحل، كان أبناؤها يعيشون بمعزل عمّا يحدث، لم يكونوا مع الرئيس أو مع الشقيق الذي غادر البلاد، أو حتى مع سعيد ورفاقه، ومنهم ثلاث عائلات في القرية، منها عائلة الجدّ الذي لم يرض أن يغادر البيت الطيني، وبقي على حاله مع الحفيدين.

الجدّ الذي رفض الاختلاط بالناس، وابتعد عنهم، بقي في بيته لا يفارقه إلاّ للضرورة، مثل أن يُلقي نظرة على أرضه التي يقوم بتأجيرها للفلّاحين. وحين يزوره جدّ سعيد ناصر لمشاورته في أمور الضيعة، كان يتّهمه بتحريف الدين، ويصرخ به، فامتنع جدّ سعيد عن مشاورته، واكتفى بتمرير تعليق ساخر حول فقدانه عقله بعد موت ولده وزوجته في الوادي. ذلك الحادث الذي جعل ليلى يتيمة. كان الجدّ يعرف هذا في قرارة نفسه، وفقدان العقل سمّاه النزق. النزق المعلّق في الحنجرة. كان هانئًا بنزقه مع الدنيا، وبينه وبين نفسه يقرُّ لنزقه في سنواته العشر الأخيرة،

بفضل كبير عليه. فقد استطاع التخلّص من زوائد العيش، وطرد ابنه من حياته بعد أن ترك قريته، وألحق حفيديه بمدرسة في المدينة، واهتمّ بشؤون الأرض. والوقت المتبقّي له كان يقضيه في غرفته الطينيّة مع صندوقه وكتبه وأوراقه الصفراء المصفوفة فوق رفوف خشبيّة محمولة على قواطع حديديّة، إلى جانب سريره النحاسي. وبقي بيته الطيني معزولاً عن القرية، ولم يسمح لأيّ من أهاليها بالاقتراب من أحراشه التي بقيت على حالها حتى اللحظة، بعد أن تحوّلت الآن إلى مكان مخيف، ومصدرٍ للشؤم والنحس، فهجرها أهل الضيعة، ونسوا صاحبها، وصار مزارهم هو قبر جدّ سعيد ناصر، مع أنّهم ما زالوا يردّدون الحكايا عن الشيخ الصاوي. وحكاية فرسه التي غرقت في النهر يتناقلونها من عجائزهم حتى أصغر أطفالهم.

لكن هل يذكر علي الصاوي الرجل الشديد النحول، ذو الأضلاع الناتئة، واللحية الكثيفة البيضاء؟ هل يذكر تلك الحوادث؟ لم يكن يلتفت إلى ما يحدث خارج دائرة قلبه الملوّع، كما قال يومًا لحفيدته، لكنّه روى لها حادثة الفرس، فرسه التي بكاها كما بكى ولده حين سقط هو وزوجته في وادي جهنّم، وهو في زيارة لأحد المزارات. قال لأهل الضيعة حينها: حياة ابني أهمّ من مقامات الدنيا كلّها، وقد راح ولن أزور مقامًا بعد الآن. ومنذ تلك اللحظة التي سمع بها بموت ابنه، لم تطأ قدمه بيتًا أو مقامًا، وإن احتاجه أهل القرية

يزوروه، فيستقبلهم بعاطفة جيّاشة ويستبقيهم في بيته حتى غياب الشمس. وكان له كثير من الأتباع الذين انفضّوا عن جدّ سعيد ناصر، يعلّمهم أسرار دينهم ودنياهم. وهؤلاء قلّوا سنة بعد أخرى، حتى لم يتبقّ سوى بضعة رجال يزورونه ويطمئنّون عليه، ولا يطلبون منه المشورة، بعد أن صارت تعليماته عبئًا عليهم وعلى حياتهم القاسية التي استخفّ بقسوتها شيخهم الحكيم ذو الطباع الصارمة.

حادثة غرق الفرس رواها يومًا لحفيدته، وكانت قد سمعتها من عمّها، وبعد ذلك رواها لها سعيد ناصر وهي تنام في حضنه. رواها لها، مؤكّدًا أنّه يقدّر هذا الرجل، ذا الرأس اليابس مثل جبل الأقرع.

حصلت حادثة الغرق في الأوقات البهيّة الملقية بنضارتها على الجبل والسهل قرب البحر، حيث الأنهار تجرف في طريقها الحياة، وتعيد خلقها من جديد. وكان علي الصاوي الجدّ يقطع النهر الفاصل بين قريتين، ويحمل في جعبته الأسلحة، ليوصلها إلى الرجال في مغاور الجبل. كانت السماء تمطر، حبال متّصلة من الماء. حبال حادّة ومستقيمة، تصل الأرض بالسماء، حيث يمكن للبعض منهم الاعتقاد أنّ بإمكانهم الصعود إلى الله، وهم يتسلّقونها. وكانت الأشجار المحيطة بالنهر تلقي بثقلها حوله، وتشكّل مع الدغل والأعشاب الطويلة ملعبًا لشتّى أنواع

الحيوانات. النهر الذي لم يبعد كثيرًا عن قرية الشيخ الجبليّة، كان يحفظ تضاريسه والتواءاته، وطالما عبره بفرسه صيفًا وشتاءً. كان ما يزال شابًّا، يدور ويلفّ حول النهر ليجد الطرق الأكثر أمنًا، حيث ينبغي عليه إيصال الأسلحة، بعيدًا عن أعين الجنود الفرنسيّين، وأعين الوشاة. وعليه، قبل كلّ ذلك، أن يطمئن الشيخ صالح العلي على وصول الأسلحة بأمان.

هل ستنقطع هذه الحبال؟ يقول لنفسه، وينشم ويمسح عينيه ليستطيع الرؤية. المطر الشديد حوّل الأرض إلى برك من الوحل. فرسه الحبيبة التي ورثها عن أبيه تتحرّك بتثاقل. بقي أمامه الدرب الطيني الأخير، والنهر عميق هنا، لكن لا خيار له، لن يستطيع العودة إلى القرية دون أن تصل الأمانة. همزَ فرسه بلمسة خفيفة من ساقيه وصاح، فاندفعت. كان منتصبًا فوق الفرس، وبين حين وآخر يمسّد لها رقبتها، ويغمرها بحنوّ ساقيه اللتين تحتضنانها. استقام ثانية. كانت غاليته، كما ردّد لنفسه لحظتها، تلامس بقائمتيها الأماميّتين مياه النهر الباردة. جفلت وصهلت وتراجعت، وحرّكت رأسها يمينًا ويسارًا. سيقول لنفسه فيما بعد: كانت ترى موتها، لكنّه في تلك اللحظة لم ير سوى النقطة المضيئة والبعيدة؛ هدفه الذي كلّفه به الشيخ صالح. تخلّى عن لطفه معها. لكزها من جديد وشدّ اللجام. وصاح: هيه.. هيه... هيه.. هيه يا حلوة. بصق الماء الذي امتلأ به فمه. المطر يشتدّ. بدأ ثقل الكيس الذي يحمله فوق

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ظهره يوجعه. كان يتلفّت حوله، ولمح رؤوس بعض الرجال الذين صاحوا به من بعيد، فلكز فرسه من جديد وصاح بصوت أعلى، صوت سمعه الجميع، رغم صوت المطر القوي. اقتحمت الفرس النهر. كان الماء يجرف معه بعض جذوع الأشجار، وكان لونه موحلاً، بعض الخطوط البيضاء مثل زبد البحر كانت فقط تمرّ خطفًا. الفرس تصهل ولا تتقدّم، وهو يلكزها. ضربها بقسوة وصرخ بينما المطر يلفح وجهه. رأى جذع شجرة ضخمًا قادمًا باتّجاهه، فلكز الفرس، لكنّ الفرس لم تتحرّك، تجمّدت ومادت الأرض تحت قدميها. حثّها على السباحة فتمايلت، وسقطت. وقع عن ظهرها، وهو ما يزال ممسكًا باللجام، وكيس الأسلحة على ظهره. شعر بخطّ حارق في باطن كفّه. كانت الدماء تتدفّق، وقد أفلت اللجام منها وابتعدت الفرس. جذع الشجرة يجرفها بعيدًا عنه، فسبح وراءها، ولم يسمع نداءات الرجال والنساء الذين كانوا يطلبون منه الخروج من النهر وترك الفرس. عيناه تدمعان، وهو يخبط في الماء للّحاق بها. يلمح عينيها السوداوين البرّاقتين الواسعتين، وهما تبتعدان، يصرخ ويخبط في الماء يسبح للّحاق بها. الجذع الذي سحب الفرس اختفى واختفت معه الصورة الأخيرة التي لمح فرسه معها. تابع سباحته وسط هدير النهر، وأصوات ارتطام الجذوع السابحة فيه، تجاهل صياح الناس. بقي في النهر يجذّف بذراعيه لا يعرف إلى أين، تشوّش عقله،

كان في منطقة عمياء يرى الضفّة الأخرى ويسبح، لكن دفعة واحدة من المياه المحمّلة بالطين تنقله، فيصير أمام مستنقع من الأعشاب. يسبح من جديد، ليصل إلى الطريق التي حدّدها حتى لا يضيع. بقي حتى ساعات الصباح الأولى، وعندما وصل الضفّة الأخرى نام ساعات طويلة، قبل أن يستيقظ على حبال المطر التي توقّفت لساعات، ثم عادت تلسعه من جديد، وهو ينظر إلى النهر ويبكي. كانت دموعه مثل حبال تختلط بحبال المطر، وكان يتلمّس جرح كفّه، ويلمح صورة الفرس التي اختفت إلى الأبد.

بعد موت فرسه، لم يأت على ذكرها وعلى ذكر الحادثة، ولم يركب فرسًا طول حياته. وإن سمح أحد القرويّين لنفسه بذكر الحادثة، كان يصرخ به ليصمت، وهو ما فعله في مجلس الشيخ صالح العلي، عندما اجتمع بعض الرجال، وقرّروا أنّهم ضدّ إنشاء دولة للطائفة بعرض من الفرنسيّين، كما فعلوا في جبل لبنان، وقالوا لهم: يفضّلون أن يكونوا بلدًا واحدًا. حينها في مجلس المشورة، عرض عليه الشيخ صالح العلي فرسًا بيضاء، لكنّه رفض وقال إنّه لن يبدّل فرسه بخيول الدنيا كلّها. وقام من المجلس مكدّرًا، وسط ذهول الرجال الذين لم يفهموا غضب الرجل عند ذكر هديّة الشيخ.

الحكاية الثانية التي حفظتها ليلى، وكانت هي من روتها

لسعيد ناصر في ثالث لقاء بينهما، تقول: إنّ جدّ ليلى كان أوّل رجل يقتحم المدينة الساحليّة القريبة في النهار، ويذهب إلى مرفئها الصغير، وكانت السلطات التركيّة أصدرت فرمانًا يحرّم على العلويّين السكن في أيّ مكان يقترب من البحر، بأقلّ من خمسة كيلو مترات.

بدأت القصّة عندما راود علي الصاوي الجدّ الحلم. كان حلمه يأتيه في أوقات القيلولة النهاريّة. حلم غريب. يجد نفسه يسبح في بحيرة ملوّنة، المياه فيها تتماوج بألوان قوس قزح، وأسماكها تتقافز حوله ثم تشكّل دائرة، كلّ سمكة تقفز. يفتح فمه. تقفز السمكة وتنزلق في جوفه، يضحك ويفتح فمه ثانية، وتعود السمكات لتشكيل دائرة من جديد، وتقفز سمكة. وهكذا.. إلى أن يستيقظ. بعد تكرار الحلم للمرّة الرابعة، قرّر النزول إلى السوق العتيق لشراء السمك. وقد حاول رجال القرية ثنيه لكنّه أصرّ، ونزل مع فرسه فجر يوم صيفي، ونهرَ جيرانه الذين استوقفوه، وهو يلكز فرسه أمامه، ووعدهم بأنّه سيأتي بالسمك الذي حلم به، ولا بدّ له من أن يحقّق حلمه.

كان العالم من حوله أزرق رماديًّا لكنّه نقي، ورائحة الأرض تدفع الإنسان بقوّة سحريّة للطيران، ما جعل علي الصاوي الجدّ حينها يقفز فوق فرسه. لم يكن التاريخ واضحًا، وأهل القرية يختلفون في ذلك اليوم، لكنّه قبل ثورة الشيخ صالح

العلي بسنوات، وعلي الصاوي وهو اسمه الذي اختفى منذ أن رُزق بابنه الأوّل، وصار يُعرف باسم «الشيخ الصاوي» كان ما يزال يُعرف باسم علي، وآخر ما سمعه من الصيحات التي رافقته حتى اختفى عن أنظار أهل القرية، كانت؛ الله معك يا علي.. الله معك.

كان يشعر بحبور وغبطة، يفكّر أنّ عليه الدخول إلى المدينة التي أرعبت الجميع. فقد سبق لرجال آخرين أن حاولوا النزول من قمّة الجبل إلى المدينة، ومنهم من عاد مضروبًا ومجروحًا، وآخرون عادوا بطعنات سكّين، ومنهم لم يُعرف عنهم شيء منذ نزولهم. رجل واحد فقط أراد بيع ابنته لتعمل خادمة عند أحد البكوات، عاد والدماء تقطر من عينيه، ويجرّ وراءه أكياسًا من القمح تقيه هو وعائلته جوع السنة القادمة.

كان مشوّشًا ويفتل شاربيه الأسودين اللامعين، ويقول لنفسه وهو يطير فوق فرسه، إنّه يحقّ له أن يأكل السمك الذي اشتهاه في الحلم. ولو لم تكن هذه الرغبة ملحّة وضروريّة، لما جاءت إليه في الحلم. حلمه بأكل السمك منذ طفولته يكبر ويكبر حتى تحوّل إلى أسطورة، ووجب عليه أن يحقّق ما أراده. فكّر وهو يضحك أن يقيم لأهل قريته وليمة سمك مشوي. أجل سيحقّق حلمه!

عندما وصل مشارف المدينة، ربط فرسه قرب شجرة حور،

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وقام بجزّ كمّيّة من العشب، ووضعها أمامها، ثم ركض باتّجاه السوق العتيق. لقد سمع به وعليه أن يراه بأمّ عينيه. سوق صغير مقبّب أحجاره قويّة وتميل إلى اللون الأصفر. كئيب، قال لنفسه وهو يجول بعينيه على سقفه المقبّب. كان يمشي بثقة، وينظر حوله بتمعّن ودقّة. أراد أن يحفظ كلّ شيء عن هذا المكان المحرّم. لمح البحر، ضحك بصوت عال ومشى مسرعًا. كان يمرّ في الشارع الذي تتوزّع الدكاكين على جانبيه، ويقود مباشرة إلى ميناء المدينة الصخري القائم من آلاف السنين. الباعة ينظرون إليه باستغراب، فثيابه تدلّ على أنّه أحد الفلّاحين. كانوا يتساءلون عمّا يفعله، ولِمَ يجازف بحضوره إلى هنا. الثقة التي يمشي بها جعلتهم يكفّون عن ملاحقته، على الرّغم من أنّ بعضهم ترك محلّه ولحق به لوقت قصير. لكن وقفة واحدة منه والنظر في عين الرجل الذي يلحق به، كانا يجعلان الرجل يعود أدراجه. وظنّ الجميع أنّه من أتباع رجال الدرك الذين يتوزّعون بين القرى، لذلك لزموا الصمت، بينما يضع الجدّ يديه حول خصره، وينظر إلى الأمام بثقة، ويفتل شاربه الناعم وصدره يسبق حركة قدميه. وبين لحظة وأخرى يتوقّف وينظر عاليًا في السماء.

عندما وصل محلّ بيع السمك، صار يقلّب الأسماك، والبائع الصيّاد ينظر إليه بفضول. سأله من أين أتى، فردّ بحسم: من بلاد الله الواسعة. صمت الرجل. قال علي: أريد ثلاثة كيلوات من هذا. وأشار إلى سمك السلطاني، فتعجّب البائع من

لهجته الفلّاحيّة، وأحضر له ما أراد. حملها واتّجه نحو الميناء الصغير. كان يحمل كيس السمك بيد وفي اليد الأخرى يمسك بمقبض سكّين حادّة، وهو يقسم بينه وبين نفسه لو أنّ أحدًا اقترب منه، لبقر بطنه، لكن أحدًا لم يقترب. ووصل إلى الميناء وهو يسخر من أبناء القرية الجبناء الذين يخافون نزول المدينة. وضع كيسه في حضنه، وجلس قرب مركب صغير. فتح جراب تبغه ولفّ سيجارة، وهو يهمّ بإشعالها، اختطفتها يد منه، فوقف متأهّبًا. كان هناك أربعة رجال من حوله. صاح أحدهم: ما الذي أتى بك إلى هنا يا فلّاح يا كلب يا ابن... ولم يكمل الرجل جملته، فقد وجّه علي الصاوي لكمة قويّة إلى وجهه، وبدأ العراك. الجدّ يلوّح بسكّينه، واثنان من الرجال يحملان سكّينيهما. تقاطر الرجال وتكاثروا عليه وأوقعوه أرضًا، لكن سكّينه ما تزال في يده. كان مصمّمًا على اختطاف كيس السمك والركض، فهو لن يقدر على مصارعة كلّ هؤلاء الرجال الذين ينظرون إليه بحقد واستهزاء. فكّر أنّه بحاجة لتمرير نفسه من تحتهم ففعل، وصار خارج الدائرة، ثم وقف على رصيف الميناء. كانوا يسبّونه ويشتمونه ويبصقون عليه، وأحدهم استطاع جرحه في كتفه، وعندما شعر بالضربة الساخنة، التي تدفّقت الدماء منها، ولمح عيونهم الضاحكة، نسي نفسه، وبدأ يعمل سكّينه فيهم، كان يتحرّك مثل حيوان هائج. سكّينه تلمع تحت الشمس. لونها أحمر، خمّن أنّه جرح أحدهم. اثنان منهما وقعا

على الأرض، ومن ثم غرز سكّينه بكتف الثالث وأطلق ساقيه. لم يلتفت وراءه. كان يعرف أنّ دماء تنزف منه، لكنّه كان يعيش بإحساس من سيموت إن توقّف عن الركض. ظلّ يركض بين الحارات، حتى وصل إلى فرسه. كيف فعل ذلك؟ لم يعرف. ركب الفرس. شمّت رائحة دمائه. فانطلقت كالريح. كانت عيناه مفتوحتين على احمرار غريب، والشمس تكوي جفونه، واختلط دمه بعرقه، وصار يقرصه بألم، لكنّه لم يتوقّف، ولم يعرف إن كانوا لحقوا به. من المؤكّد أنّهم لحقوا به، لكنّه استطاع تضليلهم. وكلّما ابتعد عن المدينة وبانت الأشجار بكثرة، كان يشعر بالراحة. كان يتذكّر كيس السمك الذي تبعثر، ويضحك، وتصل ضحكاته إلى البعيد. ويتحسّس السمكة الوحيدة التي بقيت في الكيس.

في الليل شارف على الوصول. كان أهل القرية يجتمعون عند نهاية التلّة غير بعيد عن القرية المجاورة، ينتظرونه خائفين. أشعلوا نارًا وتحلّقوا حولها، وما إن سمعوا صوتًا من بعيد حتى ركضوا. كان هو وقد فقد الكثير من الدم. صاح، وهو يحمل سمكته الوحيدة ويلوح بها:

ـ من قال إنّه يجب ألاّ نذهب إلى المدينة، شمّوا! اليوم رائحة السمك وغدًا تأكلونه!

ثم تهاوى عن ظهر الفرس، وسقط على الأرض المغبرّة.

اللّقاء

اللّقاء لم يكن قرارًا يخصّ كائنًا ما على وجه الأرض. كانت المصادفة فقط، وكلّ الترتيبات المفترضة ذهبت هباء. ترتيبات من مثل أن تكون ليلى معزولة عن العالم، ومشغولة بتصوير المسلسلات التلفزيونيّة، أو تكون تائهة في وجهها حتى تذوب في مراياها الموزّعة على الجدران، أو تكون حوّلت بيتها إلى مسرح أبيض، تتدرّب في مساحته على الأدوار التي تؤدّيها. كلّ الترتيبات التي وضعتها لحياتها كانت تؤدّي إلى نتيجة واحدة؛ ألاّ تلتقي بالرجل الذي سيغيّر صوت ضحكتها المبحوحة.

كانت العاصمة باردة في ذلك اليوم. برد يقصّ الظهر كما قالت ليلى لأخيها وهي تحتضنه بقوّة وانفعال، غير مبالية بالوجوه الفضوليّة للمارّة، ولرجال الأمن المنتشرين حول السجن، والذين كانوا يبحثون فيها عن شخص ما يعرفونه.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

البرودة الشديدة والبخار المتصاعد من بين شفتيها الحمراوين، وتلك اللمعة في عينيها، جعلت منها لوحة ملوّنة أمام المبنى ذي اللون الرمادي القاتم. قبّلت عليًّا من وجنتيه ورأسه، وهي تلعب بخصلات شعره، وتتحسّس صدره النحيل، وتحضنه ثم تشير إلى سيّارة أجرة. تمسكه من ذراعه، وتفتح له الباب الأمامي، ثم تجلس في المقعد الخلفي، وتبقى يدها موضوعة على كتفه. يتجاهلها، لا يشعر بدهشة الخروج من السجن، بعد ثلاث سنوات. تداعب رقبته، تضحك، وعلى عادتها تهذر بكلام غير واضح، عندما تكون سعيدة أو حزينة. حتى إنّه كان لا يهزّ رأسه عندما تطلب منه تأكيد كلامها، ولكنّها عندما قالت إنّ الصندوق الخشبي ما يزال في بيتها، ضحك والتفت إليها:

ـ سيكون أوّل غرض آخذه منك.

ـ لن تفعل. تضحك وتجيب بصرامة، ثم تتابع:

ـ هذا صندوقي وحدي؛ وقد تركه جدّي لي. لا يردّ. تصمت بوجوم بعد أن تزمّ شفتيها الرقيقتين.

ينظر إلى شفتيها المزمومتين، ويعرف أنّها تريد مشاكسته، فيضحك. منذ أن توفّي الجدّ، واضطر عليّ إلى مغادرة القرية لدراسة الطبّ في العاصمة، أخذ أخته وكلّ ما ورثه من أموال جدّه. عاشا معًا حتى اللحظة التي اختفى فيها. يعودان إلى القرية في الصيف، يعتنيان بالبيت الطيني، ويمرّان على أراضي

العائلة، ويلتقيان بالفلّاحين المشرفين على الأراضي. كان عليّ هادئًا وحزينًا، ويعرف أنّ ما بقي من عائلته: الأخت الصغيرة، هي ارتباطه الوحيد بالدنيا، وعدا عن انشغاله بالسياسة، فقد بدا مربوطًا بحبل متين بالعيش، عقدة ذلك الحبل كانت ليلى. لذلك لم يسامح نفسه أبدًا عندما تركها وحيدة، ودخل السجن، وظلّ يعيش بإحساس الذنب هذا حتى رمقه الأخير.

عندما وصلا بيتها، لم يستطع الحراك، وانتظر أن تساعده، وتمسك بحقيبته. كانت تشعر بالخوف من شيء مجهول عرفته عندما نظرت في عينيه، ورأت الدموع التي حفرت طريقًا على وجنتيه ولحيته الطويلة. صمتت ولفّت ذراعه حول خصرها، وصعدا الدرج. كانت تضحك وتقول، وهي تقوم بفتح الباب، إنّ عليه حلق ذقنه والاستحمام، لأنّها أعدّت له ملاءات جديدة. وغرفته التي تنتظره تشبه غرفة جدّها، كما قالت وهي تبتسم. كان صامتًا والماء يتدفّق من عينيه. جلس ساهمًا مستغربًا العالم من حوله. هي تعرف أنّ جزءًا كبيرًا من ذاكرته قد ضاع في السجن؛ لذلك كانت تعيد على مسمعه، بأنّه ليس سياسيًّا، وهو طالب في كلّيّة الطبّ البشري وعليه متابعة دراسته. فيضحك من كلامها الوعظي، لأنّه ما يزال يتذكّرها ويتذكّر نفسه وجدّه والقرية.

عاد إليها كلّ الإحساس بالغضب الذي أحسّته عندما اختفى

فجأة، وتركها وحيدة في سنتها الدراسيّة الأولى. تركها مع أصدقائه الذين راحوا يختفون واحدًا واحدًا، حتى وجدت نفسها وحيدة في مدينة غريبة، لكنّها، كما قالت له، تصرّفت بما يجعله فخورًا بها. وهي ما تزال تدرس في الجامعة ويلزمها سنة واحدة لتحصل على الليسانس، وهي ممثّلة. وكان يضحك عندما تقول له إنّها ممثّلة. ولم يصدّقها حتى شاهدها على شاشة التلفزيون.

بعد شهر واحد على خروجه من السجن، تركها وذهب إلى القرية، يحمل صندوق جدّهما. خرج بصمت، وكتب لها رسالة اعتذار عن فظاظته، لأنّه يريد أن يُبقي الصندوق في القرية، وسيحفظه لها في البيت القديم الذي خلا من سكّانه.

إذًا، كانت أقرب فرصة للقاء محتمل قد ذهبت سدًى، لأنّ ليلى رفضت الذهاب إلى مكتب سعيد ناصر من أجل عليّ. وأيّ مصادفة محتملة في القرية كانت مستحيلة؛ فقد غادرتها منذ زمن، وكانت عائدات الأرض تتلقّاها من زميل لها في الجامعة هو ابن أحد الفلّاحين الذين يستأجرون الأرض. ولاحقًا لم تفكّر بالرجوع، إلاّ في أوقات نادرة عندما كانت تزور أخاها، وهي زيارة لم تكن لتتجاوز الساعات. ولقاءات أهل القرية في بيت سعيد ناصر، كانت برأيها إهانة لهم، كما ردّد جدّها أمامها. شيء في أعماقها كان يحثّها على ألاّ تلتقي برجل حياتها.

المصادفة، جاءت من حيث لا تدري ليلى، أو يدري سعيد ناصر الذي لم يخطر على باله أنّ إلغاء موعده الشهري في ملهى الحصان المجنون سيغيّر حياته، ويجعله يتعرّف على الممثّلة ابنة قريته. وفي اللحظات التي كان يقوم بها بإلغاء موعده، على الهاتف، كانت ليلى الصاوي تجلس أمام مرآتها الطولانيّة المتحرّكة، المواجهة للنافذة العريضة التي تتوضّع عليها ستائر بيضاء مخرّمة ومطرّزة بورود السوسن، وتنتقل بينها وبين مرآة أخرى ثبّتتها بالحائط، بحيث يبدو منها النصف العلوي. وبعد أن تنتقل إلى المرآة تلك، تجلس أمام مرآتها المدوّرة، وتتلمّس تفاصيل وجهها، استعدادًا للسهرة التي قامت بدعوتها إليها جيهان، الممثّلة التي تقوم بلعب دور الأمّ معها في مسلسلها الأخير.

كانت تتلمّس وجهها وتفكّر بالألوان المناسبة لفستانها الأخضر، بينما توزّع نظراتها في المرايا الكثيرة التي تحيط بها في الغرفة البيضاء. الغرفة التي تحوّلت إلى لعبة للمرايا، بعد أن وضعت في سقف الغرفة مرآة دائريّة حول الضوء الأصفر. ولولا الزوايا المتبقّية من حوافّ الدائرة في الحائط، لبدا السقف مرآة بلا حدود. كانت عندما تستلقي على فراشها، تشعل ضوء المصباح الصغير قرب السرير، وتنظر إلى المرآة، فتبدو مثل نقطة بعيدة قادمة من ظلام لا نهائي. تغمض عينيها وتشعر أنّها صارت بأمان، وأنّ كمّيّة الانعكاسات المنتشرة حولها صارت أقرب إلى

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تحقيق وجودها نفسه. وهو الأمر الذي كانت تفعله دائمًا وهي تدور حول نفسها في البيت، فالمرايا لم تكن موجودة فقط في غرفة نومها، بل كانت تتوزّع في كلّ أنحاء البيت المطلّ من الطابق الخامس على شارع بغداد، والذي يغطّيه القرميد الأحمر المهترئ، وتتطاير من نوافذه في كلّ الأيّام، حتى في عزّ البرد، الستائر التي سمّتها الأذرع الطويلة البيضاء، حيث تتركها كلّ صباح مفتوحة على سماء العاصمة. وهو ما فعلته في تلك الليلة عندما فتحت نوافذها، وأشعلت أنوارها، وجلست تخطّط ألوان وجهها؛ كحل أسود في العينين البرّاقتين، قليل من أحمر الشفاه الناري، ووشاح حريري بلون أخضر أكثر دكنة من لون فستانها. أكملت زينتها الخفيفة بوضع قرطين كانا عبارة عن ورقتين خضراوين، تشبهان ورق شجر الموز، وتتدلّيان حتى منتصف العنق، ثم عادت للتنقّل بين المرايا وهي تحمل حقيبة ذهبيّة صغيرة تناسب حذاءها الصيفي ذا الكعب العالي المدبّب، وصارت تلفّ في المساحة الضيّقة للغرفتين. تنظر إلى الجدران، فترى عدّة انعكاسات لجسدها ووجهها في المرايا الصغيرة على الحائط؛ محيط وركيها، أسفل صدرها في المرايا النصفيّة حول الأرائك، أجزاء من وجوهها الكبيرة التي تظهر في المرايا الصغيرة المتوضّعة بين الأريكتين مثل صور دائمة لها. أمّا ساقاها وكذلك نهاية أصابعها، فتراقبها في المرايا الصغيرة التي تلتصق بالبلاط، وتتوزّع في كلّ أنحاء البيت. تتوضّع أغلب المرايا من

دون ترتيب، ملتصقة بالجدران. المرايا الثابتة جلبتها معها من بيت جدّها، مرايا دائريّة قديمة بإطار معدني صدئ، خبّأتها في غرفة جدّها أيّام الطفولة البعيدة، وتظاهرت أنّها تحتاج لمرايا جديدة من أجل جدّها، فكانت أمّها تتأفّف من اختفاء المرايا، وتنتظر مرور البائع الجوّال الذي يبيع الأمشاط البلاستكيّة والمرايا الصينيّة الدوّارة ذات الوجهين، حيث تُظهر انعكاسًا حقيقيًّا في وجه واحد، وانعكاسًا مكبّرًا في الوجه الثاني. وتشتري أمّها المزيد من المرايا، وتخبّئ ليلى المزيد أيضًا. في تلك الليلة كانت تقوم بتدوير وجهي المرآة، وتنظر في أدقّ تفاصيل عينيها. لم تشعر أنّ الوقت يمضي، وهي تتأمّل نفسها حتى رنّ الهاتف، وكانت جيهان تحثّها على السرعة، بعد أن حضر المدعوّون كلّهم ولم يبق سواها.

في الزمن الذي أمضته تتأمّل نفسها، كان سعيد ناصر يصل أولى درجات البيت الذي سيلتقيها فيه.

السيّدة جيهان تجاوزت الأربعين من عمرها. سمراء بعينين سوداوين لامعتين، وشفتين مكتنزتين وصوت مبحوح، تقول إنّه كان مثل صوت ليلى الصاوي زمن شبابها. كانت هادئة عارفة كيف يمكن أن تكون غاوية وسهرتها مرضية لرجل مثل سعيد ناصر، عندما تكون هناك امرأة بجمال ليلى الصاوي بين الممثّلات الحاضرات. وهي تعرف بحسّها الذي خبرته معه ومع

غيره، أنّه سيكون ممتنًّا لها بجعل تلك البراءة المتقنة حدّ الدهشة ملكًا له. كانت رتّبت كلّ شيء، إلاّ أنّ الترتيب الوحيد الذي فاتها هو أن يضيع منها رجلها وحاميها سعيد ناصر إلى الأبد، بعد أن تحوّله ليلى إلى معبود لها.

الليلة التي كانت تظهر فيها كنجمة خاطفة، بعد انتصاف الليل بقليل، هو أمر لم تتقصّده حتمًا، فوقوفها الطويل أمام مراياها جعلها تنسى السهرة، ورغبتها بمجاملة السيّدة جيهان. وضعت كلّ شيء جانبًا، وهي تحاول المرور أكثر من مرّة بين مراياها، تتفحّص كلّ جزء من جسدها، وتبحث عن خلل ارتكبته الطبيعة، لكنّها لم تجد.

هذا هو الكمال! قالت وهي تهبط درج بيتها رافعة رأسها، مغمضة عينيها. ومن ثم سارت شبه نائمة حتى انتهت من الدرج الطويل، ووقفت تَعبّ نسمات الليل. ولسبب ما، خفيّ، صار قلبها يرقص ببطء، تفكّر في أنّ هذه المرّة الأولى التي سيُتاح لها الدخول إلى ذلك العالم الباهر الأضواء الذي حدّثتها عنه جيهان؛ رجال أعمال وضبّاط كبار، رسّامون وكتّاب، مخرجو سينما وتلفزيون، أبناء العائلات العريقة الأكثر ثراءً في العاصمة، كلّ هؤلاء سوف يجتمعون وستكون واحدة منهم.

عندما دخلت الصالة الفسيحة التي تتوزّع فيها ثلاث طاولات مستديرة، كانت تخمّرت ما يكفي، وهي تردّد تلك

الجملة. وأمام عينيها، نُصبت قمّة جبل عالية حيث ستتحوّل يومًا إلى نار مستعرة تتجاوز المكان، ستسافر الى أبعد الأماكن، وستصير أودري هيبورن. ابتسمت وهي تخطو أولى خطواتها، وتفكّر بنفسها أنّها تشبه تلك الممثّلة الأميركيّة الساحرة الضئيلة، وأنّ لها الجسد المنمنم نفسه، فكّرت، ولم تبحث بعينيها إلّا عن وجه جيهان، موقنة أنّ كلّ الموجودين كانوا يراقبون دخولها الملكي، حتى سمعت أحدهم يقول: جاءت سندريلّا، فابتسمت بخجل، والتفتت لترى جيهان أمامها مباشرة، حضنتها. وذهبت بها إلى إحدى الطالاوت، وألقت التحيّة بتهذيب شديد.

في حفلات كهذه، يصير الليل عدسة كبيرة، وتتحوّل عيون المدعوّين إلى كاميرات دقيقة وحسّاسة تلتقط كلّ منها إشارة ما، وتبحث في كلّ إيماءة عن فضول لمتابعة ما يحدث، أو تكون مناسبة الحفلات فرصة لعقد صفقات ما، أيّ نوع من الصفقات، هذا غير مهمّ. المهمّ أنّ وراء الليل الطويل نهارًا حافلاً بالألسنة التي تتمطّى من نوافذ أصحابها، وتمسح شوارع المدينة. هذه الحفلات لا تُقام بطيبة خاطر، فكّرت ليلى في أنّها ليست غافلة عمّا يحدث، ولكنّ الأوان حان للخروج من شرنقتها.

كان الجالسون يتطلّعون إليها بفضول مشوب بالدهشة. بدت مثل طفلة ملوّنة أمامهم. وعلى الرّغم من انشغالها بالدور

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الذي رسمته، إلاّ أنّها لم تستطع منع نفسها من الدهشة أمام عينين قويّتين حلّقتا فجأة في الفضاء. انبثقتا من الفراغ. في البداية ظنّت أنّها في حلم أو أنّها تلك الرؤيا التي عاشتها. عادت إليها طفولتها، عندما كانت ترى تلك العينين تطيران أمامها، وتسمع صراخًا حادًّا ومن داخل رأسها كان يطلع ظلّ رجل، يحملها ويركض، وهي تصرخ، طالبة منه أن يبقيها حيث كانت. وكانت ترى في السماء سقفًا عاليًا مكوّرًا مثل سقوف القباب البيضاء في القرى الجبليّة. العينان نفسهما. قالت إنّها ربّما متعبة ومضطربة، لكنّ أسوارها سقطت.

ربّما ستقع أرضًا من هول المفاجأة، بدت العينان تعومان وحدهما في الفضاء. اختفى الوجود من حولها. تطاير المدعوّون وتحوّلوا إلى نقاط سوداء معتمة، صارت جالسة في مكان فارغ وعائم مع كرسيّها. اختفى الحضور والطاولات والموسيقى. العينان الحادّتان تخترقانها، ولا تحيد النظر عنهما. فقط عندما مرّت أمام العينين سحابة دخان، انتبهت أنّهما حقيقيّتان، وأنّ ذلك الدخان يطير من سيجار صاحبهما. أطرقت وحبست أنفاسها. تمالكت شجاعتها، لتنظر بوضوح إلى الرجل الذي شقّت عيناه جسدها، واستبدّت بها رغبة واحدة فقط، رغبة فاسقة كما وصفتها، أن يقوم ذلك الرجل من مكانه، ويدخل فيها حتى تنشقّ مثل ثمرة ناضجة.

ما السحر الخفي في رجل يجعل المرأة ترغب فيه من النظرات الأولى؟

اعترتها رعدة خوف وهي تفكّر بذلك. إنّها المرّة الأولى في حياتها التي تشعر فيها بالخوف إلى هذه الدرجة، وتجاهلت العينين الحادّتين، وصارت تشارك الآخرين الحديث.

تلك العينان كانتا لسعيد ناصر!

سعيد الذي وصل قبلها، وجلس يستريح من أعباء مهامّه طيلة النهار، كما قال لجيهان وهو يتنهّد، بقي مبتسمًا لروّاد السهرة، ولكنّه حافظ على تلك المسافة التي تقيه الدخول معهم في أيّ حديث، بعد أن بلغ به ضجره النهاري حدّ الصمت. لكنّ المسافة بينه وبينهم لم تتعدّ حدود تلك الابتسامات، والجمل السريعة والمراقبة البعيدة لما يقومون به. وبقي في ضجره لاعنًا الساعة التي تخلّى فيها عن سهرته في ملهى الحصان المجنون، حيث سيضحك طويلاً من مهرّجه الشاعر الذي يُطيل شعره ويربطه على شكل ذيل حصان. فكّر أنّه سينصرف بعد مرور بعض الوقت، ويتنشّق القليل من هواء الليل المنعش، وهو ما لم يفعله عندما أطلّت من وراء الوجوه تلك الفتاة ذات الفستان الأخضر، والتي جعلته يقف على رؤوس أصابعه للوهلة الأولى، ثم ينتبه وينكمش ويختبئ داخل عينيه، ثم يردّ غرّته عن جبينه العريض. كان يحاول الحدّ من اهتياجه،

في كلّ نظرة يشعر أنّه يتعرّى أكثر؛ فيحاول أن يحافظ على وقاره، ويعبّ من سيجاره بعمق ويطحنه بين أسنانه. لم يفكّر بما سيلاحظه الآخرون، كان مشدوهًا، ومدهوشًا، ومربوطًا بحبل قوي، يشعر بأنّه تحوّل إلى حصان هائج، عيناه فقط تربطانه، وتفضحانه أمام سطوتها. الفتاة ذات الفستان الأخضر أكثر من هادئة وناعمة وطريّة، حتى خُيّل إليه أنّها لوحة مرسومة بملامح غير واضحة. واللون الوحيد الذي استطاع استشفافه هو لون مضيء. لا لون لها! كان شيئًا يشبه تسليط نور حارق على بقعة ظلام، سيكتشف لاحقًا أنّ هذا هو الحبّ؛ غياب الموجودات من حوله والجنون بذلك النور القادم من انثناء جسد امرأة وتمايله أمامه. عندما نظرت إليه وهي تجتاز بتلك النظرات، المدعوّين، وتوقّفت لدقائق يحدّق كلّ منهما في عيني الآخر، أدرك أنّه لم يعرف الهلاك بعد، وأنّ وراء المياه الرقراقة في عيني هذه المرأة ما يستحقّ حبّه. انتبه إلى ارتجافة جسدها كورقة لم تسقط أمام عينيه، ومن ثم انصرافها عنه.

تجاهلها تمامًا، وبدأت السهرة.

كانت الأصوات تعلو مع موسيقى تصدح وراقصات يتحرّكن، وضحكات خافتة هنا وماجنة هناك. جلست قبالة سعيد ناصر، وكان يحترق بهدوء، لم يسأل عنها، أو يلتفت إليها، وظلّت نظراتهما تشتبك في الضحكات واللفتات، حتى

نهاية السهرة، عندما قامت جيهان بتعريف كلّ منهما على الآخر. أومأ بابتسامة واحترام مبالغين، ثم عادا إلى سكونهما الخارجي. ليلى صارت تفور أكثر من الأوّل عندما سمعت باسمه، وشمّت رائحة جدّها، فانكمشت. أمّا هو فقد سمع عن بنت قريته الممثّلة الجميلة، حفيدة الشيخ عليّ الذي رفض يومًا لقاءه، وأخت عليّ الذي دمّاه بحذائه.

في نهاية السهرة عندما خرجت ليلى وحدها تودّع الساهرين بخجل واضطراب، قامت بحركة استغربتها هي نفسها، إذ مدّت له كفّها الصغيرة، خلافًا لباقي الساهرين، ونظرت إلى عينيه بقسوة وحِدّة، وهي تحاول التوقّف عن التنفّس حتى لا تشمّ رائحة جدّها. لمست أصابعها الصغيرة كفّه الواسعة، فاسترخت وشعرت بتعرّق جلده. سحبت الأصابع وارتجفت، تجاهلت نظراته، واستعجلت الخروج من هذا المكان الذي يشبه مغارة سوداء. قالت لنفسها. المكان الذي حوّل جسدها إلى حريق. انتظرت حتى صارت في الشارع وبكت بصوت مخنوق، وهي تشمّ رائحة الجدّ. كانت المرّة الأولى التي يخفق فيها قلبها، ويضخّ هذه الكمّيّة الهائلة من الدماء. شعرت أنّها سترتفع عن الأرض، وجسدها سينشطر. تبكي وتودّ لو بقيت أناملها في كفّه الضخمة، تتحسّس قطرات عرقه. رجعت في لحظة من الزمن إلى تلك الطفلة الصغيرة، إنّها هي نفسها تلك البنت الشعثاء الشعر التي ما تزال تتعلّم النطق.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

عندما سمعت صوته من الخلف، كانت ترتجف وتنتظر سائق السيّدة جيهان ليوصلها إلى بيتها. كان هادئًا، يسمع بكاءها بمهابة:

ـ لا يليق بالأميرات الانتظار خارجًا، في الليل.. هذه ليست القرية!

توقّفت عن النشيج وقالت بسرعة، دون أن تنظر في وجهه: فعلاً شعرت بالخوف قليلاً.

اقترب منها، وصارا وجهًا لوجه، لم تنظر إلى وجهه. أرادت الانسحاب بسرعة من أمامه. تعرفه وتعرف تاريخه، وجدّها يعرفه أيضًا. وقف أمامها، واقترب أكثر منها. لم يقم بأيّ حركة، سوى أنّه عاد ونظر في عينيها المبتلّتين بالدموع. صار جسدها مثل عجينة. تحوّلت مسامّات جلدها إلى فوهات براكين ممتدّة عبر تضاريسها. عاد العالم للاختفاء ولم يبق سوى تلك العينين القادرتين على تحويل جسدها إلى ماء. كانت مبتلّة بالماء، وترغب الانشطار ثانية أمامه والتحوّل إلى وادٍ عميق. واد لا أهمّيّة له سوى الامتلاء بهذا الجسد والعينين الحادّتين.

ظهرت سيّارة بدت لها مثل فهد أسود. وقف إلى جانبها. فتح باب السيّارة الفارهة. انزلقت داخلها بصمت. لم يكونا بحاجة إلى النطق ليتفاهما. أمر غريب لن يفسّره إنسان على وجه

الأرض: لماذا يندفع كائنان بهذا الجنون البدائي لينسفح ماؤهما على أرض واحدة؟

وقف على جانب الطريق، وأمر السائق بإيصالها إلى المكان الذي تريده. استقامت في جلستها، ولم تنظر في عينيه. نائمة في حلمها، وعندما ابتعدت السيّارة، التفتت إلى الوراء. كانت السيّارة معتمة ومحجوبة بستارة فأزاحتها، ولمحت خيال رجل بعيد يراقب الظلام.

الغرام

صباح اليوم التالي، كانت ليلى الصاوي قد تحوّلت إلى أثير. جسدها يرقّ ويشفّ. تخيّلت أنّها تستطيع رؤية جريان الدم في عروقها. لون الدم الذي استطاعت تبيّنه من خلال مسامّ جلدها شفّاف يسري بخفّة. وعندما قامت بجولتها اليوميّة المتكرّرة أمام المرايا، شعرت بأنّها صارت أكبر حجمًا، وأنّ رجليها تتناوبان على حركة غريبة. فكّرت أنّها مريضة، وتحتاج لاستراحة، لكنّ الخفّة التي حملتها من سريرها، وجعلتها ترتدي ثيابها وتخرج إلى الشارع، أكّدت لها أنّها بخير. ربّما هي تحت سيطرة لعنة ما، وكلّ ما تحتاجه هو إعادة السيطرة على مكان خفي في أعماقها. اتّجهت إلى صالون ميرنا، وكانت تلك المرّة الأولى التي تفكّر فيها، بنتف شعر جسمها بالكامل، حتى إنّها لم تفكّر لِمَ تفعل ذلك. الآن هي ربّما في أحد الطورين؛ إمّا أنّها تموت، وإمّا أنّها تعيش. كانت مؤمنة أنّها لن تعيش حياة واحدة، وأمامها آلاف السنين لتعيش، داخل حيوات متعدّدة.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وكلّ ما يهمّها هو إدراك هل هي في طور التحوّل إلى حياة أخرى؟ أم إنّ ذلك الحريق الموجع الذي لم يفارق قلبها من سهرة البارحة فتح ينبوعًا ساخنًا، يترقرق بسهولة في منتصف جسدها ليودي بها إلى الموت؟ كانت تفكّر، من أين أتت تلك اللذّة المباغتة، الشبيهة بطعم عسل حارق؟ كيف يكون الطعم الحلو حارقًا؟ كيف يمكن أن تكون على هذا القدر من التعاسة والسعادة، وعلى درجة متساوية منهما تقف تتفرّج على تمدّد الماء فيها؟ لم تجد الأمر منطقيًا! ضحكت بصوت عال عندما همست لنفسها: هل هو الحبّ؟ أم هي ريح اللعنات التي وعدني بها جدّي. كانت تضحك بعذوبة، عندما دخلت House of Beauty. ومع تمدّد الماء، جلست، وتقدّمت نحوها فتاة قصيرة سمينة. الفتاة ترمقها بذهول وهي تطلب منها نتف شعر جسمها. اعتقدت في البداية أنّها إحدى المعجبات، لكنّها استغربت عندما لم تعرفها الفتاة. ألم تصبح شهيرة بعد؟ الفتاة التي كانت تشعر أنّ المرأة التي أمامها تطير عن الأرض وهي تتحدّث وتتحرّك، وتلمح في عينيها فيضانًا غريبًا لمياه صافية. ظنّت أنّها تتوهّم، لكنّها تأكّدت من ذلك عندما صارت هذه الفتاة أوّل امرأة تلمس جسد ليلى الصاوي، وتعرف تفاصيله، حتى أكثر أماكنها حميميّة. كانت تشعر أنّها تلمس ماء يُسفح، في كلّ مرّة تضع عجينة السكّر فوق جلدها، وتبالغ في رقّتها وهدوئها أثناء عمليّة نزع الشعر، لشعور ضمني أنّ أيّ حركة

قاسية ستجعل الجلد ينشقّ، ليتدفّق ماء ليلى الفضّي.

في تلك اللحظات نفسها كان سعيد ناصر يجلس في مكتبه وحيدًا، بعد أن طلب من حاجبه قطع كافّة الاتّصالات. كان مأخوذًا بكلّ ما فيه، وهو موقن أنّ ذلك لن يدوم طويلاً. فكلّ بداية للحبّ هي النهاية حتمًا له. وقد اعتاد تغيير النساء، كما اعتاد تغيير جواربه اليوميّة كلّ صباح. لكنّه فجأة تخيّل نفسه وحيدًا في هذا العالم من دونها. لماذا يحدث له ما يحدث؟ لماذا تأتي هذه الطفلة وتجعله يشعر بالجنون؟ ما هو السرّ الذي حوّل ليلته الماضية إلى أرق لم ينته إلاّ طلوع الفجر؟ لا بدّ أنّ في الأمر سرًّا ما، فهو لم يشته امرأة لأكثر من ليلة واحدة. لقد وهب حياته لعمله، حتى إنّه لم يتزوّج! ولا يليق برجل عسكري الانجراف وراء تلك الرهافة التي شعر بها. لن ينسى كيف رقّ قلبه فجأة، وابتلّ أيضًا، ثم التوى وانعصر. لاحظ أنّه يرقّ كلّما طارت أمامه في فراغ المكتب صورة وجهها. قام من مكانه وفتح الباب الجانبي، فاختلف المشهد؛ غرفة صغيرة بسرير خشبي، وطاولة زجاجيّة دائريّة وكرسيّان جلديّان. على النافذة تتوضّع ستارة نظيفة. كان مهووسًا بالنظافة، وإذا لمح غبارًا ما حوله يُصاب بالهلع ويصرخ بمن حوله، وكلّما صافح أحدًا يغسل يديه بالصابون، ثم يقوم بفركهما بمعقّم خاصّ، وقبل الطعام وبعده ينظّف أسنانه ثلاث مرّات، وقبل أن ينام يستحمّ، وعندما يستيقظ يستحمّ أيضًا، وكان يقتني سبع بذلات عسكريّة،

كلّ صباح يغيّر واحدة، ويُعيد تعقيم مكتبه بنفسه بعد أن يمسحه الجندي القائم على خدمته. وطول عمره لم يسمح لأحد بغسل سراويله الداخليّة أو رؤيتها. كان الجنود من حوله يتناوبون على مسح أغراض مكتبه عدّة مرّات في اليوم الواحد، ويغيّرون ملاءة سريره في المكتب كلّ يوم، وهو الأمر الذي فعلته خادماته في بيت عزوبيّته الطويل.

تمدّد على السرير مشوّشًا، وكانت ليلى تتمدّد كلعبة بين يدي ماري وهي تنزع أدقّ وبر جسمها نعومة. كان يغمض عينيه ليستعيدها، فتهرب منه. يقوم من مكانه. يطلب سائقه، ويخبره أنّ عليه الذهاب إلى بيت السيّدة التي أوصلها ليلة البارحة، ويأمره أن يحمل أكبر باقة ورد بيضاء عرفها، ثم يكتب على ورقة صغيرة: «لا يجوز أن نكون أبناء قرية واحدة ولا نلتقي. أنتظر زيارتك السابعة مساء».

أعطى الورقة للسائق، وهو يجزم أنّها ستفعل ما طلبه. لم يكن متأكّدًا تمامًا، لكنّه يعرف أنّ أحدًا لا يستطيع ردّ طلب له، حتى وإن كانت حفيدة الشيخ عليّ، تلك المرأة الفائقة الجمال والرقّة.

فكّر في أنّه من الصعب عليه تركها لغيره. وعندما يحصل عليها سيرتاح من وجعه وقلقه. لذلك بعد أن غادر سائقه عاد إلى مهامّه المعتادة بنشاط.

عادت ليلى إلى بيتها مشوّشة. ولم يستطع حمّامها المنعش أن يبعد عنها تلك الرؤيا، شبّهتها بالرؤيا، لأنّ العينين كانتا تطيران حولها في البيت، تحدّقان فيها بتلك الشهوة القاسية، فتتابعهما بلذّة وتتحرّك بين المرايا عارية، تتفحّص جسدها النظيف، بعد أن تحوّل إلى جسد طفلة.

دُقّ الباب فارتبكت. اختفت العينان، وصار الباب مثل مغارة بعيدة، كانت خائفة، وتشعر بأنّه سيكون وراء الباب. هكذا يكون الأمر واقعيًا، قالت لنفسها وهي ترتدي مشلحًا أزرق. فتحت الباب. كانت شجرة بيضاء تقف أمامها؛ شجرة من الزنابق البيضاء، ثم ظهر رجل غريب يرتدي ثيابًا عسكريّة، سلّمها الورقة البيضاء، وانحنى بلطف، وانصرف.

وقفت مدهوشة، الزنابق البيضاء تلتفّ حول ساق خشبيّة! شعرت أنّها عروس، فصارت أكثر خفّة، ووجدت صعوبة في إدخال باقة الزنبق إلى المنزل. فتحت الورقة البيضاء وهوت إلى الأرض. قرأت ما كتبه سعيد ناصر، ثم انتبهت إلى اسمه المكتوب بخطّ أنيق أسفل الورقة. استسلمت لبرود البلاط، وارتخت ثم تركت رأسها يهوي إلى قاعٍ لامتناهٍ تريد الغرق في مكان ما. رأسها يطير وينفصل عن جسدها، مثل فراشة تنزع جناحيها أمام النار.

كانت أكثر من سعيدة. كلمة سعيدة ضيّقة جدًّا على ما

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

شعرت به، لكنّها في اللحظة ذاتها بكت بحرقة. تبكي وتضحك، وقد عرفت أيّ ريح ستأخذها إلى حيث لا تدري. كانت جاهزة لتترك نفسها لتلك الريح، مثل ريشة في فضاء. جسدها لا يخطئ شهوته، وهي تلمح توأمها المنفصل عنها يومي لها بالقتل. ربّما هي مقتولة؟ لكنّ لحمها المجنون لا يخطئ. لحمها يدلّها. وتأكّدت، كما لم تفعل قبلاً، أنّها إن لم ترتمِ بين ذراعيه، فإنّ حيوانًا متوحّشًا تحت جلدها سوف يفترسها من قلبها!

الوصال

الساعة السابعة إلاّ ربعًا.

دقّ الرجل نفسه باب بيتها، الرجل صاحب الشجرة البيضاء والبذلة العسكريّة الذي أقلّها البارحة. كانت على أتمّ الاستعداد. دقّ الباب ثانية. فتحته. قال: مساء الخير. نزل الدرج دون تعليق أو حتى إيماءة. لحقته نازلة الدرج بهدوء. كان الطريق طويلاً على الرّغم من أنّ مقرّ فرع الأمن ليس ببعيد عن بيتها، والظلام الذي حلّ فوق المدينة يتلوّن بالرمادي والأزرق. تنفّست بهدوء، وكأنّها ذاهبة إلى موعد رجل عرفته، لكنّ الماء كان على حاله ما يزال يتمدّد، وقد امتلأت به، حتى شعرت أنّ أطرافها تتوزّع بين جهات الأرض قاطبة. أغمضت عينيها عندما وصلت المبنى. تعرف هذا المكان، أكثر من معرفتها أمكنة أخرى. كانت تزور أخاها السجين هنا قبل انتقاله إلى السجن المركزي، لذلك فاجأها الجفاف، وتذكّرت كم تكره

هذا الرجل الذي يجذبها مثل مغناطيس كامن في تجويف الكرة الأرضيّة. انكمشت وهي على باب المكتب، ثم انكمشت أكثر وهي تتقدّم نحوه، وتؤنّب نفسها على فعلتها هذه؛ كيف تأتي إليه؟

كانت ترتدي قميصًا أبيض مخرّمًا، مزنّرًا حول صدرها بشريطة لامعة أقلّ بياضًا، وينفلت فوق تنّورة بيضاء أيضًا، مطرّزة بورود صغيرة متناثرة، وتصل التنّورة إلى ما تحت ركبتيها بقليل، وتنتعل حذاءً عاليًا بلون خشب الحور، وتحمل حقيبة من القشّ المطرّز بأغصان خضراء، وترخي شعرها بلا مبالاة. كانت قد رسمت عينيها الخضراوين بقلم كحلي مدبّب، وعدا عن ذلك، تبدو وهي تتقدّم نحوه، كأنّها عارية تحت الملابس البيضاء، إذ تختفي كلّ التضاريس المفترض إبرازها لرجل تريد إغواءه. كانت تبدو مثل رسم خجول وباهت عن امرأة تعيش في أعالي الجبال، رسمها ذات يوم عاشق مولّه. امرأة بيضاء كالعدم، لولا حدّة عينيها الخضراوين.

قام من وراء مكتبه، كان رزينًا، ويرتدي ثيابه المدنيّة. وعلى غير عادته يدخّن سيجاره الثخين في المكتب، وهو ما جعلها أكثر يباسًا. صافحها وابتسم. صمت وابتسمت، وجلست باستقامة وتحفّز على الكرسي الجلدي، فجلس قبالتها.

ـ خيرًا سيّد سعيد؟ قالت جملتها وهي تنظر إلى النافذة.

لم يجب، وظلّ يحدّق فيها بتلك النظرات نفسها التي سحرتها، وكانت تعرف في قرارة نفسها أنّه يفعل ذلك، لذا فضّلت الانشغال عن عينيه بالنافذة.

هل يمكن المرأة السقوط في حبّ مثل انفجار بركاني. انفجار يجرف كيانها، لكنّه قد يكون غير قابل للتحقّق، مثل حالتها الآن، وهل عليها أن تصدّق أنّها تحبّ رجلاً على هذا القدر من كراهيتها لحياته وما يفعله. تحبّه بصمت، ومن النظرة الأولى؟ هذا جنون حقيقي لم تختبره في حياتها، وعليها الاكتفاء بتلك المشاعر التي ستعذّبها، وستجعلها تشعر بمذاق العسل. العسل الحارق كالفلفل، حين تلتقي تلك الحلاوة مع النار، ذلك هو الحبّ الصامت الذي فكّرت فيه، أو ربّما الإعجاب. لكنّه سيكون صامتًا في قلبها وروحها؛ فهي أعقل من أن تفتتن برجل مثل سعيد ناصر، وستكتفي بتلك النظرات الحارّة التي تطحنها تحت وطأة الرغبة والجنون بعيني ذلك الرجل ورجولته الطافحة. وستطلب الصبر على روحها لتعينها إن عادت والتقت به. ستبقى في مكانها جامدة لا تتحرّك خطوة اتّجاهه، حتى لا يفضحها جسدها الذي قدّرت أنّه سينجذب إليه بقوّة مائها.

انشغلت بالنظر إلى أدوات المكتب والأقلام والأوراق وصورة الرئيس التي تأخذ حيّز جدار كامل، والمشجب الذي

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

يعلّق فوقه بعض قمصانه. أعادت السؤال عليه، فضحك بصوت خفيض، وقال وهو يقترب منها:

ـ الأقرباء لا يحتاجون سببًا حتى يلتقوا ويتعارفوا؟!

هزّت رأسها، وكان ماؤها المتمدّد داخلها قد وصل قلبها، وإذا لم تنطق، فسوف تموت وهي جالسة على كرسيها:

ـ لذلك جئت بأخي ليبقى جانبك كلّ هذه السنوات!

قالتها بسخرية، وهي تحاول التنفّس، فصمت، وأدرك أنّها مشاكسة، أو تضمر في قلبها الكراهية. ربّما أخطأ حدسه عندما شعر برغبتها فيه. ربّما؟ تساءل وهي تُنهي جملتها، وفكّر في سؤالها إن كانت تحتاج لمساعدة في العاصمة، وأنّه بمثابة واحد من أسرتها. فكّر لثوان بكلّ تلك الترّهات، لكنّه قال:

ـ هذا أمر لا يد لي فيه. أنت تعرفين أمن البلد و..

ابتسمت، وارتسم على وجهها ظلّ سخرية، فصمت.

كان يجب أن تقوم من مكانها، عندما وقف بوجهها، وجعل عينيه تلتقيان عينيها. جمدت، وتوقّف تنفّسها. عند تلك اللحظة، كانت كمّيّة الأدرينالين تتدافع. ومع انحباس نفسها، وعدم قدرتها على التنفّس، هوت ببطء بين ذراعيه وتحوّل جسدها إلى ذرّات من الرمل المنسكب. ولولا أنّه كان قريبًا إلى الحدّ الذي جعله يمسك بها، لسقطت وارتطمت بأرض

المكتب، ولربّما فُجّ رأسها الصغير. تهاوت بين ذراعيه، فحملها برفق مثل عصفورة. شعر أنّ قلبه يحترق وهو يضمّ أضلعها الصغيرة في صدره. تأكّد أنّه هالك وأنّه سيفعل أيّ شيء من أجل عصفورته. وضعها على الأريكة الجلديّة العريضة، وجعلها تتنشّق القليل من عطره الخاصّ، فعشّشت تلك الرائحة في رئتيها إلى الأبد؛ فحتى في أشدّ أوقاتها حلكة وظلمة داخل جدران السجن، كانت تأتيها رائحة العطر ذاك، الذي استفاقت على وخزاته ببطء وغنج، ووجدت نفسها داخل تلك العينين، وتمامًا حيث شعرت أنّها عادت إلى مستقرّها، كانت تتوسّد صدره، فتحت عينيها وتأكّدت أنّها عرفت هذا الرجل يومًا. عرفته وعشقته، وعاشت معه كما عرفت جسده. لذلك لم تمانع عندما اقترب منها، ومسّت شفتاه شفتيها الرقيقتين بحنوّ بالغ استغربه هو نفسه. فقد اعتاد التقبيل بشراهة، كأنّ به رغبة لتمزيق شفاه النساء. كانت مسّة خفيفة مثل ارتجافة طير مبلّل، ثم ابتعد عنها قليلاً، لا يفكّر إلاّ برغبة قويّة للامتلاء من عينيها، ودوام هذه اللحظة. وراحت أحلامه بالحصول عليها تتلاشى. أراد فقط أن تبقى على حالها. لم يحاول مسّ جسدها، أو جسّ نهديها الصغيرين. كان يمرّ بين لحظة وأخرى بشفاهه، مرورًا خفيفًا على تضاريس وجهها، على رموشها وعينيها، وأنفها، وجبهتها. يمرّ بشفتيه حتى لا يفقد متعة ارتجافه، ودخوله في حالة لم يعرفها من قبل، تشبه السباحة في

الهواء. أمّا هي فكانت ما زالت تنسكب كذرّات رمل.

مضت دقائق، وهما على هذه الحالة، فتنحنحت ليلى، واعتدلت، وابتعد عنها. جلس إلى جانبها مخفيًا عينيه اللتين تلوّنتا بسائل شفّاف. بالطبع لم يكن دمعًا، ربّما هو ماء ليلى الذي سبّب له العدوى. كانت تلمح ارتجافة عينيه، وترى السائل الذي نشف عندما اعتدلت في جلستها. حينها عرفت أنّها عاشت معه في إحدى حيواتها. كانت تلك القناعة المطلقة لها. لقد عرفته، وهذا هو السرّ الوحيد الذي تستطيع أن تجد له تفسيرًا، وسط جنونها الذي يدفعها إلى الرغبة بهذا الرجل.

كان الصمت قاتلاً، ولا بدّ من أنّ كلّ من في المكتب انصرفوا. لم تعد تسمع أيّ صوت خارجي. شعرت بخوف أشدّ لأنّ ماءها بدأ يتسرّب. وفي تلك اللحظة صارت تشعر بالخجل من نفسها ومن رغبتها. تريد إيقاف الماء، وتوديع الرجل الساحر كما ستسمّيه لاحقًا، ومن ثم نسيان أنّها رأته يومًا، لكنّها لم تستطع الوقوف؛ كان جسدها رملاً وماء. لم تحرّك قدميها، كأنّ ظهرها ثُبّت بمسامير. لا بدّ أنّ في الأمر خطأً ما! ترتيبًا إلٰهيًّا غير محسوب بدقّة، حتى تجد نفسها تتحرّك في جلستها لتمسّه قليلاً. مسّته بأطراف أصابعها الدقيقة في حركة عفويّة. كان ينتظر تلك الحركة، وعندما شعر بملمسها، انفتح كهف من ضوء أمامه. تسرّبت حرارتها إليه، وصار يباعد ما بين

ساقيه حتى تلتصقا بها. كانا ينظران إلى النافذة. عيونهما في نصف إغماضة. يتحرّكان وكأنّهما في منام. العينان تهربان، تخافان ذلك السعير الذي سينطلق عند تلك اللحظة. بقيا لدقائق متلاصقين، وحرارة كلّ منهما تجعلهما أكثر التصاقًا. خلال لحظة استدار، وأمسك بذقنها المدبّب. وبهدوء جعل شفتيه تقتربان بمسّ خفيف. كانت جامدة، لم تحرّك شفتيها، لكنّها استجابت له واقتربت، ومدّت رأسها إليه. حينها غرق معها في قبلة. قبلة طويلة انتهت به أن يحملها. لم يحملها، كان عائمًا بمائها، حتى وصل السرير في الغرفة الجانبيّة، ولم يستفق من ذلك العوم، حتى فجر اليوم التالي. كانت لا تزال عارية بين ذراعيه، تتكوّم مثل حيوان برّي مذعور. نظر حوله، وكأنّه يستيقظ من حلم بعيد. كلّ شيء على حاله، تمامًا كما كان قبل الساعة السابعة البارحة. الفرق الوحيد أنّ ملاءته لم تعد نظيفة، بعد أن توضّعت فوق الملاءة بقعة حمراء وسط بقع الحبّ الكثيرة التي غطّتها.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

سعيد وعليّ

أفاقت ليلى مثل مجنونة بين ذراعي سعيد. لبست ثيابها بهدوء. أمّا هو فجلس غارقًا في حزن لم يفهم معنًى له. خرجت راكضة متحاشية النظر في عينيه، ولم يحاول استبقاءها. تجاهل كلّ منهما النظر في عيني الآخر. كان في تلك اللحظة خائفًا. وكيف يخاف؟ هل يجوز أن يخاف؟ هو سعيد ناصر ولا يخاف! لكنّه خائف. أجل يعترف لنفسه: أنت خائف! يبتعد عن السرير وينزع ملاءته بغضب. لقد عاودته ذكرى اللقاء بعليّ الصاوي الحفيد عندما تكوّمت في حضنه، وأنفاسها المنعشة تبهج قلبه، بينما صورة جسد عليّ المكوّم تحت قدميه، تحوّل بهجته إلى سكّين حادّة تحزُّ قلبه.

تفسد ذكريات الأخ بهجته فيخرج إلى مكتبه. المكان خال. هنا جلس عليّ الحفيد أمامه قبل سنوات. مرَّ على المكان نفسه الذي خرجت منه أخته وجلس هنا. هوى سعيد فوق الكرسي

الذي جلس عليه عليّ. كان حينها غاضبًا من الملفّ الذي قرأ فيه عن ابن قريته، ومغمومًا من شيء لم يفهمه، لكنّه عرف السبب لاحقًا.

في ذلك الوقت كان عليّ الحفيد حياديًّا صامتًا ساهمًا، وفي أعماقه خاف من هذه الزيارة المفاجئة. فقد انتهى التحقيق معه، ولم يجد مبرّرًا لخروجه من سجنه إلى مكان مجهول. عصبوا عينيه داخل السجن، وخمّن أنّ شيئًا مهمًّا قد حصل حتى يعصبوا عينيه، ولم ينتزعوا تلك العصابة إلاّ أمام الباب الذي سيُفتح فجأة. وسيجد نفسه، وقد تركته اليدان القويّتان اللتان آلمتا كتفه وهما تقبضان عليه وتحرّكانه مثل دمية.

خمّن، بعد نزوله من السيّارة التي سارت به حوالى نصف ساعة، أنّه اجتاز العديد من الممرّات وارتطم بالجدران، حتى شعر أنّ جسده على وشك التفتّت. وكان يسبُّ في سرّه سجّانه الذي يحرّكه، إذ كان بإمكانه ببساطة جعله يتفادى ذلك الوجع؛ مع ذلك كان راضيًا لأنّ عتبة الألم في رحلته المظلمة والقصيرة لا تُقاس بالألم الذي عرفه منذ ستّة أشهر، ولا تُقاس بالفنون التي أجادها سجّانوه والمحقّقون الذين مرّوا عليه. هذا جيّد، يقول لنفسه، وهو يجلس أمام سعيد ناصر، محاولاً فهم ما يجري حوله. كان سعيد جالسًا وراء مكتبه، يحاول قراءة وجه الشابّ الذي يحمل وجه ليلى، لكنّه عريض المنكبين، طويل.

والاختلاف الوحيد الذي وجده سعيد فيما بعد، وهو يتفحّص وجه ليلى، كان في أنفه الطويل. أنف محدّب وحادّ ومعقوف، ويبدو في ملامحه مثل رسم قديم لرجل فينيقي.

طلب من حاجبه أن يأتي بفنجانين من القهوة، ثم قدّم له سيجارة، أخذها عليّ بحياديّة، وكان هادئًا، حتى قال سعيد:

ـ هل تعرف أنّنا من قرية واحدة؟

نظر عليّ بفزع وصمت. وأدرك أنّه أمام سعيد ناصر. الرجل الذي كرهه جدّه علانيّة دون تحفّظ. ما الذي يريده منه؟

ـ تشرّفنا.

قال عليّ. أضاف سعيد:

ـ أنت تعرف.. أنت منّا وفينا و..

صمت عليّ وبدا أنّه على وشك البكاء؛ فقد سمع هذه الجملة من سجّانيه ومن المحقّقين. كلّ يوم، واحد منهم يقوم بالانتقام منه لأنّه خان جماعته. الخيانة لا تُغتفر، وهو لم يستطع أن يردّ في وجوههم ويشرح لهم موقفه. غالبًا ما يصمت، وهو مطالب أمام سعيد ناصر بالتبرير. لم يكن جاهزًا للحديث بعد اعتياد الصمت. ارتجفت شفتاه وظهر اضطرابه:

ـ تدرس الطبّ؟

ـ نعم.

ـ في السنة الأخيرة؟

ـ نعم.

ـ إذًا، أنت ذكي وشابّ حلو وابن عالم وناس؟

صمت عليّ. إنّه يعرف ما الذي سيقوله؛ فقد سبق أن سمعه من قبل حتى حفظه:

ـ قل يا عليّ؛ كيف اجتمعت بهؤلاء الحثالة وصرت واحدًا منهم؟

ـ أيّة حثالة؟

كظم سعيد ناصر غضبه. هل سيلاعبه هذا الولد؟ لو أنّه لم يكن ابن قريته لرفسه فورًا في مكتبه، وجعلهم ينزلون به إلى القبو، هناك حيث يختلط الدم بالحديد واللحم البشري، لكنّه صمت بهدوء وأضاف:

ـ أنت تعرف أيّ حثالة أتحدّث عنها؟

ـ لم يعد هناك من حثالة.

قال بحسم. لم يعد هناك ما يخيفه، لكنّه تحسّس بطنه الذي انشقّ نصفين بجرح طويل. يذكر أنّ محقّقه شقّه جرّاء نقاش يشبه هذا، ففضّل الصمت. أثر الجرح لم يندمل كفاية،

لينسى كيف هوى المحقّق بكرسي الحديد عليه، وكيف انغرزت إحدى قوائم الكرسي في بطنه، وبقي شهرًا في المستشفى بعد ذلك:

ـ صحيح لم يبق هناك من حثالة، ولن نسمح بأن تكون هناك حثالة.

صمت سعيد ولم يجبه:

ـ أنت توافقني أنّهم حثالة؟

ـ لا أوافقك. لم يكونوا حثالة.. أرادوا التعبير عن أفكارهم. وأنت..

قاطعه بلهجة حاسمة وغاضبة:

ـ ماذا قلت؟ التعبير عن أفكارهم؟ هل تقول التعبير فقط؟

ـ نعم التعبير. وأنت تعرف ما أعنيه. مجرّد اختلاف في الرأي.. كانت نتيجته أن قمتم بحبسنا و..

ـ عظيم.. عظيم صرت تتكلّم بصيغة الجمع. هذه يعني أنّك... المهمّ ليس هذا موضوعنا، الموضوع المهمّ أنّه يعزّ عليّ رؤية حفيد الشيخ الصاوي بين هؤلاء الناس.. ألست مفيدًا للوطن؟ نحن نريدك.. أنت طبيب وذكي وشابّ قوي.. نستطيع الفخر بك.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

هزّ عليّ رأسه وتنهّد. لقد ملّ كلّ شيء. أضاف سعيد برقّة:

ـ أنا مهتمّ بأمرك. فكّر في مصلحتك وتاريخ عائلتك وسمعتها. انظر إلى الأمام. ما قمتم به ضرب من الجنون. حزب معارض! هل أنت مجنون؟ هل هذه ظروف تسمح بإنشاء حزب معارض؟ ماذا لديكم؟ لا شيء.. لا شيء. هذا العالم لا تحكمه سوى القوّة. وهل تعرف ما هي القوّة هنا؟ القوّة أن يوجد رجل قوي يحكمنا.

ـ من نحن.. من تقصد؟ قال عليّ باستفزاز، وفقد أعصابه.

ـ أقصد نحن.. أنا وأنت والجميع. يكتم سعيد غيظه ثانية ويقوم من مكتبه، يجلس في الكرسي المقابل، ويشعل سيجاره:

ـ تعرف العذاب الذي عشناه. انظر الآن لحالنا أين كنّا وأين صرنا؟

ـ تريد إقناعي أنّي يجب أن أحتمي وراء حديثك هذا لأشعر بالأمان. أنت تعرف أكثر من غيرك أنّكم لا تحموننا، أنتم تحتمون بنا. أنت وأنا نعرف..

بدأ هدوء سعيد ينتهي فصرخ:

ـ ماذا تعرف؟

ـ أعرف أنّك لم تكن موافقًا من البداية على...

يقرّر عليّ ألاّ يتمادى، لكنّه لن يسمح لهذا الرجل باستغلال خوفه وتجييره لصالحه. فضّل الصمت.

ـ على ماذا لم أكن موافقًا؟

ـ لا شيء؟

يصمت عليّ بذلّ، ويشعر أنّه يودّ الاختفاء من العالم الغبي؛ فقد كره حتى نفسه وكره رفاقه وعائلته. تأكّد من أن لا شيء في العالم يستحقّ أن يكون على هذه الدرجة من الغباء. تحديدًا الغباء يخطر على باله في حواره مع سعيد. يردّد في نفسه، كلّ شيء من حوله ينبئ بأنّه هو ورفاقه مجموعة من الحالمين. لكن أن يأتي هذا الرجل الآن ويقول له إنّه خائن، فهو أمر لم يحتمله. وقد اعتقد، على الدوام، أنّ أكثر الخاسرين ممّا حدث هم أبناء طائفته، وكان يشبّه هذا التحوّل بزرع طفيلي داخل الجسد الذي يعيش عليه حتى يكبر، يعيش على الأحشاء، يلتهمها ببطء حتى لا يبقى سوى الجلد، ليخرج بعد ذلك كائنًا مسخًا. صمت من جديد، لا يريد أن يناقش في أيّ موضوع. إنّه في سجنه، لا يعرف متى تتمّ محاكمته بتهمة التآمر على مصلحة البلد، وربّما لن تتمّ قبل سنوات؛ فقد اعتادت الأجهزة الأمنيّة على الخطف والسجن والتعذيب. كان قانون الطوارئ يسمح لهم بذلك. لم يبق أمامه سوى انتظار

خروجه ومتابعة حياته بهدوء. وقرّر، حالما يخرج من السجن، أنّه لن يفكّر في السياسة، وسيتفرّغ لدراسة الطبّ، أو ربّما يترك العاصمة، ويعيش في بيت جدّه.

كان سعيد يصرخ في وجهه، وهو شارد عنه. ينظر إلى وجهه وشفاهه تتحرّك، لكنّه لا يسمع حرفًا ممّا يقوله. وعلى الرّغم من مرور كلمة الخيانة أكثر من مرّة أمامه، إلاّ أنّه لم يجادله. تعب قلبه من الحقيقة الواضحة. يعرف أنّ من الصعب، في ظلّ حكم عسكري، المطالبة بتعدّد الأحزاب وإلغاء قانون الطوارئ. خاصّة بعد الآن عندما قامت الأجهزة الأمنيّة بحملة واسعة من الاعتقالات، وانتهت صراعاتها وحربها الدمويّة مع الإسلاميّين، وتفرّغت للتنظيمات السرّيّة التي قام بها بعض الشباب، واعتقلت معظمهم نتيجة وشايات لم يعرف مصدرها. منهم من يقول إنّ وشايات أحد القياديّين هي من قضت على الحزب، ومنهم من يقول إنّ التعذيب في السجون يجعل الحجر ينطق. لكن في نهاية الثمانينيّات كانوا في السجون، وقلّة قليلة منهم استطاعت الاختفاء، وقُبض عليهم تباعًا. كان عليّ واحدًا منهم. وقد وصل إلى نهاية الطريق ولم يبلغ السادسة والعشرين، ويشعر بأنّه عجوز في الستّين، وأنّه غير قادر على المماحكة، ومع ذلك، لن يسمح لهذا الرجل بقطف ثمار عذابه.

سعيد ما يزال يتحدّث عن الصعوبات التي تواجهها الأمم

العظيمة. خرج الكلام من حلق عليّ ولا يعرف من نطق، هل كان هو نفسه أم الغضب:

ـ من أهمّ برأيك الأرض التي يعيش عليها الإنسان، أم الإنسان الذي يعيش على الأرض؟

بثقة أجاب ناسيًا أنّه المحقّق والذي أمامه سجين:

ـ الأرض.

ـ بل الإنسان أهمّ ما في الحياة، والأرض وُجدت ليعيش عليها الإنسان، وليس ليُقتل الإنسان باسمها. قال عليّ بحزم وهدوء.

ضحك سعيد ناصر وقال له هازئًا:

ـ أنت تذكّرني بمراهقتي عندما كنّا نُسجن ونُعذّب لأنّنا..

ـ لماذا تعيد الدور نفسه؟

ـ أنا أبني وطنًا.

ـ أنت تخرّب وطنًا.

صفعه سعيد، فسقط على الأرض.

ـ أنت كلب.

قال سعيد، وبقي عليّ ممدّدًا على الأرض. لم يتحرّك،

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

شعر بالندم لأنّه فقد أعصابه، وقال لنفسه: من أنت يا عليّ.. يا حشرة، لتناقش رجلاً في مثل موقعه؟ هو حيّ وأنت ميت.

اقترب منه سعيد ورفسه وركله وشتمه. وعليّ يعرف أنّ كلّ ما عليه فعله هو الصمت وتلقّي الركلات حتى يهدأ؛ فقد جرّب في البداية كيف يقف بوجه من يضربه، وانتهى به الأمر إلى الاعتياد على ذلك. وأفضل ما يفعله تلقّي الضرب حتى ينتهي. هذا درس تعلّمه فيما مضى، لماذا يتفلسف الآن؟ أنّب نفسه. أنت الآن حشرة تحت حذائه. اصمت. قال لنفسه.

شعر بملوحة تغطّي وجهه، وصار رأسه عند مقدّمة الأريكة الجلديّة، وهو يتكوّر على نفسه مثل جنين. هدأ سعيد وجلس وراء مكتبه، وقد عرف لماذا كان يحسّ بانقباض هذا الصباح، فهو يعرف عليًّا وأمثاله من الشباب الخونة. أشعل سيجارة مرّة ثانية وصرخ: انهض.

لملم عليّ نفسه وبالكاد استطاع الوقوف. شعر أنّ الدنيا تلفّ به، فسقط على الأرض ثانية، وعاد سعيد للصراخ: انهض. حاول عليّ ثانية، وهو يهمّ بالوقوف. صرخ: اجلسْ. جلسَ عليّ. نظر سعيد إلى وجهه المدمّى:

ـ كنت أقول لنفسي: إنّي يجب أن أحمي ابن قريتي، فإذا بك حاقد حتى على نفسك. ألا تحبّ نفسك؟ انظر ما فعلت بها.

صمت عليّ، أراد أن يقول له أنت من فعلت بي هذا. شعر أنّه سيموت إن لم يصرخ في هذا الرجل، أنت ميّت ميّت ولن يهمّ. قال لنفسه. كان رأسه يترنّح فوق جسده، وبالكاد يستطيع التركيز. مع ذلك خرج صوته الهادئ والمرتجف:

ـ أنت من فعل بي هذا. أنت من ضربني، وأنت من خان أهله، ومن خان وصايا الأجداد. أنت من لا يليق بنا. الوحوش تعيش بغريزة البقاء وتقتل من أجل العيش، لكنّك تفعل ذلك ضمن شروط المواجهة والقتل غير المتكافئ. تتلذّذ بأنّك صاحب سلطة. أنت ضبع يتسلّح بأسلحته ضدّ واحد من أبناء طائفته العزّل. تضربه وتعذّبه وقد تقتله لأنّه ليس مثلك. أنت تسجن وتقتل كما قُتل أجدادنا، أنت من يُعيد الدور الذي تهنا في الأرض من أجله.. من هو الخائن؟ أنا أم...

لكنّ سعيدًا لم يمهله حتى ينهي كلامه. كان يحدّق به بعينين واسعتين حمراوين تقدحان بالغضب. قام من وراء مكتبه ثانية، ورمى سيجارته على الأرض، وضرب عليًّا بجنون. فقد نفسه وتوازنه وهو يركله ويضربه ويصرخ بوجهه، ولم يتوقّف عن ضرب رأسه بجدران المكتب حتى دخل حجّابه من حوله، وخلّصوه منه. لكنّ الأوان كان قد فات، فقد سقط سعيد ناصر على الأرض، ودماء عليّ تلون ثيابه، أمّا عليّ فقد بقي في غيبوبة لأيّام خرج بعدها هادئًا تمامًا، لا يذكر الكثير عمّا حصل

في ذلك اليوم، ليس في ذلك اليوم فحسب، بل في أيّام كثيرة عاشها.

سعيد ناصر يعود إلى تذكّر أدقّ تفاصيل ذلك اليوم، ويجلس في المكان نفسه، بعد أن غادرت ليلى، وتأكّد من أنّ هذه المرأة الصغيرة التي يصير لها وجه طفلة وجسد امرأة، وبعد لحظات وجه امرأة وجسد طفلة، ما هي إلاّ أخت الرجل الذي سحقه بحذائه حتى فقد جزءًا من عقله.

كم مرّ على تلك الحادثة! زمن ليس بالطويل، لكنّه الزمن الذي لم تعرفه ليلى؛ فقد بقيت تلك الحادثة طيّ الكتمان، ولم يعرف بها سوى ثلاثة من العسكريّين في مكتب سعيد، وهم كانوا قادرين على إجادة الصمت الذي يعني أمانهم، وعليّ نسي حتى نفسه، ولن يعود إلى تذكّر الضرب المبرّح الذي تلقّاه على رأسه، إلاّ في زيارته الخاطفة إلى بيت ليلى، حيث عادت إليه ذكريات آلام مبرّحة في الرأس وأصوات حادّة، ووجه سعيد ناصر وهو يصرخ، لكنّه لم يتوصّل إلى معرفة ما حدث بدقّة. عرف فقط أنّ سعيد ناصر، ابن قريته، كان واحدًا من الذين مرّوا عليه في التحقيق.

سعيد أمام نافذته

أغلق سعيد ناصر الباب بإحكام، ثم استراح في عتمة غرفته، وشرّع نافذته على الفضاء. ولأوّل مرّة أحبّ الصمت، ولكنّه، لسبب خفي، قدّر أنّه لا يرغب بهذا العالم من حوله ساكتًا كالموت، ويريد التأكّد قبل أن يذهب إلى العاصمة، ممّا يريد أن يفعله؟ ويحاول التفكير بأسماء من سيتّصل بهم. وفكّر أنّ القصر الجمهوري وقيادة الجيش والأركان وكلّ مؤسّسة في البلد لا بدّ أن تكون مقلوبة رأسًا على عقب. وهو لم يعرف حينها أنّ الساعات الثلاث التي تلت موت الرئيس مباشرة، كانت من حدّد مصير البلاد لسنوات قادمة.

الآن هو وحيد، والرجل الذي نذر نفسه إخلاصًا لقوّته وجبروته يتركه ويمضي.

يبصق على الأرض ويفكّر في أنّ أيًّا من الذين كانوا يتحلّقون حوله كالذباب، لم يحاول الاطمئنان عليه طوال الفترة

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الماضية. ولم يكلّف الواحد منهم نفسه بالاتّصال به وإخباره أنّ السيّد الرئيس قد مات.

كان وحيدًا إلى الدرجة التي تجعله يفكّر بالتخفّف من عبء لم يشعر به قبلاً. لماذا أحسّ أنّه ضائع بعد موته؟ كان هادئًا لسنة كاملة، ويحاول استقراء ما سيحدث حوله، دون الرجوع إلى ماضيه. وأشدّ ما كان يخيفه العودة إلى تفاصيل حياته، ليس لأنّ فيها ما يعيبه، أو يجعله يشعر بالعار ممّا فعله؛ فقد مشى بثبات نحو فكرة تجعل منه قدّيسًا أمام نفسه، ورجلاً قويًّا أمام أبناء قريته ومن عرفه في العاصمة. لكنّ الأهمّ بالنسبة إليه، والذي حاول الحفاظ عليه، هو محبّة سيّده الرئيس. وعلى الدوام كان يبحث أثناء خدمته الطويلة عن الأفعال التي تجمّله أمامه. وعندما يسأل نفسه عن سبب هذا الانقلاب في الولاء له، يعرف، في أشدّ مناطق روحه عتمة، أنّه كان الخوف. لذلك كان يبحث عمّا يمكن أن يجعله رجل ثقة بالنسبة إليه. وعلى امتداد سنوات طويلة لم يحاول محاكمة نفسه. بعد ذلك النهار الذي فتح نافذته فيه، ورأى الجنود يحيطون بمنزله، تيقّن أن لا خيار له فيما فعله أو حتى ما سيفعله. كان بحاجة للقوّة التي بحث عنها، واكتشفها ووجدها في شخص سيّده الرئيس.

اللقاء الأوّل بالسيّد الرئيس كان بعد انقلابهم الأوّل. كان لقاء خاطفًا بين الرجلين العسكريّين، لكنّه كان ودّيًّا وحميمًا.

كلٌّ منهما كان يعرف الآخر عن بعد. سعيد يقدّر ذكاء الضابط الطيّار. والضابط الطيّار الذي سيصير رئيسًا يقدّر حكمته وإخلاصه. وبقي الودّ بعيدًا حتى اشتهر سعيد بحادثة الفتاة السمراء التي بدأت في اليوم الذي تمّ فيه تحويل مجموعة من المعتقلين في الحزب المعارض، إلى مكتب سعيد ناصر، وكانت بين المعتقلين، سهى منصور.

كانت سهى من بين عدّة نساء رفضن انقلاب الضبّاط عام ١٩٦٣، وتمّ القبض عليهنّ مع مجموعة من أفراد الأحزاب الأخرى. والتهمة الموجّهة لسهى كانت إيصال مناشير، والتحريض على الانقلاب ضدّهم. كان ذلك في يوم شتائي. يفكّر الآن سعيد وهو يذكر وجه الرئيس أمام نافذته المعلّقة، لماذا كلّ انقلابات حياته تحصل في الشتاء؟ يحبّ لسعات البرد التي تجعله يصدّق أنّه يعيش، وتحديدًا ذلك المساء عندما دخلت مكبّلة اليدين، شعرها منفلت على صدرها ووجهها بالكاد يبدو منه لون بشرتها الأسمر الخلاسي، من آثار الكدمات والدماء. وقفت أمامه وهو يرتشف أوّل رشفة من الشاي، وينظر من نافذة مكتبه إلى الأفق المتلبّد. دخل العسكري بها، وأدّى تحيّته وصاح: سهى منصور سيّدي.

استغرب سعيد أن تكون المرأة المطلوبة هي هذه البنت. ما بال النساء الجميلات يقحمن أنفسهنّ فيما يخرّب روعتهنّ؟ هذه

هي الحماقة بذاتها! نظر إليها، وقرّر أن يثير إعجابها، وصاح بالعسكري: من فعل هذا أيّها المجرمون؟

قال ذلك، وقام من وراء مكتبه وفكّ قيد يديها، وصاح مجدّدًا: خذوها لتنظّف وجهها يا سفلة.

ابتسم في وجهها، وهي شبه ذاهلة من وجه الرجل الوسيم الذي يصرخ بمجنّديه لأنّهم ضربوها. انتظرت مزيدًا من الإهانات التي تلقّتها منذ لحظة اعتقالها، لكنّها فوجئت بدماثة هذا الرجل ورقّته معها. خرجت، وعندما عادت بدت أكثر فتنة. وقفت أمامه بكبرياء. لم يلمح في عينيها نظرة خوف أو قلق. نظر في ملفّها ثانية. كانت في العشرين، تدرس الحقوق في الجامعة، ومن ناشطات الحزب، وتربطها صداقات قويّة مع الأحزاب الأخرى. أشار لها بالجلوس. جلست. وطلب من العسكري أن يأتي بكأس شاي حارّ، وشدّد على كلمة حارّ. كانت جامدة كتمثال. ولم يتمكّن، على الرّغم من خبرته في التحقيق، من معرفة حالتها: هل كانت خائفة أم واثقة من نفسها. كانت تختبئ تحت جلدها. حمل رزمة من الأوراق ووضعها أمامها: هل تفسّرين لي ما هذه؟ لا أعرف. قالت بحسم، ولم تلق حتى نظرة على الأوراق، كانت تشعر بالغثيان لوجودها بين هذا الكمّ الكبير من العسكريّين الذين يتفحّصونها بوقاحة، ويمرّون بأعينهم على تفاصيل جسدها، وابتسم. هل

أخبرك ما هذه؟ قال بهدوء مبالغ. لم تردّ. هذه أوراق تثبت خيانتك. بقيت صامتة. حدّق فيها وقام من مكانه، وبهدوء قال لها: هل تسمحين آنستي؟ يجب أن أسمع منك شيئًا، ثم انحنى أمامها وأمسك أطراف أصابعها برقّة وقبّلها. وعاد وراء مكتبه. انتظر بضع دقائق، لكنّها بقيت محافظة على صمتها.

استغرب العسكري، هدوء أعصاب الضابط أمام الشيطانة التي دوّختهم منذ سنة. نظر سعيد إلى العسكري الفضولي. قال له: بعد أن تنهي الآنسة كأس الشاي خذها.

قال ذلك وعاد إلى أوراقه. لم تصدر أيّ ردّة فعل. شربت الشاي بسرعة، وقامت وفتحت الباب وخرجت، وهي ترمق العسكري بحقد. ضحك سعيد، وطلب من العسكري أن يلحق بها ويعود إليه. عندما بقي وحده، تنهّد بعمق وصاح: الملعونة ما أحلاها. كان معجبًا بها. ليس إلى حدّ الفتنة، لكنّها كانت جميلة، قال لنفسه، وهو يفكّر أنّ الشياطين عرفوا كيف يستقطبون بنات العائلات البرجوازيّة الثريّة اللواتي يتمتّعن بثقة عالية بالنفس، وبتعليم عالٍ وذكاء حادّ. وهذا أمر طالما أزعجه؛ كيف يمكن لهم أن يحظوا بناشطات كهؤلاء. دخل العسكري ثانية، فصرخ سعيد:

ـ هل أنت غبي؟ ما الذي فعلته، من قام بضرب هذه البنت؟

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ـ لا أعرف سيّدي.

ـ من يعرف؟

ـ وصلت إلى الفرع ووجهها دامٍ، ومنكوشة الشعر، نحن لم نقم بإيذائها، كنت أنتظر أوامركم.

ـ أوامري! هل تعرف من هذه البنت؟ كم مرّة يجب أن أُعيد كلامي؟ نحن في حرب، وعلينا البقاء. علينا ألاّ نرعب الناس فقط، علينا أن نحبّبهم بأنفسنا. عندما ترون نساء كهذه، عاملوهنّ برقّة ولطف، لن ينقلبن علينا. هل تعرف يا حمار أنت وزملاؤك ما هي مهمّة رجل الأمن؟ ليس التخويف فقط يا حمار. قلت لك ألف مرّة إنّنا بحاجة للذكاء، ما رأيك لو قلت لك، إنّ هذه البنت ذات الرأس العنيد، يجب أن تصير في صفّنا؟

ينظر العسكري بخوف. وحقيقة هو لا يعنيه أن تكون في صفّه أو صفّ غيره، يعنيه أن ينتهي من صراخ هذا الضابط الذي يتابع دون توقّف:

ـ يجب عليكم أن تكونوا أكثر ذكاء. كيف سنحكم البلد بكم.. الغباء لا يحكم.

يصمت العسكري ويقف كصنم.

ـ عدْ بها بعدَ ساعة.. هيّا انصرف.

خرج العسكري وبقي سعيد يفكّر: كيف سيجعل من هذه البنت واحدة منهم. الأمر يتطلّب ذكاء وهدوءًا. يقول لنفسه ويرتاح.

بعد تلك الحادثة بسنة واحدة وعندما كان سعيد ورفاقه ما يزالون يثبّتون أنفسهم في الحكم، كانت سهى منصور واحدة من أهمّ ناشطاتهم، وكان لقاء الرئيس، الضابط الطيّار حينها، بمناسبة الحادثة التي تردّدت على كلّ لسان، وهي: كيف استطاع سعيد ناصر بعد أن أطلق سراح سهى منصور بساعات، أن يجعلها من صفّهم. لم يلزم الأمر الكثير، تطلّب الهدوء فقط، كما قال للرئيس خلال أحد الاجتماعات، وهو يسأله عن صحّة الخبر الذي يردّده رفاقه الضبّاط. يذكر أنّه ابتسم بتواضع، وقال:

ـ الأمن لا يعني القوّة فقط، الأمن يعني أن تجعل الناس يأمنونك ويؤمّنونك.

حينها ضحك الرئيس، وقال له: الحزب بحاجة لأمثالك من المخلصين الأذكياء. لقاء لم يتعدّ الدقائق، استمرّ بعد ذلك في عدّة مناسبات. كانت اللقاءات تستمرّ لدقائق أحيانًا، وبعد ذلك التقيا لساعات طويلة. وبعد انقلابهم الثاني تباعدت لقاءاتهما، ولم يعد سعيد يفهم ما يحدث حوله، كان مشغولاً بالسفر ودورات التدريب وأشياء كثيرة، كان وزير الدفاع حينها يقوم بتكليفه بها.

كان آمنًا ومأمون الجانب. وعلى الرّغم من إحساس مقيت ينتابه بين وقت وآخر، وعلى اتّساع تلك الفترات، بأنّه أشبه بدودة، فقد شعر بالطمأنينة، لأنّه كان وفيًّا لنفسه وأهله وناسه، وفعل ما بوسعه لمساعدة من حوله. لذلك وهو يفتح نافذته، ويعود بذكرياته إلى تلك الأيّام، كان يضع يده على قلبه واقفًا باستقامة، مشدودًا كوتر وهو يومئ برأسه، بحركة تشبه حركة رقّاص ساعة دقيق. ولسبب آخر ليس خفيًّا عليه، عندما هبّت نسمة فوّاحة فلقت صدره، ارتجف بدنه، وشمّ رائحة يعرفها!

لم يعرف أنّ ليلى الصاوي خرجت من السجن. وكان نسيها في انشغالاته. فقط في لياليه الحزينة كان يعود إلى رؤيتها، تظهر أمامه مثل شبح يلاحقه، ويعرف أنّ ظهور الشبح يأتي مترافقًا مع تلك الرائحة.

جديلتا الأخت ورائحة ليلى ترعبه، وتجعله يختبئ ويغلق نافذته، على الرّغم من الجوّ الحارّ.

عاد وجلس على أريكته بعد أن أغلق النافذة حتى لا تتسلّل الرائحة، فتحضر ليلى تمامًا كما كانت، عصفورة صغيرة بين يديه، تهوي على أرض مكتبه، وهي الصورة الوحيدة التي كان يستحضرها بها.

استغرب حضورها الآن في هذا الوقت. أغمض عينيه، وعاد قلبه للالتواء. كم عذّبته ليلى! لقد منعت حكاياتها عنه،

وهي تتغلغل في عالمه وتسلبه شجاعته وروحه، كما سيدرك لاحقًا، وكما سيعرف أنّ مقتل الرجل هو قلبه. لذلك ربّما فضّل أن يموت بعيدًا عن الحبّ الذي يلاحقه ولا يستطيع البراء منه. لقد أهانته كما لم يفعل أحد، حتى الغصّة التي اعتقد أنّها سيطرت على قلبه عندما خضع للإقامة الجبريّة، لم تكن بحجم إهانتها له. لقد أذلّته، وصفعته وطردته من عالمها. قام منتفضًا، وصار يقلّب في المحطّات التلفزيونيّة، ويخطّط لرحلة يوم غد إلى العاصمة.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

قميصا ليلى وسعيد في المدينة البيضاء

فُتحت النافذة، وهبّت الرائحة من جديد.

كان أغلقها بلطف، ولم يوصدها بشكل كامل. اعترته رجفة. تدفّقت الرائحة، إنّه يشعر بها، تتغلغل في مسامّه وتستفحل مثل مرض قاتل. يقف ثانية، ويمدُّ رأسه إلى الفضاء المطلق أمامه، ويلمح طيران الثوب الكحلي والجديلتين، ثم تتهادى أمامه ليلى مثل سفينة وادعة، تنظر إليه بعينين رقراقتين، وتمدُّ يدها إليه.

يصرخ: عليكِ اللعنة. يغلق نافذته، ثم يخرج من غرفته صائحًا: يا أولاد..

يركض حارسه إليه، ويرى وجه معلّمه المصفرّ، وعينيه المتورّمتين، فيعرف أنّه في إحدى نوبات هذيانه. ينتظر أوامره، ويسمع صوت تنفّسه. يقول لحارسه: ادخلْ وأقفلْ النافذة جيّدًا.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ينظر الحارس باستغراب، ويغلق النافذة. يبقى سعيد ناصر يلتفت إليه بخوف ليتأكّد من إحكام الإغلاق. وعندما يخرج حارسه يأمره بالانتظار، فيدخل ثانية، ويعود للوقوف أمام باب الغرفة لدقائق، ويمطُّ رأسه إلى الداخل، يعاين النافذة، ثم يخطو خطوة واحدة إلى الأمام، ويعبّ نفسًا عميقًا، فترتخي عضلات وجهه، ويدخل بتردّد، ولا يغلق الباب. يتركه ثم يشير لحارسه بالانصراف. كان خائفًا من عودة ذكريات الحكايات إليه.

تلك الحكايات كانت قد جعلته يغيّر رأيه، ويفكّر لأوّل مرّة في حياته بالاقتراب من امرأة إلى هذا الحدّ. فبعد الليلة التي غيّرت حياته، وجعلت قلبه مبلّلاً كإسفنجة، حلم أنّه يحمل ثلاثة رؤوس فوق جسده، ويهيم على وجهه حتى يصل حافّة يعرفها. يطير من الحافّة ويسقط رأس واحد والرأسان الآخران يطيران في الفضاء، أمّا جسده فيختفي. أفاق وجلده يحرقه، فاتّصل بليلى مباشرة. كان الفجر لم يطلع بعد، وذكريات الأخ السجين تعذّبه، ولم تمض ساعات على ليلته الأولى معها. وعلى الرّغم من أنّها كانت تنام بعمق، عندما سمعت صوته رجته أن يأتيها حالاً، وهو لم يفكّر بعد أن أغلق السمّاعة، ما الذي يفعله! كان يمشي، وكأنّه يعرف طريقه منذ زمن بعيد. لم يستحمّ كالعادة، ذهب برائحة حلمه وصور الرؤوس الطائرة، وعندما صار أمام بيتها وفتحت له الباب، كانت تقف مثل زوجة تفتح الباب لزوجها العجوز.

جلست على أريكتها، وهو يحدّق بكمّيّة المرايا وحجومها الموزّعة على الجدران في كلّ الأماكن. فتحت عينيها بإعياء وضحكت، ثم خرجت من فمها جملة، همستها بتأتأة: هل استحممت حبيبي؟ نظرت إليه تلك النظرة التي عرفها فيها، أو هكذا خُيّل إليه أنّه يعرفها. صمت، وكانت ليلى احتفظت ببقع الحبّ على جسدها، وهي تتنشّقها بين لحظة وأخرى. مدّت يدها إليه فانساق، وقبل أن يصل إلى الأريكة قربها، كانت ركبتاه قد خذلتاه، وهوى إلى جانبها، وصار رأسه أمام ركبتيها. كان يريد أن يقوم من مكانه، ويبصق على كلّ مراياها الموزّعة في البيت، والتي تجعله يرى صوره الكثيرة، ويتذكّر حلم الرؤوس الطائرة. أغمض عينيه، وحشر رأسه العريض في حضنها، وهمهم: خذيني إلى السرير، أريد أن أنام.

قامت من مكانها وأمسكت بيده. كان شبه نائم، بالكاد يفتح عينيه. أرعبته رؤية غرفة النوم؛ فالبياض فيها ولون المرايا جعلاها تبدو أشبه بتابوت، ولولا لون فستان ليلى الأزرق، لشعر أنّه يعوم في فراغ، وكلّ ما حوله وهم. مسّدت الفراش، ثم ساعدته على التمدّد. كانت تقف إلى جانبه تحدّق مدهوشة بوجوده فوق ملاءاتها المحبّبة. كان خائفًا من سقف الغرفة الذي جعله يرى نفسه، فشعر أنّه يقع في بئر عميقة، ويرى صورته التي تبتعد في قعر مياه صافية. جلست إلى جانبه، ولوهلة شعر بالذنب لما فعله بأخيها، وأراد البكاء عندما صارت تمسّد

أصابعه بنعومة. كان ذلك الشعور طفيفًا استمرّ لثوان، لأنّه استعاد رباطة جأشه، وأيقن أنّ في هذه المرأة ما يسحره. لا أفهم ما يحدث بيننا، قال. ابتسمت ليلى بخبث، وتمدّدت إلى جانبه، وجعلته ينزلق بنعومة حتى يصل رأسه صدرها، ثم ضمّته بقوّة، وقالت: لا غرابة في الأمر، أنت حبيبي منذ أجيال. تنهّد، وشعر أنّ المرأة التي تحضنه، ولا يجرؤ على التحرّك أمامها، ربّما تكون ممسوسة، أو أنّ سحرًا يُعمل له، وهو لم يؤمن بالسحر.

ـ هل ستنام؟ أستطيع أن أحكي لك حكاية.

ـ أيّ حكاية؟ سأل باستغراب. مسّدت بأصابعها الرقيقة جبينه، ثم مسّته بشفتيها وهمست:

ـ حكايتنا!

تنهّد، وأرخى رأسه ثانية. عيناه تحرقانه، وجسده المحمول على مائها ما يزال يؤلمه. هذه أوّل مرّة يضاجع فيها امرأة تسبّب له هذا الوجع في مفاصل عظامه، حتى بات يشعر أنّه مريض.

كرّرت السؤال: ألا تريد أن تسمع حكايتنا، الحكاية التي عشناها، وتعود الآن؟

ضحك وهزّها من كتفيها بعنف:

ـ قولي يا ستّ الحسن ما الحكاية، هل سحرتني مثلاً؟

ـ كنت أكرهك حتى الموت قبل الليلة. قالت وجمدت عيناها.

جفّت عروقه، وهو يسمعها. من يجرؤ على كراهيته علانيّة؟ صمت، وقرّر الإصغاء لهذه المرأة المجنونة.

ـ كان هذا قبل أن ألتقيك. نظرت إليه بوجل، ثم تابعت وصار صوتها يرتجف: ولكنّي عندما لمحتك، عرفت أنّ عينيك أوّل عينين رأيتهما في أحلامي عندما كنت في الرابعة من عمري.

عادت الحكايات تنطق بلسانها، ونسيت أنّها ممدّدة قربه على الفراش. لقد عادت إلى البنت التي تقف فوق المصطبة تحكي لجدّها حكايات عن حيوات عاشتها من قبل؛ حكايات بلا بداية ولا نهاية. نهض مفزوعًا:

ـ أنت مجنونة؟

مسّته بهدوء من كتفيه، والتفّت عليه من وراء ظهره، وأعادت تمديده كطفل، وهمست:

ـ ربّما، ولكن عليك أن تسمعني، ثم تنام بعد ذلك.

صمت، وتلهّف ليسمع ما تقوله، ولم يستطع تخمين الحكاية. كان مدهوشًا، وتمنّى أن يغفو. هذا ما أراده. لكن ما إن بدأت الحكي حتى استيقظ وقام عن صدرها، انفرد على

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الفراش، واتّكأ بيده على المخدّة، وصار فوقها تمامًا، يرى عينيها السابحيتن بعيدًا، تترقرقان بالماء حتى تفيضا، ويسمع أنفاسها وتنهّداتها مع مجريات الحكاية. ونسي كلّ شيء، ولم يستفق إلاّ على يديها الناعمتين، تطلبان منه الاستيقاظ لأنّ الجوع نخر قلبها كما قالت له، وعندما استفاق فقط، تذكّر الحكاية التي ستجعله يوقن أنّ روحه تخرج عن سيطرته. قالت له:

ـ كانت ليلة مشؤومة. تغيّرت الدنيا من بعدها. التاريخ يقول في القرن السادس عشر، . . هل تعرف. . عندما بدأت أتكلّم عن حياتي السابقة، بدؤوا يبصقون في فمي حتى أنساها. يبدو أنّهم بصقوا في فمك فنسيت. لم أنسها، نسيت الكثير من التفاصيل، لكنّي كنت بدأت أكتبها منذ الطفولة، وأحرقتها عند موت جدّي.

عندما سمعها سعيد ناصر تتحدّث عن جدّها، انتفض، كأنّ سكّينًا اخترقت قلبه. فالرجل العجوز أتى بيته يومًا، وسبّه وشتمه علانيّة، ودعا عليه وعلى ذرّيّته بالفناء، لأنّها جلبت العار للطائفة. هذا الكلام لم يسمعه قبلاً من مخلوق حيّ، فقد اعتقد أنّ قريته فخورة به. وعندما اجتمع الحرّاس من حول العجوز وهو يسبّه، وكان حينها ما يزال في بداية سطوته وجبروته، طلب منهم الابتعاد عن الجدّ الذي بالكاد كان يستطيع المشي، ويحتاج لعصا تسند وقفته الدائمة. وأحد الحرّاس الذين كانوا

من أبناء القرية، كان يمسك بيده خائفًا، ليس فقط تبجيلاً له، فقد عُرف عن الشيخ زهده وعلمه وورعه، ورفضه أن يُقام له مزار عند موته. طلب أن يُدفن في إحدى الهضاب المطلّة على القرية؛ هضبة جرداء لا نبات فيها ولا زرع، وأن توضع فوق قبره شاهدة من حجر الضيعة نفسه، ويكتب اسمه واسم أبيه عليها فقط، دون أيّة ألقاب. وكان معروفًا بين أبناء قرى الساحل، أنّه أرسل ابنته الوحيدة في بداية الخمسينيّات إلى بيروت لتدرس. وعندما تزوّجت من رجل مسيحي هناك، وخافت العودة، أرسل في طلبها واستقبلها وأقام لها عرسًا في بيته الطيني. وعندما قام بتوزيع قسم من أرضه على الفلّاحين، خاف إخوته، وحاولوا ثنيه عن قراراته الهوجاء، لكنّه لم يستجب، وأعطى لولديه مثل ما أعطاه للفلّاحين، وكان جدّ سعيد ناصر رغم مهابته في القرية يخافه، ويتجاهله ويصفه بالمجنون. لكنّه على فراش الموت، كان الرجل الوحيد الذي طلب حضوره هو الشيخ عليّ الصاوي، وقد رآه ليلتها سعيد ناصر، رآه وخاف منه؛ فقد كان يسير وعيناه إلى الأرض، وكأنّه يريد الاختفاء فيها، وكان ظهره مقوّسًا، وعصاه الغليظة تطرق أمامه. دخل إلى حجرة جدّه، وخرج بعد ساعة صامتًا وعابسًا، يهزّ رأسه يمينًا وشمالاً، وأعلن موت شيخ القرية الذي سُيبنى له مزار فوق الهضبة.

لذلك عندما ذكرت ليلى اسم الجدّ، مسّه ذلك الخيط

الحارق بالتواء، وسرعان ما بدّده كلامها:

ـ أذكرُ القبّة تحت عينين محدّقتين إلى جثّتي.. كانت عيناك هناك، هل تذكر؟ عيناك أمامي وعلى الجهة الأخرى كنتُ أمامك. لم أعرف منك إلاّ عينيك، وأنت لم تعرف سوى عينيّ. روائح الدم تختلط بروائح اللحم المحترق، والأجساد المقطّعة تحت قبّة. قبّة كبيرة للجامع. ألم تكن كذلك؟ كنّا أكوامًا من اللحم البشري. ذلك اليوم الفاصل دخلت روحانا في أجساد جديدة وضيّعتُك بعدها. من بقي منّا؟ لا أعرف؟ أعمامك وأخوالك؟ أعمامي وأخوالي؟ كنت ابن عمّي وأنا زوجتك، قبل أن نهاجر من حلب إلى البحر والجبل. كنّا بالمئات.. بالعشرات، لا أذكر. حُرمنا من دخول المساجد والجوامع مع أنّي أذكر، كما أرى عينيك الحبيبتين الآن، أنّنا جُمعنا معًا في جامع. الجنود يحشروننا. وقد أُدخلنا أحد الجوامع في مدينة حلب وقُتلنا. أذكر رائحة القتل. أسمع الصراخ، وصياح الأطفال والنساء وكلمات الله، والموت والأنين. أستطيع تذكّر كلّ شيء وكأنّه منام قريب الحدوث. أذكر لون النهر الذي صار بلون الدم. نهر كامل من الدم يجري والجثث تطفو فوقه، جثث تُرمى، وأخرى تظهر أمامنا فجأة. أطفال ونساء ورجال وشيوخ مقطوعو الأذرع أو الرؤوس، وأحشاؤهم تخرج من بطونهم. كان لون النهر أحمر، وبقي كذلك أيّامًا.

كان سعيد يحدّق مفزوعًا في المرأة التي تحوّلت إلى جنّيّة في لحظة، وصار جسدها يتوهّج، وشعر أنّه يطفو فوق السرير، وقد امتلأت مخدّتها بدمعها، وهي تمسك بأصابعه وتعصرها بقوّة. كان يفكّر كيف لامرأة ضئيلة بهذا الحجم أن تعصر كفّه حتى الوجع. ورغم ألمه لم يحاول التملّص منها. كان مبهورًا وهو يسمع عن حياتها في جيلها. أيّ جيل منهم؟ لا يعرف. إنّها تذكر إحدى الحيوات القديمة، وتؤكّد وجوده في حياتها. شعر بضيق من حديثها التعيس، ورغب بسحب أصابعه من كفّها الصغيرة، لكنّه لم يفلح، كأنّ باب مغارة أطبق عليها. صمتت قليلاً، وشعرت بنحنحته. قرّبته من وجهها أكثر. صوتها يشبه الفحيح:

ـ بعد ذلك اليوم، بعنا أرضنا بأبخس الأثمان لنأمن حياتنا وبطش السلطان سليم الأوّل. هل تعرف؟ لم تبدأ الحادثة فقط عندما دخل الجنود وسلطانهم. كانت حروبهم قبل ذلك، لكنّ السنة المشؤومة تلك هي من قادنا أنت وأنا إلى مذبحة الجامع، نهرب من الجنود من مكان إلى آخر. وأمّا إذا امتنعنا عن أداء الضرائب فكانوا يقتلوننا، بعد أن نتعارك معهم. يموت الكثير منّا، ويُرمى الباقي في السجون ليموتوا داخل السجن بردًا وعطشًا وجوعًا. وهناك في الكهوف والمغاور، ومثل الوحوش الهائمة عشنا، نلبس العراء صيفًا وشتاءً ونموت مشرّدين بلا مأوى ولا طعام.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تنهّدت ليلى عندما توقّفت عن الكلام، وبدا أنّها تستعيد نفسها، لأنّها في تلك اللحظة بالذات، عندما قرّرت الحديث عن يوم فراقهما في المذبحة، شعرت أنّها تستعيد لحظات صفائها أمام جدّها عندما كانت تمثّل دور الفتى الأسود «كونتا كينتي». وتلفّتت حولها في السرير، وأغمضت عينيها متجاهلة وجود سعيد. قرّرت أنّها في صالة عرض مسرحي، وكلّ ما عليها فعله أن تبدأ حديثها. لم تكن تفصل حياتها في التمثيل عن الواقع، لذلك كانت تحوّل لحظاتها إلى خشبات مسرح متنقّلة دائمًا. وأرادت أن تتحدّث بتلك اللغة التراجيديّة، لكنّ الوقت لم يمهلها لممارسة هوايتها المفضّلة في الحياة، فحوّلت السرير الى منصّة:

ـ كانت حلب مدينة بيضاء، هل تذكر بيوتها الجميلة الأنيقة وأسواقها الصغيرة، وعيون الناس فيها، واختلاط روائح البشر بروائح الأعشاب والزيوت، أتذكر؟ كنّا نجوب المدينة نمرح.

كانت تسأله وعيناه مفتوحتان بدهشة، فتتابع:

ـ بيتنا مكوّن من ثلاث غرف وفناء فسيح. لون حجارته من لون التراب.. لنا ثلاث بنات قُتلن أمامنا، لم يُقتلن في الجامع.. أنت تسير أمامي.. نطرق بأرجلنا. هربنا بثيابنا التي نرتديها. بعضنا كان حافيًا، أنا كنت أرتدي أجمل ما عندي، وكنت أنت! أنت حبيبي.. حافيًا مشعّث الشعر تنظر بذهول حولك، تحاول البحث عنّي وسط البشر. فجأة تبلبل الحشد

وثار الناس، وقطّعوا قيودهم وقاوموا الدرك بالعصيّ والحجارة، حتى بأسنانهم. الجنود كانوا يصطادونهم مثل العصافير، ويذبحونهم ويجرّون النساء من شعورهنّ، ويركلون الرجال. وجدنا أنفسنا أمام الجامع في السوق ودخلناه، واعتقدنا أنّنا صرنا بأمان.. عيناك تحدّقان بي. أرى عينيك كما رأيتهما من يومين في السهرة تنتزعان قلبي. عينان حبيبتان قادمتان من زمن بعيد. أذكرهما بدقّة، كنّا مختبئين بين البشر الذين اعتقدوا أنّهم صاروا بأمان عندما دخلوا بيت الله. النساء خبّأن أطفالهنّ تحت ثيابهنّ، والرجال يحيطون بالنساء، أنت قمت من جانبي وهمست لي: ابقي هناك. رجوتك حينها ألاّ تتركني، لكنّك لم تصغِ، لماذا لم تصغِ لي؟

ونظرت ليلى الصاوي إلى سعيد ناصر بعتاب عميق، وكأنّها على وشك صفعه على وجهه، فارتجف، وأراد البكاء من هول ما حكته. قرّر أن يغادر فراشها وألاّ يعود إليها مرّة أخرى، لكنّه لم يستطع أن يفعل، كانت أصابعها تضغط كفّه، وعيناها تعاتبانه بقسوة:

ـ لا أعرف كيف بدأ الصراخ؟ شعرت بتدفّق دم حارّ على أنحاء جسدي، والنساء يهربن مذعورات. كنّا مثل فئران يتصيّدوننا واحدة واحدة، وأخذوا العديدات منّا. كانوا يغتصبونهنّ في الخارج. أحد الجنود جرّني من شعري وسحبني

إلى الخارج، ومزّق ثيابي. لمحتك تحمل السكّين، وأشرتُ إليكَ، أن: افعلْ. ألمح عينيك ترميان السكّين نحو قلبي قبل أن يبدأ الجنّدي بنزع آخر ما تبقّى من ثيابي عنّي. ألمح يدك البيضاء، تنظر إلى قلبي ولحمي العاري.. أحاول لملمة عريي، أنت تقترب. الجموع الهائجة من حولك تتقافز. موتى يتكاثرون من حولنا ويتحوّلون إلى تلّة.. صراخ نساء وعويل أطفال، وأعضاء بشريّة مقطّعة بين أقدامنا، كنتَ أنتَ هناك.. لستَ بعيدًا عنّي، تقترب من الرجل، وأنا أومي لك بعينيَّ أنْ: إطعنْ قلبي. كنتَ مطعونًا بالسكّين، لم تحمل سكّينًا عندما قاموا بإحراق منزلنا وبناتنا! لم تكن تحمل سكّينًا. أنا واثقة، نزعتَ سكّينك من صدرك، ومشيتَ بتثاقل وسقطت بين وقفة وأخرى، وأنا أعضُّ الجندي ليفلتني. كنت قربك، لمحتُ الموت.. صرختُ فيك لترمي قلبي بسكّينك. كنت أصرخ عندما شعرت بها. في البداية كانت باردة مثل سمّ، بعد ذلك تحوّلت إلى حريق. الجندي ينظر إليك بذهول ويبتعد عنّي ويبحث عن امرأة. سقطتُ ثم تهاويتُ. أنت سقطتَ على جثّة رجل عجوز، فجلستْ جثّتك أمامي، كنت تبدو جالسًا، وعيناك مفتوحتان تحدّقان بي بقسوة وشغف، وأنا سقطت أرضًا.. ممدّدةً، على جانبي أحاول ألاّ أغمض عينيّ، شعرت بنعاس ثقيل، بقيت عيناك مفتوحتين، وسمعتُ قلبي يتوقّف، ونظرتُ إليك طويلاً قبل أن أدخل في الموت.

صمتت ليلى. أفلتت كفّ سعيد، وانسالت دموعها على جانبي وجهها، مثل مجرى سيل ناعم في أصيص نباتي صغير، عندما تنزلق فوقه رشّات مياه. أرخى سعيد رأسه على المخدّة، وشعر دبَّ نمال في قلبه. وعلى الرّغم من قراره بالهروب، إلاّ أنّه غفا، ثم استيقظ قبل طلوع الفجر، وترك على ملاءات عشيقته الصغيرة المزيد من بقع الحبّ. كانت بقعًا بيضاء صافية، بلا أيّ أثر لحديث الليل الفائت.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

قميص ليلى في الطريق من المدينة البيضاء إلى الجبل

القافلة المكوّنة من رتل غير منتظم تسير في عجلة شديدة، لا تتهادى كالصورة المألوفة لمسيرة مجموعات كبيرة من البشر. رؤوس تحتشد بعضها جانب البعض الآخر. أياد صغيرة لأطفال يمسكون بأثواب الأمّهات المتهدّلة، يحيط بهم رجال منهكو الأجساد بوجوه معفّرة كالحة، وقد اصطبغت لحى الكثير منهم بلون دم قان؛ اللون نفسه الذي توزّع بقعًا متفاوتة الحجم على أثواب النساء ووجوه الأطفال. بعض المتاع القليل تكوّم في الأحضان على شكل صرر قماش، وبضعة جمال وأحصنة استطاعوا الفرار بها محمّلة بالكتب والسجّاد والأغطية. كانت تلك العائلات التي هربت بأرواحها من المذبحة، تاركة وراءها البيوت والأراضي والمحلّات التجاريّة، وهامت بعيدًا عن أعين جنود السلطان سليم، ولم تجد الوقت الكافي لتفكّر فيما ستفعله. كلّ من استطاع الاجتماع قرب الجامع الذي قُتل فيه الألوف وذُبحوا، هربوا خارج حدود المدينة. وعندما التقت فلول

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الهاربين بدأت مسيرتهم. عيونهم فزعة على الفراغ. عيون بحدقات مفتوحة وواسعة، لا تحمل أيّ تعبير. شعورهم منكوشة، وحلوقهم جافّة، وعلى شفاههم نبتت خلال نهار واحد، قشور يابسة، بدت مثل زبد يتطاير في الهواء. النساء والأطفال كانوا أقلّ عريًا من الرجال. فالرجال خلعوا ما عليهم من أثواب وألبسوها للأطفال، ونعالهم أعطوها للنساء الحافيات. كانوا يصيحون طول الوقت بالإسراع. يطلبون منهم عدم الالتفات إلى الوراء، لأنّ ذلك كفيل بإعاقة تقدّمهم. مع ذلك كانوا مدركين أنّ الجنود قد يظهرون في أيّة لحظة، ويذبحونهم كما فعلوا بجيرانهم وأقربائهم. كانوا حوالى ألف إنسان يتجاوزون السهول المحيطة بالمدينة البيضاء في أوّل الشتاء. حلّ الليل على المسيرة، والبرد يلسع أجسادهم المنهكة بالتعب وحراب الجنود. توقّفوا. أحد الرجال، الذي يقود قسمًا منهم يقف وسط القافلة، يطلب منهم التوقّف للراحة بضع ساعات، يواصلون بعدها السير قبل طلوع الفجر. سمع صراخًا حادًّا. صراخًا لا يشبه صوت الموت الذي اعتاده. قال الرجل بصوت واضح وحاسم: استغنينا عن النار حتى لا ننكشف، وغير مسموح بالألم، فمن يصرخ؟

لكنّ أحدًا لم يردّ. تتالت الصرخات، فاخترق الرجل الجموع، واتّجه نحو صوت الصراخ. يتفرّق الجمع أمامه ثم يتهاوون جالسين. كانوا بحاجة أن تمسّ أجسادهم الأرض،

ليحظوا بغفوة قصيرة، قبل متابعة المشي فجرًا. لذلك أفسحوا له الطريق وتهاووا. عدّة نساء تحلّقن حول امرأة في أواسط العشرينيّات تسبح في عرقها. تصرخ، حبلى جاءها المخاض. كان البرد قد اشتدّ ولا بدّ من إيجاد غطاء لها. نظر إلى النسوة اللواتي تحلّقن حولها بفزع وعاجلها بنظرة محرجة وسريعة. كان شعرها مسترسلاً ويغطّي جسدها. عيناها وتفاصيلها الأخرى غابت في العتمة. ركض إلى أحد الجِمال، وحمل سجّادة صغيرة غطّاها بها، بعد أن سمع صوت اصطكاك أسنانها، وطلب من النساء صنع دوائر حول المرأة بأجسادهنّ، ثم أشار للرجال بصنع دائرة أكبر. وهكذا حتى تجمّعت حول المرأة عدّة دوائر، ثم اخترق هذه الدوائر، وأشعل نارًا صغيرة بالقرب من جسد المرأة. صاح: أين زوجها؟

فلم يتلقَّ الردّ. صاح ثانية: هل هي وحدها؟

خرجت امرأة من جموع الدوائر وقالت: كانت تمشي وحدها وتصرخ. التقيتها خارجة من باحة الجامع تصيح بأنّهم قتلوا زوجها وولديها، اختبأت معها تحت مصطبة حتى مرّ الجنود، وأمسكتها بيدها، لا بدّ أنّها فقدت عقلها. ألم تخبرك من هي؟ قال الرجل بغضب، ونظر إلى الأفق البعيد. لم تخبرني، تنزف من فخذها.. وما تزال. قالت المرأة بحياديّة وذهول.

تنهّد الرجل ونظر إلى الأكوام البشريّة المتحلّقة بعيدًا عن الدوائر التي صنعها. وقفت امرأة من بعيد وقالت: ستموت إن بقيت هنا. إنّها تلد. قالت أخرى، وأمسكت برأس ولدها الذي لا يتجاوز خمسة أعوام.

تعالت صرخات المرأة من جديد، فمزّقت إحدى النسوة كمّ ثوبها ولفّته ووضعته بين أسنانها، كانت النار تبدو حتى من خلال جموع الدوائر، سأل الرجل: هل تستمرّ طويلاً؟ العلم عند الله. أجابت عدّة نساء في وقت واحد، فخرج الرجل من دائرتهنّ، والتحق بجموع الجالسين، وهو يفكّر في إطفاء النار سريعًا، لأنّ الجنود سيلحقون بهم، وستدلّهم النار في هذه الظلمة. وقف وصاح: سننطلق بعد ساعتين، وكذلك فعل الرجال الآخرون الذين كانوا يقومون بمهمّته. سأل الرجل تهيئة مطرح للمرأة التي تلد، ثم خلع عباءته، وفردها على الأرض، خلع قميصه ووضعه فوق العباءة، وقال: سيتناوب على حملها أربعة رجال، كلّ واحد منّا يمسك بطرف العباءة.

صمت الرجال وهزّوا رؤوسهم. كانوا عطاشًا، وقد رأى الرجل في عيونهم الفارغة وسط الظلام، الموت رقراقًا غير هيّاب.

تحوّلت صرخات المرأة إلى أنّات، وخفق قلب الرجل. شيء ما تسرّب إلى قلبه الموجوع. كانت الأنّات تضعف، وعدّة

صرخات تتعالى هنا وهناك، ويُسمع صوت بكاء وإعلان موت. لكنّه هنا سيبقى واقفًا مع مجموعته التي يرعاها. الموتى في مقدّمة الرتل وآخره من مسؤوليّة رجال آخرين. حتى الآن مجموعته صامدة؛ الجرحى يئنّون، والمرأة الجريحة تلد. حلّ صمت لثوان، ولم يُسمع وسط الليل والسهول، سوى نباح الكلاب وأنين البكاء على الموتى الذي اختلط بأنين الجريحة الولود.

توقّفت المرأة عن الأنين، فهبّ من مكانه، وفرّق الدوائر، وأطفأ النار، وأبقى على عود صغير مشتعل، وقال للنسوة: هل ولدت؟ ولدت بنتًا. قالت امرأة. لكنّها ماتت. أضافت أخرى، وهي تقوم بلفّ الطفلة ومسح جسدها على ضوء العود المشتعل. كان جسمها أزرق، فقال الرجل لنفسه إنّها ميتة، لكن صراخ الطفلة تعالى فجأة، وخرق صوت الأنين ضحكات النسوة اللواتي نسين الأمّ الميّتة، وهنّ ينظّفن الطفلة. امرأة مسنّة، غطّت الأمّ الميّتة، وقالت بصوت جافّ: احفروا لها قبرًا، يجب أن نرحل فورًا. كانت هي الأخرى تشعر أنّ الأرض تهتزّ تحت قدميها، وقلبها يرتجف مثل الرجل.

قالت للنساء بصوت آمر: لا بدّ أن نمشي بسرعة وقال الرجل: عجّلوا. نهض الرجال ولفّوا موتاهم بأثوابهم البالية، وتناولوا ما استطاعوا حمله من أدوات خشبيّة وحديديّة، وحفروا حفرة كبيرة، ألقوا فيها بجثث الموتى، وأهالوا التراب فوقها.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

في تلك الأثناء، وقبل أن تصرخ المولودة صرختها، وتضحك النساء لصراخها، وينسين الأمّ الميّتة، كانت امرأة تعيش في الزمن، ما تزال واقفة في الجامع أمام زوجها، تنظر إلى عينيه وهي تراقب بشوق السكّين التي صوّبها نحو صدرها. جندي ذو شعر أحمر يقوم بتعريتها، وقد أنزل بنطاله إلى وسطه، وهو يعرّيها، تومئ بعينيها للزوج أن يسدّد الضربة قبل أن يتعرّى نصفها السفلي. نظرت إلى زوجها قبل أن تتهاوى ممسكة بنصل السكّين، وابتسامة خفيفة تعلو وجهها. في تلك اللحظة تمامًا صرخت المولودة في قافلة التيه.

إذًا، في تلك اللحظات، والمولودة تبكي والأموات يُوارَون التراب، كان الرجل ينظر بأسى إلى جسد المولودة التي بقيت وحيدة بعد موت أمّها. طلب من مرضعة الاعتناء بها، والبقاء إلى جانبه ليتسنّى له متابعتها. شعر بدفق روحه يتصاعد وهو يراقب الظلام من بعيد، ويطلب من الجميع إطفاء النيران، لكنّه لم يكد يكمل صيحته، حتى سُمعت ضجّة قادمة من أفق بعيد. لقد عرفها وارتجف قلبه، وعرفتها المرأة العجوز؛ إنّها خيول الجنود الذين يلاحقونهم. تركوا موتاهم وركضوا بسرعة. كانت المرأة تحمل رضيعتها والمولودة اليتيمة، واثنين من أولادها، عندما سقطت الطفلة المولودة على الأرض، ولم تجد الوقت الكافي وسط ضجّة الهياج الذي أصاب الجميع، وبكاء الأطفال، لتنتبه أنّ طفلاً ما وقع من حضنها. كان الجميع

يركضون خائفين هربًا من الجنود الذين صاروا على مقربة منهم. تركوا جمالهم وأحصنتهم، وأشياءهم وهربوا بأطفالهم، يتصادمون وسط الظلام، وأحيانًا يدورون حول أنفسهم كضائعين أدركهم العمى مبكرًا، ويعودون إلى النقطة نفسها التي هربوا منها. فالقمر لم يكن بدرًا ليضيء لهم الخطى، وأصوات الجنود ووقع حوافر أحصنتهم تصل مسامعهم، ولا بدّ من الفرار. الرجل الذي يحمي وسط القافلة، حمل المولودة، ولفّها بسجّادة الأمّ الميّتة، ثم ركض هاربًا باتّجاه نجمة يعرف كيف تدلّه إلى درب بعيد. يصيح ليتبعوه. كانوا بالعشرات حوله، أمّا الباقي فقد اختفى كلّ منهم في مكان. ركض بسرعة. وضع الطفلة قرب قلبه، ودفّأها بحرارة يديه. كانت تبكي فتدلّ الجنود على مكانه. صرخت امرأة: اتركها على الأرض. وصرخ رجل: ستقتلنا هذه الملعونة كما قتلت أمّها. لكنّ الرجل رفض، وهرب بها وحيدًا بعيدًا عن مسار جماعته قائلاً: اتبعوا النجمة.

كان يركض بسرعة. الريح أفلتت عمامته. صدره عار أمام ليل الصحراء. يتناثر الغبار حول قدميه الحافيتين. خفت بكاء المولودة، ومع ذلك سمع صوت اصطكاك السيوف ببعضها، وصراخ النساء وزعيق الأطفال وصهيل الأحصنة. كان الجنود قد وصلوا إلى إحدى الجماعات. وداسوا الأطفال بحوافر الخيل، وحملوا النساء في أسرجة الأحصنة، وقتلوا الرجال. كانوا يأخذون النساء بعد أن يحظى كلّ واحد منهم بواحدة،

ويرميها أرضًا، ويغتصبها، ثم يذبحها. لكن نساء كثيرات كنّ يحملن السكاكين، ويقتلن أنفسهنّ قبل أن يحصل الجنود عليهنّ: كثيرات فعلن ذلك، ومنهنّ من قمن بطعن بعض الجنود بين أفخاذهم، وأُخريات استطعن الهرب في الليل، ليضِعْنَ في الصحراء نهارًا. كان الرجل الذي حمل المولودة قد عاد إلى جماعته من جديد، والطفلة هادئة، بعد أن وضعها داخل صدره، ولفّ نفسه بالسجّادة الصغيرة من وسطه، فصنع مهدًا صغيرًا لها، ثم أخفى أطرافها تحت إبطيه، ولملم ما تبقّى من القتلى، قبل أن يعود الجنود مرّة أخرى للكرّ عليهم. كانوا الجماعة الأخيرة الناجية، ولم يُسمع صوت من الرتل الطويل الذي هرب به من المدينة وبقي منه العشرات. طلب من جماعته حمل السكاكين، وشحذ ثلاثة سيوف وأعطاها لرجلين وامرأة. الجنود الذي ظهروا أمامهم كانوا أكثر من عشرين. صرخ الرجل: هاجموهم. قام الرجال عن الأرض بعد أن انحنوا وانتظروا حتى صار الجنود بينهم وهاجموهم. كانت النساء تقاتل مع الرجال، إحداهنّ استطاعت الإمساك بجندي من قدمه، وسحلته على الأرض وطعنته عدّة مرّات، قبل أن يتمكّن من شدّ شعر رفيقتها وسحبها عن صهوة الفرس. قتلته، وصرخت كحيوان، ثم بدأت تشمّ رائحة الدماء فوق الأرض، وعفّرت وجهها بالتراب وصرخت بالنساء ليهربن. هربت النساء وبقيت وحدها. اجتمع قربها ثلاثة جنود، وكانوا يدورون حولها

بأحصنتهم، يحملون مشاعلهم، يرمونها بالنيران التي اشتعلت في ثيابها. صارت تصرخ، ولكنّها، وقبل أن تهوي إلى الأرض، استطاعت طعن أحد أحصنتهم، وجرّ أحدهم إلى الأرض والارتماء فوقه، فاحترق. وعندما حاول جندي آخر إنقاذ رفيقه، طعنته بالسكّين الحامية التي كانت تحملها وتخفيها جانب سروالها الداخلي، ثم تهاوت ميّتة فوقه، وألسنة اللهب تتعالى من جسدها.

كان الرجل ومن معه قد قتلوا ما تبقّى من جنود وفرَّ الباقون، والنساء اللواتي تحلّقن حول المرأة المحترقة لم يتجاوز عددهنّ العشر. وعندما اتّجه الرجل الذي يحمل المولودة في صدره إلى الشمال، بدل التوجّه إلى الجنوب، لم يكن معه سوى ثلاثة عشر كائنًا حيًّا، عدا المولودة التي لم يجد لها ما تأكله، وكانت مرضعتها قد قُتلت، فسقاها من بقايا الماء في قربته. وعندما طلع الفجر، كانوا يركضون بسرعة، لاهثين؛ الثلاثة عشر رجلاً وامرأة، عيونهم زائغة، لكنّهم يطلّون على سهل أخضر هادئ، هربوا إليه وظلّوا كذلك حتى وصلوا شرق البحر، واستقرّوا في الجبل الشمالي. والمولودة التي وصلت هناك لحمًا أزرقَ ناتئ العظام، تحوّلت بعد عدّة أشهر إلى طفلة جميلة، صار أبوها ذلك الرجل الذي حملها في صدره. وكانت تروي له بعد أن كبرت، حكاية زوجها الذي قتلها في حياتها الماضية، حتى لا يلوّث شرفها جنود السلطان.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ليلى وماري

أعادت حكايتها على ماري المشغولة بترتيب مكان نومها. كانت تقف وتتحرّك بعصبيّة، وتخرج من الغرفة الصغيرة. تعود فجأة. ثم تروح وتجيء، فيخرج الجيران للتفرّج عليها، ويبدون مثل ركّاب قطار بائس، ألوانهم صفراء ورماديّة وسوداء، وعيونهم فقط تلمع وهم يحاولون معرفة من هذه المرأة الغريبة التي تزور جيرانهم المجانين الذين يتكتّمون حتى في أصوات سعالهم، وتحديدًا تلك البنت المنكوشة الشعر التي بالكاد تلقي عليهم التحيّة.

عندما صارت ليلى تقترب من نوافذهم بلا مبالاة صفّرت امرأة وهمهمت، فلم تلتفت، وقدّر الجيران أنّها طرشاء، وربّما تكون أخت العمياء. أمّا لماذا فكّروا بذلك، فهو أمر غريب، لأنّ ماري قالت: ادخلي.. ادخلي. فاستجابت لها ودخلت الغرفة. ومع ذلك كانوا في صباح اليوم التالي يسألون بعضهم

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

بعضًا، إن كانت الطرشاء قد غادرت منزل العمياء!

ماري المشدودة أكثر من أيّ وقت مضى في هذه اللحظة، تذكّرت الليالي التي كانت تضطرّ فيها لحمل سكّين في وجه راهبة، أو قذف الحجارة على الأطفال الذين يلحقونها مع أمّها، وهم يقلّدون حركة الأمّ العمياء، فعاد وجهها للتقلّص ثانية، تراقب ليلى الغافية في عالم غائم عن كلّ ما حولها، حيث ركّزت حواسّها في نقطة سوداء أعمت قلبها، ونسيت كلّ ما مرَّ من حياتها. وحتى ما خلّفته لها آثار الهيروبين والحشيش يبدو أنّه تراجع. والنقطة التي سبّبت العمى لقلبها كانت تلحّ في دمها الذي يغلي، فتصبح حركتها أكثر توتّرًا، وترتجف أطرافها، وهي تنتظر من ماري أن تفعل شيئًا. وعندما طلبت منها ماري الدخول من الفناء، تذكّرت أنّها ستواجه أمرًا ما. كانت تنتظر من ماري أن تؤمّن لها السفر المباشر، لكنّ ماري طلبت منها النوم بهدوء حتى صباح اليوم التالي، وسوف تفكّر في طريقة ما، لتأمين سفرها إلى القرية.

في الواقع كانت ماري تشفق عليها من الجنون، فهي تعرف أنّ سعيد ناصر سيطردها، وشعرت أنّ عليها التصرّف بحذر، فمن المؤكّد أنّ مسًّا من الجنون أصاب عقل ليلى، تتظاهر بالانشغال بترتيب سرير أمّها، تستغرب كيف لم تسأل ليلى نفسها سؤالاً بسيطًا: لِمَ تركها عشيقها كلّ هذه السنوات الماضية

في السجن؟ شعرت بالأسى على حالها، وكلّ من سيرى ليلى كان سيشعر بذلك، حتى ولو كانت ماري التي لا تحتاج من العالم كلّه إلاّ الأسى. فكّرت أن تجعلها تتّصل بأحد من عائلتها. تذكّرت أنّ أخاها مات وعمّها الوحيد خارج البلد. وعنَّ على بالها أن تقترح عليها البدء بحياة جديدة هنا، لكنّ خوفها من تعاطيها الهيروبين من جديد جعلها أكثر حذرًا. لقد تخلّى عنها الجميع، بعد أن كانت يومًا ملاذًا وحلمًا بعيد المنال. تخلّوا عنها، وانتظروا حتى تأكّدوا من دخولها السجن، وبدأت الكارثة. كانت ماري تسمع أنّها تهرّب المخدّرات، وآخرون قالوا: إنّها تدير شبكة من موزّعي المخدّرات، وبعض الممثّلات قلن إنّ تلك نهاية منطقيّة لتهتّكها. والسيّدة ميرنا كانت تصمت، وتستغرب أن تكون زبونتها المفضّلة هي من تتحدّث عنها العاصمة بأسرها، بعد أن قُبض عليها قادمة من بيروت، تحمل معها كيلو ونصف الكيلو من الهيروبين! فقد كانت تبدو وادعة إلى حدّ الطفولة، وتعيش في عالم خاصّ، كما وصفتها السيّدة ميرنا يومًا لزبوناتها، وأكّدت لهنّ ذلك، واصفة إيّاها أنّها تعيش داخل فقّاعة صابون.

أنهت ماري ترتيب السرير، وبدا أنّ العمياء غفت فورًا، فجلست قرب ليلى، وانتظرت أن تقوم الأخيرة بإبداء أيّة ملاحظة. صمتت أخيرًا غير آسفة على شيء. كان هذا شعورها، لأنّها عرفت، منذ اللحظة التي تهاوت فيها بين ذراعي

سعيد كرمل منسكب، أنّها سلّمت قدرها للريح، وسارت نائمة في عيشها، والسنوات القليلة التي عاشتها معه داخل ذلك النوم منحتها لذّة أبديّة من السعادة. ربّما لذلك بدت لجميع من حولها شبه بلهاء. في الحقيقة كانت داخل فقّاعتها الشفّافة التي لمحتها السيّدة ميرنا، لكنّها لم تكن فقّاعة من صابون. قلبها هو تلك الفقّاعة التي عاشت فيها. وهي لن تصدّق أنّها ستتهاوى من دونها. كانت حتى في أشدّ أوقات حياتها ظلمة، عندما مرّت سنواتها البطيئة داخل جدران السجن، تعيش داخل فقّاعتها، وقدّرت أنّ عليها، على الرّغم من الأسى، عدم الانزلاق إلى درجة تفقد فيها حبّها. كانت موقنة أنّها ستجده، ولكنّ اضطرابًا خفيًّا كان يمسّ شغاف روحها في السنوات الأخيرة، وهي تحاول عدم تضييع ملامح وجهه. تفضّل الصمت داخل السجن وإغماض عينيها لفترات طويلة حتى يتسنّى لها تذكّره بوضوح. كانت حتى لحظة جلوسها هذه مع ماري لم تعرف ما الذي حدث، ولماذ حدث كلّ هذا، ولماذا اختفى من حياتها، ولماذا...

كلّ ذلك لا يهمّ. كانت تريد أن تنظر في عينيه للمرّة الأخيرة. ستعرف بالتأكيد ما حصل عندما تواجهه، لم تفقد ملكتها هذه، ولكن ما الذي سيحلّ بها؟ عندما حاولت رؤيته المرّة الأولى بقيت في السجن سنوات، الآن ماذا سيحدث لها؟ تقول لنفسها: ألم تتعلّمي الدرس؟

ولماذا؟ أسئلة كثيرة واجهتها بسوء حظّها. فعندما خرجت من السجن، عرفت أنّ رئيس البلاد قد رحل. وهذا أمر تعرف كم سيعذّب حبيبها، وشعرت أنّها ستنسى كلّ الأسئلة وتركض إليه. كانت سمعت أنّه عاد إلى قريته. وعرفت أنّه ترك الجيش وبيته في العاصمة، وقرّر العزلة في قصره الذي تحفظه أكثر ممّا تحفظ تضاريس جسمها، وهو ما دعاها للشعور بقليل من الطمأنينة، وهي تفكّر أنّها ستلقاه هناك كما فعلت دائمًا. في الوقت نفسه، فكّرت أنّ ذلك القصر لا يبعد عن مكان الحريق الذي ذهب بجزء كبير من عالمها، وأنّها ربّما لن تكون قادرة على رؤية الطريق المؤدّية إلى القرية. كوابيس الليل ستعاودها، وصورة جسد عليّ المتدلّي من رقبته ما تزال تؤرّق لياليها.

كان جزء كبير من تفكيرها مشوّشًا معلّقًا. لا يسأل ولا يجيب ولا يخمّن. مساحة بيضاء تسيطر عليه. مساحة لا تعرف حجمها، لكنّها تعود في ليالي السهر معه، وتبقى راسخة مثل لحظة متولّدة من ذاتها، لا تنتهي، وكأنّها حدثت بالأمس. ولم ولن تصدّق، وستظلّ هكذا حتى تذوي وتموت، ستظلّ موقنة أنّه ينتظرها، ولن يتوقّف هذا الانتظار حتى تغيب روحها عن جسدها مترقّبة حيوات أخرى، وهو ما عرفته ماري وهي تنظر في عينيها، ترجوها البقاء حتى صباح اليوم التالي. حين صمتت ليلى وانصاعت لفكرة البقاء. قالت لماري: لا بأس. يوم آخر لن يغيّر وجه الدنيا.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

جاءت ماري بغطاء رقيق، مسّدت كفّي ليلى. مدّدتها بهدوء على الأريكة، ورمت بالغطاء فوق كامل جسمها، ثم افترشت الأرض. وضعت تحتها لحافًا سميكًا، وقبل أن تغرق في نوم قلق، قرّرت أنّها ستقف إلى جانبها مهما يكلّفها الأمر، ولن تسألها عمّا حدث، سوف تؤمّن لها المال للسفر، وتتركها تفعل ما تشاء. لا تعرف سبب إصرارها على ذلك، لكنّها في أعماقها أدركت أنّها تحقّق أمنية غالية، تشبه ما يُقال للمحكومين بالإعدام أن يتمنّوه، فنامت في تلك الليلة، وعيناها تدمعان على اللحاف المهترئ، وهي تدعو أن يقتلع داء خبيث سعيدًا من الحياة.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

ليلى وعليّ

في الصباح الباكر، أفاقت ليلى في غرفة ماري على الضجيج؛ قرقعة صحون ألمنيوم وزجاج. أصوات طرطشة المياه. أطفال يزعقون. فتحت عينيها، ظلّتا مغمضتين نصف إغماضة، وشعرت أنّها في المهجع. كانت بين الصحو والمنام، وتعتقد أنّها سوف تتكاسل قليلاً حتى تنتهي السجينات من استعمال الحمّام. وعندما حاولت التقلّب فوق الأريكة وقعت أرضًا، ثم فتحت عينيها على اتّساعهما. رأت أنّها في مكان غريب. لزمها دقائق لتدرك أين هي، وعرفت عندما لمحت وجه ماري السمين، وهو يغيم بسلام على الفراش الرقيق. وتذكّرت ليلة البارحة، فانتفضت ونظرت إلى الجدران تبحث عن ساعة. كانت وضعت في المهجع ساعة جداريّة، واعتادت كلّما استيقظت أن تنظر فيها، على الرّغم من أنّ الوقت في السجن غير مهمّ. والأهمّ منه ألاّ تكون هناك ساعات. الزمن داخل الجدران يختلف عن الزمن خارجها. الغرفة بجدرانها وأثاثها لم

تحتو على ساعة. نهضت بحذر وخرجت من الغرفة، ومع ضوء النهار اكتشفت أنّ السجن يبدو أفضل من المكان الذي تعيش فيه ماري. شعرت بشفقة عليها، وتذكّرت أنّها عرفتها منذ سنوات. ولم يخطر في بالها أن تعرف أين تعيش هذه البنت وكيف، ولم تتذكّر أن تسألها عن أحوالها، أو تخيّلت أنّها تُعيل أمًّا عمياء.

اتّجهت إلى المطبخ وفتحت حنفيّة الماء. الأواني الملقاة أسفل الحوض تتوزّع بفوضى، ويدخل بعض الساكنين ويخرجون. امرأة منهم حشرتها في الزاوية وهي تنظّف الأواني، قبل أن تزيل الصابون عن وجهها، فخرجت ليلى مسرعة، بعد أن رشّت وجهها برشقات من الماء، واتّكأت بظهرها على الحائط الأسود، وهي تراقب حركة الساكنين في الغرف الأخرى، وتسترق النظر إلى الفسحة الزرقاء الصافية لسماء حزيران التي تبدو ضمن مشهد البيت كلون غريب غير متجانس، فشعرت بالارتياح لأنّها استطاعت أن تملك القدرة على الخروج في الصباح، كما لم تفعل منذ صباحات كثيرة، وفكّرت أنّها ستخرج، وتمشي ريثما تستيقظ ماري، وهو الوقت الكافي لترتّب أفكارها، وتتأكّد ممّا ستفعله. فتحت الباب الخشبي الكبير. وقفت تتفحّص الزقاق الضيّق الفارغ الذي بدا مهجورًا موحشًا. اعترتها قشعريرة برد، حبل مشدود من الارتجاف بدأ برأسها، وانتهى أسفل العمود الفقري، فلملمت ثيابها حول جسمها.

إنّه صباح حزيران، تمتمت وضحكت من خوفها الذي قيّد حركتها. حاولت تحريك قدميها وفشلت. كانت واقفة مستقيمة على الأرض مثبّتة بمسامير، وكلّ محاولتها لزعزعة هذا الثبات باءت بالفشل. حرّكت جذعها إلى الأمام، ونهرت نفسها: لِمَ هذا الخوف؟ كانت تشعر بالخجل من شكلها المريب، ومن التعاسة التي بدت ملامحها واضحة في هذا المكان، حيث تبدو القمامة في نهاية الزقاق الذي يختفي وراء انعطافة تقود إلى زقاق آخر. القطط تتكاثر من حولها. تموء وتخرج من الأسطح وتركض. تقفز من حاوية قمامة على الجانب. تتراجع ليلى إلى الخلف خائفة. القطط السوداء الثلاث ذات العيون الخضراء اللامعة تتقافز حول حاوية القمامة، وتصير قرب قدميها. قطط المدينة لا تخاف البشر، بعد أن اعتادت وجودهم. همست ليلى: بست بست بست. القطط لم تتحرّك، ونظرت إليها بنعاس. قطط سمينة تنظر إليها بوقاحة. فكّرت لحظتها: ما الذي تريد أن تفعله؟ وتراجعت نحو الباب الخشبي حتى استندت إليه، ودقّ قلبها بقوّة. القطط تمرّ من بين ساقيها غير مبالية، والنظرات التي ظنّتها مفترسة عبرت بهدوء أمامها، وكأنّها غير مرئيّة، شمّت رائحة جسدها لثانية، واعتراها إحساس مهين بأنّها خرجت توًّا من حاوية قمامة. كانت ما تزال تلملم أطراف ثوبها، وتحشر أصابع قدميها في الحذاء ذي الكعب العالي العريض، وتفكّر أنّ من الجنون الخروج إلى شوارع

المدينة بهذه الثياب في وقت مبكّر من الصباح. الشوارع خالية، ويبدو أنّها مدينة أشباح. أعادت التلصّص دون أن تسحب ظهرها عن الباب، فلمحت رجلاً قادمًا يبدو مشغولاً بسيجارته. ومن بعيد فاحت رائحة تعرفها، لا بد أنّه سكران. قالت. تجاوزها وهو ينظر إليها بإشفاق. وعلى الرّغم من ترنّحه، توقّف وألقى بقطعة نقديّة حجريّة، ثم انصرف. رنّت القطعة المعدنيّة على البلاط البازلتي. نظرت إلى القطعة المعدنيّة والتقطتها، ثم فتحت الباب بسرعة، فارتجّ مُحدثًا دويًّا عاليًا، ودخلت إلى غرفة ماري التي استيقظت مذعورة على صوت ارتطام الباب.

حتى الآن لم تصدّق ليلى ما حدث، وتوصّلت إلى نتيجة أنّها عاشت حلمًا رأته في طفولتها، مع رجل وضعه القدر في طريقها ليسلبها حياتها. ولأنّها نذرت نفسها للريح، لم تفكّر إلّا بأمر واحد: ألاّ تفارق ذلك الرجل حتى الموت. وعلى الرّغم من أنّها ليست امرأة غبيّة حتى لا تفهم ما حدث، إلاّ أنّ الأوان كان قد فات بعد موت عليّ. وهي حتى اللحظة، لم تفهم لِمَ تلحّ عليها الرغبة لرؤيته. لتعيده؟ أم لتغرز سكّينًا في قلبه؟ وتعود تلمح السكون الشهي إلى قلبها في رؤاها. للحظة أدركت أنّها ليست ليلى الصاوي وإنّما امرأة ما، وهو ليس سعيدًا ولكن رجل ما، رجل بقي لدقائق يحدّق فيها في مجزرة الجامع، قبل أن يفارق الحياة قبلها بلحظات. لماذا تغيب الأسماء في حيواتها السابقة؟

هل أرادت غرز السكّين في قلبه، أم أرادت أن تموء تحت قدميه؟ تُعيد السؤال.

هل أرادت الصمت اللذيذ في البيت الطيني؟ لكنّ البيت الطيني تحوّل إلى ركام تراب، ولم يبق سوى أثر الحريق.. هل..؟ هل..؟ لا تعرف..

كلّ شيء يبدو غائمًا، ومنذ أن اعتادت حقن نفسها بتلك الإبر، صار العالم من حولها ضبابيًّا وبدأت تفقد ذاكرتها. بعد كلّ وخزة تغيب عن الوعي ثم تستردّ حياتها تدريجيًّا، لا من خلال تاريخ واحد متّصل، بل في مشاهد غير منتظمة من حياتها الحاليّة، تقطعها لقطات من حياتها السابقة، مثل لقطات الإعلانات، التي تقطّع المسلسلات التلفزيونيّة إلى أشلاء. وعندما كانت تشعر بغياب أجزاء كبيرة من حياتها داخل عقلها كانت تبتسم وتقول: قدر هذه العائلة أن يضيع تاريخها داخل عقول أبنائها.

لماذا إذًا نذرت نفسها للضياع؟ لماذا نسيت ما جاء بها خارج حدود الطين؟ لماذا لم تلحق بعليّ عندما جاء في تلك الليلة؟ لماذا لم تحزمْ حقائبها وتتأبّطه وتعود؟ ماذا كانت تنتظر؟ هل صدّقت أنّها وجدت حبّها المجنون؟ هل عاشت داخل حكاية؟ أم ظنّت نفسها بطلة حكاية؟ وأين هي الحقيقة؟ حكايتها الآن، أم الحكايات التي تعيش داخل عقلها؟ كيف تبخّرت

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الحكايات؟ ووجدت نفسها على خشبة مسرح فارغة. فارغة مثل قلبها وعقلها. فارغة مثل أحشائها المفعمة بالعار؛ عار موتها البطيء، وجنونها بسحابات العدم ولذّة الخدر السابح ببطء بين تلافيف دماغها، وهي تشمّ رائحة الانتقال من عالم الأرض إلى جوفها الغامض. رائحة تبدأ بالوخز وتنتهي في منطقة خرساء وعمياء. وحدها فقط في تلك المنطقة؛ منطقة ملوّنة بالرقص والأضواء وظلال باهتة لعليّ صاوي الجدّ، وعليّ صاوي الحفيد. كانا يأتيان مع تلك اللذّة. يعومان أمامها، يرقصان بلا ملامح واضحة، لكنّها تستوضحهما بين الصحو واليقظة؛ هما فعلاً؟ كانا الجدّ والأخ. وعندما تصحو بعد ذلك، كانت تبحث عنهما في فراغ أصابعها. فلا تجد إلاّ عروقها اليابسة التي تحوّلت إلى خريطة فوق جلدها.

كان وجهُ عليّ الرسم الأكثر وضوحًا في المرحلة الأخيرة. يأتي سابحًا في بداية الخدر، واقفًا بوضوح ثم يقترب منها ويلامس خدّها ويضحك. لم تكن تتذكّر صوته، فقد كان صامتًا. عيناه فقط. وصوت صمته! نعم كان يأتيها بصوت الصمت. في كثير من الأحيان تكثر من جرعات الهيروبين، لتسمع صوته وتحاول استحضاره، فيغيب. تتأكّد أنّه يعاقبها بغياب صوته، وفيما بعد، بغياب ملامح وجهه عنها، فتغرق في حزن أشدّ صمتًا من وجهه.

تذكر عينيه في تلك الليلة. الليلة التي أرادت محوها من عقلها.

كان عليّ قد ترك عزلته وأرضه والبيت الطيني في القرية، وجاء كالمجنون يلهث إلى بيتها في ليلة شتويّة قارسة. برد العاصمة في شهر شباط يشبه سياط جلّاد عديم الرحمة، يأخذ معه العجائز، ويحوّل الأجساد إلى كتل لحميّة زرقاء ليلاً، وفي النهار يشويهم بشمسه المخادعة. كانت قد انتهت من تصوير ثاني بطولة مسلسل لها، وتحوّلت إلى نجمة تلفزيونيّة خلال وقت قصير، بعد أن رعاها سعيد ناصر، وأحاطها بحرّاسه، وقام بتغيير بيتها. كان يفعل كلّ ما يخصّها ويرتّب لها حياتها، حيث استسلمت لدعة الحياة معه، تتأمّل ما يحدث لها، وكأنّها داخل حكاية. تنظر إليه مبهورة وهو يحوّل حياتها. اشترى لها بيتًا واسعًا، وكسر مراياها ومنع عنها المرايا في البيت الجديد، وأرسل في طلب خادمة من خادماته، وأثّث لها البيت الجديد، وكان ذوقه جميلاً إلى الحدّ الذي صرخت فيه عندما سافرا معًا إلى قبرص، وعادا لتجد الأثاث الجديد في جنّة أحلامها. كانت ليلى تحبّ سماع أغاني أسمهان من الأسطوانات القديمة، فوضع لها في ركن من الصالة «غراموفون» قديمًا مع أسطوانات أسمهان وهي الأسطوانات نفسها التي كانت تعيد غناءها أمامه في لياليهما الصافية. قال لها مرّة إنّ صوتها ليس أقلّ جمالاً من صوت أسمهان، وإنّ عليها التفكير بالغناء يومًا، لكنّها رفضت بشدّة،

وقالت إنّها تحبّ الغناء لأسمهان فقط، وتحبّ الحكايات الكثيرة التي تدور حولها. وبطبيعة الحال لم يُلق سعيد بالاً إلى مسحة الحزن التي كانت تعتريها، عندما تأتي على ذكر أشخاص ماتوا في عزّ شبابهم. كما ستفقد أغلى الشباب على قلبها: عليًّا. عليًّا الذي قام بجهد كبير حتى وصل عنوانها الجديد، وانتظر ساعات أمام باب بيتها ليلتقيها. ولحسن الحظّ كانت وحدها، ولم يرافقها سعيد كالعادة عند طلوع الفجر. كانت شبه مخمورة وجميلة إلى درجة مؤذية. ضمّت عليًّا عندما رأته، وبكت بشدّة وهي تعتذر لعدم السؤال عنه. تترنّح وبالكاد تستطيع فتح باب بيتها، ساعدها عليّ، وأمسك بيدها ودخلا البيت سويّة. كانت ترتدي ثوبًا أسود فاضحًا. لم تكن أخته التي يعرفها، البنت الضئيلة ذات الجسد الغلماني، بل امرأة مكتنزة، كتفاها العاريتان تلمعان ببريق ذهبي، وتحيط عنقها بفرو رمادي داكن.

كانت الدماء تغلي في عروقه وهو يمسح بعينيه المكان. البذخ الواضح في مقتنيات البيت هو ما أثار حنقه، بالإضافة إلى حالة السكر الشديدة والإرهاق الذي بدا على وجه ليلى. جلست أمامه تكفكف دموعها، فرقّ قلبه واقترب منها وأمسك بيدها، فبكت. دُهشت من حزنها المفاجئ أمامه، فقبل لحظة كانت تعتقد نفسها أسعد امرأة في العالم. لم يحاول الاستفسار منها. كان قد سمع بما فيه الكفاية من أهل القرية الذين حلفوا أمامه، أنّها كانت في قصر سعيد ناصر قبل أيّام، وإنّ كلّ من في

العاصمة يعرف أنّها عشيقته. وهو يبدّل النساء كما يبدّل أحذيته، لكن سعيدًا في حقيقة الأمر لن يعرف امرأة بعدها. وسيظلّ يعيش في لياليه الطويلة، وداخل مكتبه يرتدي بزّته العسكريّة، واصلاً ليله بنهاره في العمل، سيظلّ يذكر صوتها، وفسحة عينيها وحكاياتها. صامت. صامت كتمثال من حجر. وهو متأكّد أنّ المرأة الوحيدة التي رفضته كانت ليلى الصاوي. يعرف ذلك أكثر منها، ويعرف أنّه مكلّل بالخزي والعار ممّا جلبه لنفسه بعد أن نسي من يكون، هو الرجل العسكري القوي صاحب السمعة العالية في التفاني والإخلاص.

لكنّ هذا السرّ بقي طيّ الكتمان، وبقيت ليلى، في أقاويل أهل القرية وغيرهم، واحدة من عشيقاته اللواتي مررن عليه.

جلس بحياديّة، وانتظر خروجها من الحمّام. شرب شايًا ساخنًا. كان قد استسلم نهائيًّا لحركة الدنيا من حوله. كلّ أيّامه متشابهة، ومع ذلك هو هانئ في البيت الطيني، مكتفٍ باللاشيء اللذيذ في حياته. تحدّثا عن تفاصيل أيّامهما قبل أن يفاجئها بسؤال:

ـ أنت واثقة من حياتك.. راضية عمّا تقومين به؟

نظرت باستغراب وقالت: واثقة من ماذا؟ صمت. فتنهّدت. ولمحت خيال الجدّ. إنّه جدّها ينطق بلسان عليّ. ردّت بحماسة:

ـ لست متأكّدة من أيّ شيء يحدث حولي. كلّنا غبار. جلدي غبار. أجسادنا تراب وغبار. أكاد لا أصدّق أنّي موجودة أحيانًا، إلاّ عندما أرى صورتي في التلفزيون، تضيّعني الخيالات التي تأتيني.. تعذّبني. منذ الخامسة وأنا أهرب منها. تلاحقني. لا أبالغ عندما أقول لك إنّ صورًا متزاحمة تطنُّ في عقلي، وبالكاد أستطيع العيش. لا أعرف إن كانت تجمّل حياتي أم تخرّبها، لكنّها موجودة هنا داخل عقلي، ولا سبيل أمامك إلى إقناعي أنّها تأثيرات الجدّ عليّ. إنّها أكثر من ذلك بكثير؟

يصمت عليّ ولا يردّ، فتتابع:

ـ هل ترى؟ هنا لا يوجد مرايا. هل تذكر أنّك استأت من وجود المرايا في بيتي؟

ـ أين مراياك؟ لا تردّ. تقوم من مكانها وتأتي بمرآة صغيرة وتحدّق فيها:

ـ كلّ هذه المرايا التي كانت لي اختفت. أنت قلت إنّ المرآة هي اختراع إنساني بشع، أمّا بالنسبة لي فهي التأكيد الوحيد أنّي أعيش. أستطيع تلمّس حياة كاملة في كلّ مرآة. هل ترى؟ أنا الآن سجينة بلا مراياي.

تلمس سطح المرآة المصقول وتتابع:

ـ أستطيع لمس الفضّة في داخلها، والتأكّد أنّ وراء كلّ

مرآة سماء جديدة.. سماء غامضة.. أستطيع الإحساس أنّي محاطة بسماوات متفاوتة وكثيفة.

يتمتم عليّ:

ـ هذا يشبه المرض أختي الحلوة. قام من مكانه وقبّلها من جبينها. قالت:

ـ وراء كلّ مرآة تختبئ حياة، وعندما أنظر في المرآة وأحفظ شكل عينيّ أضمن بذلك دقّة في التفاصيل من أجل حياة قادمة. باختصار المرايا عكس ما يقوله عنها البشر من أنّها حبّ للذات! هي مكان للاشيء.. مكانك وحدك. مكان وجهك. حيث لا شيء سوى الفراغ.

تقول وتشعر بالندم لأنّها تفوّهت بهذه الجملة، بعد أن لمحت عيني عليّ الفزعتين، لكنّها تتابع:

ـ لا تخف لم أصل بعد إلى التفكير بالتحوّل إلى فراغ.. يعيش بداخلي حيوان.

ـ كلّنا حيوانات..

ـ أنا أعيش في بدائيّة الحيونة.

يضحك عليّ برقّة. تقترب منه وتحيطه بذراعيها:

ـ أقسم لك إنّ ما أقوله حقيقة، أستطيع أن أروي لك كلّ القصص التي عشتها في حبّ رجل.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ـ هذه رغبتك بحبّ كبير. رومانسيّة مريضة تعبّر عن نفسها بوجود دائم عبر الزمن. يقول لها.

ـ لا..

ـ والحيوانات التي تتحدّثين عنها، عندما ترغب لا تفكّر.. ربّما تبدو الحيوانات معلّمًا جيّدًا للحبّ، لكنّها ترغب من دون تفكير. الفرق بينها وبين الإنسان أنّه عندما يرغب، يعرف أنّه راغب. إذا كنت تطلقين على فكرة المعرفة بالرغبة تقليلاً من الحبّ، فهذا أمر آخر ومعقّد.

تصمت. تقوم من مكانها وتحمل مرآتها الصغيرة، ثم تفرد ذراعيها، كأنّها على خشبة مسرح، تلمع عيناها وتصرخ:

ـ ومن قال إنّ على الإنسان أن يفكّر في أنّه راغب؟

ـ ربّما تكون الرغبات الحيوانيّة أكثر حقيقيّة، لكنّها ليست إنسانيّة.

ـ أنت مخطئ. أريد الاستسلام لرغبتي. أريد أن أشعر أنّي مشدودة لشيء ما في هذه الحياة القصيرة.. إلى حيوانيّتي.. هل تفهم ما أقصده برغباتنا البدائيّة.. ليس الحبّ فقط؟

ـ أنت مشدودة لحكايات جدّك.

ـ لا، أظنّ أنّي أعيش حياة شخص آخر.. أعتقد أنّ حياة

واحدة لا تكفي الإنسان. أريد العيش ضمن هذه الكثافة التي تمنحني إيّاها حيواتي.

ـ وهل سعيد ناصر هو...

أشارت إليه ليصمت. صمت. لمعت عيناها. كانت خائفة. وتوقّفت عن البكاء أمامه. ستعرف فيما بعد أنّ صمتها كان خوفها من فقدانها حبّها. صمت أيضًا فدخلت المطبخ وعادت بفنجاني قهوة.

قال عليّ: عودي معي إلى القرية.

ـ عندي تصوير غدًا. أجابت بحياد.

ـ خذي استراحة. قال.

ـ الأمر ليس هيّنًا، هناك فريق عمل كامل. قالت.

قامت من مكانها بسرعة واتّجهت إلى الحمّام، وسمع صوت إقيائها، ثم ظهرت بعد قليل، فبانت امرأة مختلفة. اقترب منها، وأجلسها، وأمسك بيدها ثانية، وقال بهدوء:

ـ عودي معي ليلى... أو عودي إلى مراياك.

ـ لا أستطيع. أجابت بالهدوء نفسه، دون أن تنظر في عينيه. تابعت وقد صارت أنفاسها متقطّعة: أنا سعيدة هنا، انظر.. انظر.. لقد صرت ممثّلة معروفة. وأشارت إلى صورها المعلّقة على الجدران. ثم تابعت بأنفاسها اللاهثة: وقريبًا..

قريبًا سوف أسافر من أجل فيلم سينمائي.. أتعرف؟ إنّهم يقومون بالإعداد لإنتاج الكثير من المسلسلات.. أنا هنا سعيدة وأحقّق حلمي.. لا تقلق.. لا تقلق..

كانت تتحدّث مسربلةً بالنوم، وكان على وشك الاختناق، فهي تدرك ما يرمي إليه، وتريد الهرب من ذكريات جدّها ووصاياه. نسيت فيما بعد ما قالته لأخيها. لم تسمعه، تلمح حركة شفتيه بحديث غامض عن الجدّ لم تفهمه. كانت مبلّلة بالسكر وغائمة في مكان ما. مكان شعرت أنّها لم تفارقه منذ أن عرفت سعيد ناصر، وعندما أنهى حديثه، كانت نائمة بعمق. حملها ووضعها في سريرها، غفا على الأريكة، وكان البرد يشلّ عظامه، ودموعه تبلّل ذقنه.

في الصباح خرجت ليلى قبل استيقاظه، ولمح عندما فتح عينيه، فتاة صغيرة تخبره أنّ الفطور جاهز، وأنّ السيّدة لن تعود قبل الليل، وسلّمته ورقة بيضاء. كانت أضلعه توجعه، وهو يفتح الورقه. كتبت له: «حبيبي عليّ، لن أعود معك، ليس الآن.. أعرف طريقي.. لست واثقة من أنّي فهمت كلّ ما قلته، لكنّي بالتأكيد على علاقة بسعيد ناصر، وأحبّه بجنون. حاول أن تبقى حتى المساء.. سيأتي ليلاً».

مزّق الورقة. صمت لدقائق. بهدوء خرج، وهو ينثر قصاصات الورق في الصالون.

عليّ

حكاية عليّ لم تشبه أيّة حكاية. كانت خارج سياق الزمن. هو نفسه كان خارج ما يحدث. يعيش في صمته الوديع، مستسلمًا لهناء قلبه وسلامه. السلام الذي ورثه عن جدّه والذي علّمه إيّاه الموت، بعد أن فقد والديه. الموت يقهره سلام الأحياء. يغيظه استخفاف قلوبهم بجبروته وغضبه. لذلك كان عليّ مستفِزًّا لمن حوله. وما فهمه سعيد ناصر أثناء التحقيق على أنّه قوّة ومناعة كان صمتًا. صمتًا لا أقلّ ولا أكثر. دعته الصامتة غير الواضحة، وصمته غير المحتمل، عذّبا قلبه قبل أن يصيرا لغزًا لمن حوله. ليلى والجدّ عرفا كم لزمه من الأسى ليرسم صورته على هذه الشاكلة. فقد خبراه منذ الطفولة، عندما كان يُجيد غناء مواويل العتابا تحت السنديانة الكبيرة. ولم يحاولا اقتحام عزلته التي فرضها على نفسه، حين كان الجدّ وليلى مشغولين بالحكايات والمسرحيّات فوق المصطبة طوال يفاعته، وكان هو مشغولاً بصمته، والإصغاء لما تقوله الحكايات،

ولكنّه، في ذلك الزمن، كان يراقب ليلى كما يراقب نموّ زغب شعر جلده. هو من بقي لها، وهي من بقيت له، وصمته كان نوعًا منَ الحفاظ على رباطة جأشه أمام أخته الصغيرة. كم سيندم بعد ذلك بسنوات عندما سيتركها وحيدة في المدينة. وسوف يقضي لياليه الطويلة في سجنه، يفكّر فيما تفعله الأخت الصغيرة، صاحبة الروح الهائمة الملوّثة بترّهات حيواتها السابقة، وكان يفكّر أنّه قتل نفسه بفعلته هذه، وأنّه ميت ولن يعود إلى الحياة حتى يخرج من السجن ويعود لاحتضانها. كان يفكّر في ذلك في الشهور الأولى لسجنه. فيما بعد ستموت أشياء داخله، أشياء لم يعرف أنّها فيه، لكنّها بقيت في داخله مثل حلم انتهى بسرعة، وغاب مع مرور الوقت في تلافيف الذاكرة. وعندما انقضت سنواته الثلاث داخل السجن، كان كلّ شيء قد انتهى، تحوّل الحلم إلى جزء من الماضي، وصار الصمت مثل لون عينيه، لا يعرف كيف بدأ به بوصفه دفاعًا أوّل عن نفسه وعن ليلى. الصمت يشبه أحد قمصانه القليلة التي تتأرجح في غرفته الطينيّة، والتي كان ينظر إليها بسخرية ويتذكّر حديث جدّه عن لبوس الروح في الجسد. ينسى أنّها خارج جلده، وأنّها تستر عريه، تصبح جلده نفسه. كره وداعته وأحلامه وغباءه، كره وصايا جدّه وعائلته وقريته، وكلّ شيء. حدث ذلك عندما وجد نفسه فجأة داخل جدران السجن، وكان لا يعرف ما الذي ينتظره، وهو يبتعد عن ليلى ويتركها للمدينة

القاتلة، كما سيسمّيها فيما بعد وهو مكلّل بالعار؛ لم يحم الأخت الصغيرة، ولم يحم حتى نفسه، وصار على قناعة تامّة أنّه غير قادر على حماية الهواء الذي يتنفّسه. كلّ شيء معرّض للتلف: جملته الشهيرة هذه جعلته أكثر من هادئ عندما أتلف قصاصة الورق التي تركتها ليلى صباح ذلك اليوم الشتوي. لم يكن ينقصه غيرها ليترك تلف دماغه ينتشر ويمتدّ ويتفرّع في أوصاله. كان جاهزًا برحابة للتناثر والضياع في داخله. كان يحتاج أن يتحوّل جلده إلى بركة سباحة ترشح بالصمت المطلق. وتيقّن أخيرًا أنّ بحثه الطويل كان عن الصمت النهائي، وأنّه منذ زمن بعيد لم يعد يذكر كيف بدأ بحثه عن صمته ذاك، وأنّ حكايات الجدّ ولون ليلى الطيني ومسرحيّاتها الغرائبيّة، ما هي إلاّ الشكل الأوّل للصمت، جملته التي ردّدها أمام نفسه، وهو يعود إلى قريته صباح ذلك اليوم الشتوي.

كلّ الحكي شكل أوّل للصمت..لم يعرف كم ردّد في داخله هذه الجملة، وكيف عادت إليه الذكريات، ومن أين انفجر دماغه بصورة سعيد ناصر ولياليه المظلمة في الزنزانة. لا يعرف كيف بدأ يشعر بالعينين الفارغتين لأخته التي صارت تأتيه منذ زيارتها في نومه. تزوره ملقية على وجهها وشاحًا. الوشاح كان في الحلم أسود. وشاح لمحه في الطفولة أثناء عزاء والديه، تضعه امرأة ما. في حلمه جاء الوشاح على وجه الأخت. عيناها الفارغتان كحفرتين عميقتين تنزّان بسائل لزج

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

لونه من لون الصدأ. وكان في حلمه المتكرّر يفيق، ويسعل وفي فمه طعم صدأ، ويقضي يومه بكامله، يغسل فمه وأسنانه ليتخلّص من طعم الصدأ، كطعم واخز، لا يشبه رائحة الحديد، ولا العفن ولا أيّ رائحة أو طعم. طعم يخبر أنّه ينزل في الأعماق ويتحوّل إلى جلد محروق. في الصباح عندما استفاق على طعم الصدأ في حلقه، جلس في غرفة جدّه، متقطّع الأنفاس يتذكّر حديث ليلى عن الغبار. رفع رجليه عن الأرض، وتمدّد على السرير النحاسي، يحدّق في نقطة ما من السقف. يرى صورًا مختلفة لليلى وهي صغيرة. ثم تمرّ صورة واد أخضر عميق. يشمّ رائحة حريق، ويرى وجه جدّه يبكي ويمسك يده، ويقول: هنا قبر والديك. ثم يحمله، ويركض به. تتلاحق الصور في رأسه. غرفة صغيرة منفردة. صوت سعيد ناصر. لون حذائه الذي سحق به وجهه. وصوت يتردّد عن الخيانة. يغمض عينيه حتى تغيب الصور أمامه، فيلمح وجوه أهل القرية التعساء في عزّ الظهيرة، وهم يقومون بقطف أوراق التبغ، حيث يقومون برصّها في خيوط من القنّب، ويحملونها إلى مجموعة من الأوتاد الخشبيّة، ويعلّقونها تحت الشمس. يلمح ظلال أصدقائه في القرية الذين اجتمع بهم للمرّة الأولى في العاصمة، وقرأ معهم المناشير السياسيّة ووزّعها على جدران الأبنية. يلمح كظلال باهتة أشكال البيوت المتناثرة في القرية، ووجوه الرجال والنساء، الكالحة، والمزرقّة بفعل البرد، ثم تخرج صورة باهتة

لوجه ليلى في الطفولة، حين كانت تحكي لهم حكايتها مع الرجل الذي قتلها في قلبها، وحكايتها مع الرجل الذي ذبحها من رقبتها، وتؤكّد لهم أنّها وُلدت يومًا في عراء، وأنّها قتلت أمّها عندما خرجت للحياة. يفكّر أنّه لم يلمح جنون أخته من قبل، ولا حتى جنون جدّه الذي حبسهما عن العالم. وفجأة لمعت في رأسه فكرة؛ جدّه قد لوّث عقله كما لوّث عقل أخته.. أجل! يقول لنفسه. يقوم من السرير. يقف أمام النافذة الكبيرة، فيلمح الشمس الباهتة وراء غيم رمادي، ترتفع بهدوء في السماء. ويتأكّد أنّ صوت الصمت المحيط بالبيت الطيني أكثر قسوة ممّا تخيّل، صوت صمت وأزيز ما. يخرج من الغرفة ويجلس تحت السنديانة فوق المصطبة التي اعتاد جدّه وليلى تأليف الحكايات وتمثيلها فوقها. جلس وأصغى ثانية، وتأكّد أنّ كلّ ما عاشه لم يكن سوى خيط رفيع من الغبار، وأنّ ليلى تفعل ما تفعله من أجل فكرة الهباء نفسها. وإخلاصها لحيواتها السابقة هو إخلاص لرغبتها في التبدّد. راقه أن يشعر بذلك. وتذكّر الليلة المشؤومة في مكتب سعيد ناصر. الليلة التي حضرت بتفاصيلها. فتوقّف قلبه عن النبض لثوان.

كانت نتف ماضيه تأتي إليه وتبتعد. اليوم وبعد حلمه بالصدأ، وعيني ليلى، جاءت الذكريات دفعة واحدة، وجعلته يشهق، وهو يركض عابرًا الأحراش والأشجار المحيطة بالبيت. يركض ويركض، يدور حول البيت، يصعد الهضبة وينزل دون

توقّف. كان حافيًا ولا يشعر بالوخزات الحادّة التي تتركها آثار الأعواد الخشبيّة الصغيرة والحصى المدبّبة. تذكّر الليلة التي مات فيها جدّه، واختفت فيها ليلى عن الأنظار، وعندما وجدها أهالي القرية، كانت قد ركضت المسافة التي تفصل قريته عن القرية المجاورة. وجدوها ملقاة في أرض مزروعة بالتبغ. جسمها أزرق من البرد وقدماها حافيتان تنزّان دماءً. حملها أحد الفلّاحين، وقال إنّ أحد أولاده شاهدها تركض طول النهار في الحقول، قبل أن تختفي ويعثروا عليها في الفجر. خطر له التوقّف عن الركض، ليستحضر موت جدّه المفاجئ، لكنّ رجليه لم تتوقّفا. كان يشعر بارتطام مؤلم لقدميه بفخذيه وهو يركض، مثل رقّاص ساعة يتناوب الارتطام فترتفع رجلاه فوق الأرض، وتتدفّق من مسامّ جلده قطرات غزيرة من العرق، عليه أن يتوقّف، يقول لنفسه: توقّف، أو ألق بنفسك في هاوية المنحدر الصخري!

لكنّ رجليه لا تتوقّفان. أغمض عينيه وأسرع، وتخيّل لثوان أنّ الريح التي ترتطم بصدره ستنشره أشلاء متناثرة فوق الهضبة، واستراح لهذه الفكرة، فأطبق جفنيه بشدّة، واستعدّ للتناثر، لكنّ سرعة ركضه لم تمنحه سوى طاقة متزايدة للركض، فتح عينيه، ومرّت أمامه خيالات لناس من القرية، يلوّحون له، ومنهم من يلحق به. لكنّه لم يتوقّف. لمح الخيالات مثل تداعي ألوان مائيّة في لوحة، تبدأ من فوق ثم تتداخل وتختفي في لون مبهم.

لكنّه يميل إلى الأبيض، يعود ويغمض عينيه ويركض. يتعثّر ويقع أرضًا، رأسه يدور وقلبه يدقّ بسرعة، كيف وقع؟ رفع رأسه والغبار يكسو شعره وبعض النباتات علقت فوق بنطاله، وتمسّكت به، عشبة «اللزّيق» التي تنبت في الجبال، لونها أخضر وزهرتها خضراء داكنة، التصقت على قميصه ووصلت صدره وخرشته، ينظر إلى حاله ويرفع رأسه ثانية، يكتشف أنّه ما يزال يدور حول الهضبة، وأنّ خطوات قليلة تفصله عن السنديانة والبيت الطيني، يعود ويتهالك بإعياء، ويرمي رأسه فوق العشب الموحل، يشمّ رائحة الأرض، ويتنفّس بانتظام وتسارع. السماء الرماديّة فوقه، تلمح سكونه المخيف، وهو يبدو كغصن شجر مقطوع ومرميّ بإهمال وسط الطريق. يفتح عينيه. كان جسده يلتصق بالأرض، ويداه وقدماه تشكل زاوية قائمة مع جسده. ينظر إلى السماء. لا يرى سوى دكنة رماديّة وغيوم سوداء، تلفح الريح الباردة وجهه، فيلتصق بالأرض، يريد الذوبان تحت ترابها، لقد فقد كلّ شيء حتى نفسه فقدها، ليس لديه جَلَد على تحريك جسده، ولا على النهوض، يتمنّى أن يتحوّل إلى طين، هواء، أيّ شيء غير أن يكون كتلة اللحم التي تحيط بعظامه، وتحفظ قلبه من التوقّف عن الخفقان. لن ينتظر أن تأتي تلك البهجة إليه. بهجة السلام الأبدي التي لن يجد مثيلاً لها، مهما يحاول البحث لن يلمح مثل هذه اللحظة التي تتدفّق الآن من قلبه، وهو يرنو إلى السماء ويتلاشى فيها. لحظة واحدة تعطيه

كلّ هذا السلام الذي بحث عنه، كلّ الصمت الذي هَوِيَهُ لحظة توحّد مع السماء وهو ملتصق بالطين، منحته السعادة، فكيف إذا سكن تلك اللحظات إلى الأبد، ستكون تلك السعادة القصوى التي تعفيه من عاره. عار عيشه، وعار ليلى وعار أهل القرية الذين يموتون جوعًا في النهار ويتضاجعون في الليل ويتناسلون، ويأتون بأكوام من اللحم يتركونها عارية للضباع والوحوش. رأى بعينيه الوحوش.. ينظر إلى السماء ويتخيّل الوحوش الطائرة تلتهم صغار القرية. لقد جُنَّ، يقول لنفسه ويغمض عينيه، يريد النهوض والعودة إلى البيت. المطر يتساقط بغزارة، وحوله تجمّعت بركة صغيرة من الماء الموحل. لم يتحرّك وبدأت عظامه ترتجف، وسكاكين حادّة تنتشر فيها. منذ أن كان في السجن تعوّدت عظامه الرطوبة والبرد، رافقتها وخزات من السكاكين الحادّة، الآن تخزه من جديد، ويفتح فمه، للمطر، يشربه ويفكّر في أن عليه النهوض. جسده لا يطاوعه. يستجمع قواه وينهض، فيعود ويرتمي في الأرض، إنّه عاجز تمامًا، تطير من أمامه مجموعة جِمال، يذكرها عندما اصطحبه والده وهو طفل في السنوات الأولى من عمره، لم يعد يذكر إن كانت سنته الخامسة أو السادسة، لكنّه يذكر رحلة طويلة عبر طرق خضراء ثم صحراء طويلة، وحافلة تعجّ بالركّاب، يذكر أيضًا هذه الجِمال التي تطير فوق جسده الآن، كيف دخل هو وأبوه الأزقّة، المتراصّة بالحجارة، كيف كانت أشكال النساء

الملتفحات بالسواد، واللواتي لا يشبهن نساء قريته، خاف من ظلالهنّ حينها، وتمسّك بيد والده. المشهد ليس واضحًا، لكنّه يذكر هذه الجِمال، وتحديدًا جملاً راح يمشي في الهواء فوق صدره وهو ممدّد، كان ذلك الجمل الذي نظر في عينيه، وهو يرفع رقبته الطويلة، يذكرها تمامًا تلك العين، كان رجل يرشّ الماء على مجموعة من الجمال داخل غرفة كبيرة ، وكان يمسك بيده سكّينًا حادًّا وناعمًا. يرشّ الجِمال، فترتجف وترفع رقابها عاليًا، كان الرجل قرب أحدها، وفي اللحظة التي رفع فيها الجمل رقبته، وجّه له الرجل تلك الضربة. كانت رشقة سريعة، تدفّقت بعدها الدماء، وسقط الجمل، إنّه هو ذلك الجمل، يمشي في الهواء ويسحب عينيه بعيدًا. يحدّق عليّ بجسده الشفّاف، ولا يلمح من ألوانه سوى عينين تذويان ببطء. لن يقوم. لقد قرّر أنّه لا يريد النهوض، شيء ما في داخله قرّر، شيء أكبر منه لا يريده أن يقوم، إنّها سعادته، ربّما تكون سعادته! نظر بطرف عينيه إلى أعلى الهضبة. لمح أمّه وأباه وجدّه، وليلى في حضن جدّه، فبكى. بكى بصوت عالٍ، ولم يسمعه أحد. كان الناس يختبئون في بيوتهم من الأمطار الغزيرة، وأصوات المطر والريح، اختلطت بصوت بكائه، وهو يلمح خيالات ليلى. نهض فجأة، كانت سعادته بالسكون المطلق تسير به. سعادة مؤجّلة، فكّر بذلك وهو ينهض راكضًا من جديد نحو بيته، يصل شجرة السنديان. يجلس. كان يرتجف

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وثيابه مبلّلة لكنّ عينيه تسرحان في البعيد. يضع كفّيه فوق أذنيه. ويتمنّى لو يعود الصمت إليه. هذا ما يبحث عنه. خلاصه في مكان فسيح لا صوت فيه. ولا حتى سماء ولا أيّ شيء، خلاصه في التحوّل الآن إلى لا شيء. ربّما يعود إلى أصله الذي جاء منه اللاشيء، هو الوحيد القادر على منع موته البطيء، وهو الوحيد الذي منحته الحياة أقسى ما يمكن أن تمنحه لإنسان: ضجيج البشر وطنينهم من حوله. دخل البيت الطيني وأغلق الباب بقوّة فأحدث ارتجاجًا عنيفًا، ولم يقفل، كان مفتوحًا ويعود للارتطام بفعل الريح، فيحدث المزيد من الضجّة، يجلس على الأرض، وينظر في سقف الغرفة، إنّها سعادته تأتي. لا بدّ أن ينتهي كلّ شيء كما بدأ، ولن يكون هناك من أثر لمروره. ترتخي عضلات وجهه المشدودة، ويضحك، يؤلمه رأسه والجرح الذي يشقّ بطنه، فتعود صورة الغرف المعتمة والزنزانة وتحزّ قلبه، يضغط على بطنه، إنّه البرد الذي يوقظ جرحه، وخطّ الجرح لا يلهيه عن سعادته باكتشافه الكبير. ينظر ثانية إلى السقف، يعاين الغرفة جيّدًا، يبحث عن كرسي. يدخل غرفة جدّه ويأتي بكرسي الخيزران، قدماه بالكاد تمسّان الأرض. مشاعر غريبة تحرّكه، كان قد بدأ بالاختفاء، لم يعد يلمس وجوده. يتحرّك وكأنّه يراقب شخصًا ما. رجلاً ما يتحرّك، يصبّ فوق البيت سائلاً ذا رائحة نفّاذة، يقف فوق الكرسي، ويعلّق حبلاً، ويربطه بإحكام، ثم يعود ويرشّ السائل

الأصفر في البيت، ويأتي بعود ثقاب، ويرميه فوق السائل، فتشتعل النيران. الرجل نفسه الذي ينظر إليه يقف على الكرسي ويمسك الحبل، ويلفّه حول رقبته. الرجل نفسه يتدلّى من الحبل، وتنقلب الكرسي، يراه وهو في درجة عالية من السعادة، فينام معه.

في الفجر لم يجده أهل القرية مكوّمًا في حقل تبغ كما فعلت ليلى. كان معلّقًا في السقف وقد أحرق البيت والصندوق الخشبي. أحرقه بما فيه، أوراقه، وأوراق جدّه، وأوراق طفولة ليلى، وشجرة نسب العائلة، وأشعار السنجاري، ومخطوطات قديمة لرسائل إخوان الصفا. كان موته غامضًا، ولم يعرف أحد ما حدث، حتى إنّهم لم يلمحوه في ركضه السريع حول الهضبة، لكنّهم أفاقوا مذعورين في ذلك الشتاء على غمام أسود يغطّي سماء القرية، فعرفوا أنّ نذر شؤم تلوح في الأفق. ولولا اللّهب المتطاير من البيت الذي تحوّل رمادًا لما خمّنوا ما حصل.

كان سقف البيت الطيني قد انهار تمامًا؛ فالحبل السميك الذي ربطه عليّ حول عنقه، بقي محافظًا على جسده المتدلّي قبل أن يسقط مع السقف الطيني، وعليّ في جوف الحريق. ووجد أهالي القرية جثّته تحت الرماد والتراب متفحّمة، ومكوّمة مثل فزّاعة طيور في حقل خرب. لم ينجُ الكثير من البيت الطيني. النوافذ احترقت واختفت، كانت نوافذ قديمة مصنوعة

من خشب السنديان، والأرائك النحاسيّة بقي منها هيكل أسود، بعد أن أتت النار على مفارشها، كان عليّ قد أغرقها بالكاز، وأغرق غرفة جدّه وغرف البيت كلّها، لكن غرفة الجدّ كانت الأقلّ ضررًا، لأنّها كانت الغرفة الأخيرة التي دخلها وأضرم النار فيها، وكان حينها يراقب الرجل الذي سيعلّق نفسه. بقيت بعض الأوراق وفراش الجدّ، لم يحترق بالكامل، لكنّ الأشجار المحيطة بالبيت تحوّلت إلى أعمدة سوداء، واحترق الحرش الخلفي في البيت، ولو بقيت النار على حالها لاحترقت الهضبة الصغيرة التي يقوم في أعلاها البيت، لكنّ أهالي القرية أطفؤوا النيران، وكان بعض الرجال يبكون، أمّا الأطفال فكانوا يتقافزون بين ألسنة النار والدخان ويصيحون، والنساء يقفن بجانب الرجال، ويحدّقن بحزن في البيت الذي يتهاوى ترابه وخشبه وكأنّه لعبة من الرمل. وعندما جاءت ليلى من العاصمة كمجنونة، كان كلّ ما رأته مجرّد رماد ورائحة ورق محروق، مختلطة برائحة احتراق لحم أخيها. وهي حتى تلك اللحظة لم تكن تفهم ما يجري. اعتقدت بذهولها المعتاد أنّ أخاها، آخر من تبقّى لها من سلالة عائلتها، سيعود في زيارة قريبة. لم تعرف أبدًا ما كان يحدث. حتى داخل حكايتها هي لم تعرف. خمّنت أنّ الأمر سيمضي كما تمضي الأحزان في الكتب والأفلام، وأنّ الموت رحلة غياب للصورة التي تراها، وكلّ الذين رحلوا عنها ما يزالون في مكان ما يعيشون. ولكن أن يموت عليّ بعد

زيارتها ورسالتها، فهذا يعني أنّها قضت على آخر أمل لها بالتراجع عن الطيران في دوّامة الرّيح التي قذفتها في درب سعيد ناصر. وهناك في قلب قريتها، وقبل أن تبتعد السيّارة التي تحاشاها أهالي القرية خائفين، وهم يرون سيّارة أخرى ترافقها، يعرفون أنّها لسعيد ناصر، كانوا يطأطئون رؤوسهم ويخفضون أعينهم، ومن ثم عندما تجاوزتهم السيّارتان السوداوان، كانوا يحدّقون بعيون فارغة وأفواه مفتوحة. وبينما أهالي القرية يحاولون معرفة مشاعرهم، وقبل أن تنعطف السيّارة خارج مدخل القرية، كانت ليلى تريد استعادة ما قاله عليّ في زيارته. تضرب على رأسها حتى ظنّ السائق أنّها تريد اللحاق بأخيها، تريد فقط استعادة نثرات حديثه معها، وتلعن نفسها ألف مرّة. فشلت في استعادة أيّ جملة من حديثه، وبدا لها بعيدًا، غاب ذلك الأخ الجميل البهي ذو العينين الحانيتين. غاب إلى الأبد كأنّه إحدى الأرواح التي مرّت سهوًا في حيواتها السابقة. بقيت تتصفّح الأوراق المحترقة وتنبشها من الصندوق، داخل البيت الطيني، قرأتها ثم خرجت. هناك وفي تلك اللحظة تمامًا، عندما انحدرت راكضة من الهضبة تلوّح لسائقها ليغادر، وبعد أن صارت طريق القرية أبعد بقليل، تشكّلت حياة ليلى الصاوي الجديدة. الحياة التي بدأت مع غليون سعيد ناصر.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

رسائل الجدّ

نهار الحريق وصلت ليلى القرية والشمس تغيب في أفق لا متناهٍ، القرية صامتة حدّ الخوف، ومعظم أهلها انفضّوا من حول البيت الطيني، وانشغلوا بترتيب دفن لائق لحفيد الشيخ الصاوي. كانوا في حالة ذهول ممّا حدث، وهم يؤكّدون بعضهم لبعضهم الآخر أنّ هذا المكان ملعون إلى أبد الآبدين، ولا بدّ لهم من التفكير بشيء ما يحول دون وصول لعنته إليهم. كانوا أكثر من حزانى، وبعض بيوتهم المبعثرة التي يخرجون منها إلى مقبرة القرية، تنتشر حول الهضبة والبيت الطيني، وتشبه بيوتًا بدائيّة بالكاد تحتوي على حصر بلاستكيّة، وأدوات بسيطة لعيشهم. ليست بيوتهم فقط، بل بيوت كثيرة في قرى الجبل الساحلي كانت كذلك وبقيت على حالها. لم يغيّرها الزمن كثيرًا، تحوّلت إلى بيوت إسمنتيّة فقيرة تعجّ بالأطفال.

الرجال الثلاثة الذين شاهدوا ليلى الصاوي تصعد الهضبة،

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

تركوها وحيدة مع رائحة الحريق، بعد أن عرضوا عليها المبيت لديهم، وهم يترحّمون على جدّها وأخيها، ويتحاشون السيّارة المرافقة التي وقفت غير بعيد عن سيّارتها.

كان المكان يشبه عماء أسود. لا شيء فيه واضح الملامح. ربّما السنديانة والمصطبة، والغرفتان الداخليّتان اللتان احتفظتا ببعض الأثاث. ركضت إلى غرفة جدّها. الصندوق هناك. في مكانه لم يتزحزح. غطاؤه مفتوح ولونه أسود ومن حوله تتناثر الكتب. إلى جانبه وُضعت رزمة من الأوراق المحروقة. تسقط فوقها مجموعة من خيوط الضوء المشمسة، خيوط رفيعة من الشمس تتسلّل من النافذة وتستقرّ فوق الأسود والرمادي. خيوط مستقيمة بالغبار تتراقص بفعل الريح الخفيفة، وتنسلّ بين الغيوم الرماديّة الكالحة في سماء القرية، تقف ليلى بينها تهشّ بيدها الغبار. وتكتشف أنّها تريد السكن هنا تمامًا حيث الفراغ، وحيث الدعة الرخوة لاصطفاف الغبار والرماد، في نقطة ما منها بين ما تبقّى من فراغ محدود بين الذرّات الدقيقة الصغر كانت تودّ الاختفاء. أغمضت عينيها، وانتابتها قشعريرة غريبة، رغبة بالتلاشي، والطيران بين خيوط الضوء والغبار، أصابها داور خفيف، ونمال حارق صعد من أسفل رقبتها واستقرّ في عينيها، لوهلة فكّرت بثقل التلاشي الذي يمنحه لها الحشيش وغليون سعيد ناصر. وتمنّت لو أنّها تحمله معها، سيمنحها الخدر المناسب والقادر على حمايتها من نفسها.

كانت بحاجة أن تحتمي بأيّ شيء ضدّ رغبتها بالقتل الآن. قتل نفسها. فجأة ومثل ضوء بعيد لمحت تلك الشهيّة. إنّها تأتيها. شهيّة الرحيل. الزوال. رغبة الاختفاء والدخول في طيران عدمي. تمامًا مثل هذه الخيوط التي تنسلّ من بين الغيوم الرماديّة، وتستقرّ فوق الصندوق الخشبي. أمسكت الأوراق المحروقة بأطراف أصابعها، لمستها برقّة. تفتّتت جوانبها، ورأت خطّ جدّها. تحفظ الطريقة التي يكتب بها حروفه، تحفظ خطّه كما تحفظ لون عينيها. هذا خطّه وهذه هي الأوراق التي طلب الاحتفاظ بها. جلست على فراش السرير النحاسي، فسمعت أنّته المعتادة. كان صوت الأنّة أكثر خشونة من المعتاد، نظرت إلى السرير كان أسود. فراشه متآكل بفعل الحريق، وتتناثر فوقه الكتب المحروقة. نفخت في الأوراق التي تحملها بيدها ليتناثر الهباب من فوقها. وأرخت رأسها على كتفها اليمنى، مالت عليها، وكأنّها تلامس أصابع تحنو على رقبتها. بدأت تقرأ:

«في رسالتي السابقة، حاولت تقريب الفكرة إليكما؛ ما السبب الذي جعلني أبحر في الكتابة منذ بقائكما وحيدين معي. لم أجد سوى جواب أكل الدهر عليه وشرب؛ لن يسعفني الوقت لأقوم بتربيتكما حين تغادران اليفاعة. أرى نوري يقترب منّي. الخروج من قميصي حان. نحن غبار تلبسنا قمصان الأرواح. كلّي خوف ألاّ نخرج بها من هذا الحلول ببياض يليق

بنورها. الشكّ يبعدني عن اليقين في أنّ الكتابة إليكما تخفيف عنّي، أم هي تخفيف عنكما في لواحق الأيّام. هذا يبقى في علم غامض، أدرك بعضه القليل وأستره، وأجهل غالبه، لكنّي أعود إليكما بهذا السؤال: لماذا لم يكتب عنّا؟ ولماذا بعد مرور زمن طويل على موتنا المتلاحق، بقينا صامتين؟

هل تجرّأ أيّ كان على ذكر وتدوين ما حدث لنا؟».

تحترق هنا الصفحة وتختفي السطور، فترفع رأسها. تمطّ رقبتها عاليًا. تنظر في نقطة غير معروفة، تراقب خيوط الضوء المنسلّ. تتراقص عيناها مع حركة الغبار فيها، تنظر بلهفة انتظار. وتعود وتميل رأسها وتقرأ. أعلى الرسالة محترق، وبضع كلمات غير مفهومة، ثم تستطيع ليلى قراءة الأسطر الباقية، يختفي باقي الرسالة، وتتفتّت بين أصابع ليلى الصغيرة، فتمسحها برفق، وسرعان ما تتطاير وتتحوّل إلى هباب أسود. تحدّق فيما كتبه جدّها، وتحاول قراءة ما بقي من كلمات وجمل في الصفحات القليلة التي تطير، ما إن تلمسها. تقرأ أسفل الصفحة:

«الحقيقي منّا لا يحلم بسلطة.

الحقيقي منّا منذور للفكر والعقل والعدل. ولكما في الإمام عليّ ابن أبي طالب مثال».

تهزُّ برأسها وكأنّها تريد اقتلاع كائن منه، ثم تتابع وهي ترتجف، تُعيد ليلى قراءة الجملة، تتخيّل كيف تخرج مخارج حروفها من فم الشيخ، فتنثني على جذعها من شدّة ألم حارق اخترق أحشاءها. وتعاودها فكرة القتل. تحمل الأوراق، وتبتعد عن الصندوق المحروق. تجول بعينيها في المكان. تحاول فهم شيء ما، وتفكّر لماذا لم تستطع فهم ما يجري حولها يومًا، ولماذا عاشت في مكان لا يشبهها؟ لمَ كانت تتفرّج منه على حياتها وتشاهدها على أنّها فيلم بالأبيض والأسود يتحرّك أبطاله مثل كائنات آليّة؟ لماذا فعلت ذلك؟ وأين ذهبت كلّ تلك الأيّام التي راحت منها؟ ما النجم الذي أبعدها عن مسارها وجذبها إليه؟

أيكون الحبّ؟

تنظر في الورقة. تقرأ، تبحث عمّا يريد الجدّ قوله لها، بعد أن نسيت رسائله سنوات في العاصمة. كيف نسيتُ قراءتها؟ أيّتها الساقطة. تقول وتضرب على بطنها وتبكي. كان صوت بكائها يتحوّل إلى صدى عميق، فالصمت والمكان الذي تحوّل مع أشجاره إلى السواد كانا يلفظان صوتها فيبدّده الفضاء. تختفي الجمل، ثم تعود جملة أخيرة تقرؤها قبل أن تمسح بأصابعها الرسالة، فتطير من بين أصابعها: «الشريعة دُنّست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلاّ بالفلسفة..».

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

يتناثر الهباب، وتبقى الرسائل تتخلّلها بعض البقع الصفراء التي تسمح لها بقراءة ما كتب الجدّ. كانت تبحث عن حديثه معها، وفي كلّ جملة تقرؤها تنثني على نفسها وتغرق في نوبة بكاء.

لن تصدّق أبدا أنّ عليًّا قتل نفسه، وأحرق البيت الطيني. لمَ فعل ذلك؟ هل ستفهم يومًا؟ تحمل الأوراق وتمشي. ترى الجد يجلس على المصطبة. تراه بوضوح تامّ، فتبتسم وتمسح دموعها، يصير وجهها أسود.

رسالة:

«ليلى: . .

عندما قرأت اسمها انشقّ وادٍ من النور في قلبها، وارتجفت ومسحت دموعها وجحظت عيناها، وتابعت:

«ليلى: صغيرتي، ولا تلومي جماعتنا بعد أن أحاطت بهم كلّ التهم والافتراءات من زندقة، لأنّهم كانوا أصحاب إعمال عقلي وأصحاب فلسفة وطريقة. لا بدّ لهم من أن يعرفوا أنّ حالهم الآن ليس أصلهم، وأنّ التطوّرات التي جعلتهم ينجرفون عن حقيقتهم، لا يجب أن تجعلهم يغمضون أعينهم عنها.

لقد حُرِّف تاريخهم وكان بيد أعدائهم. ظُلموا، وهم الآن يظلمون أنفسهم».

الجمل ثانية، وتظهر بعد عدّة صفحات محروقة:

رسالة:

«. . . لن أدخلكما في تفصيلات ومماحكات لا طائل منها. فكما أسلفت آنفًا في رسالتي هذه، ليس مهمًّا من كتب رسائل إخوان الصفا، وليس مهمًّا أن نجلي الحقيقة حول هذه النقطة الخلافيّة. جُلّ ما أودّ إطلاعكم عليه هو رغبتي بإثارة أسئلة لديكما. فالتعصّب هو سبب كلّ عقدة ومشكلة، ولا أريد لحفيديّ وحبيبَيْ فؤادي التنصّل من أهمّيّة الاختلاف، وقبول الشيع الأخرى».

تتحرّك، فيئنّ السرير، تقف مذعورة، تدور حول نفسها، إنّها واثقة من الصوت، لم يكن أنين السرير، هذا صوت جدّها، وهذا الأنين تعرفه عندما كان يتقلّب في فراشه، كان يقول: زعيق، ويضحك، تذكر ضحكته وهو يقول للسرير: لا تزعق فأنت تنوء بحمل كبير. ترتجف، وتبتعد عن السرير وتقف أمام النافذة في مواجهة خطوط الضوء والغبار.

رسالة:

«مضى نهار آخر، وأنا حبيس السنديانة، وحجر الرحى وجبال البرد. كما قلت لكما، صدري مثقل بحجارة، وأودّ أن تعرفا أنّكما بمثابة فريق واحد بالنسبة إليّ. عليّ وليلى أنتما شقّا

الروح. ليلى: لن أرضى بوجودك بعيدة عن ديننا وعلومنا، كما فعلت كلّ النساء. لك أن تسامحي شعبنا عندما يحوّلهم القتل إلى كائنات خائفة. لا تنخدعي ليلى: كلّ ما ترينه من حضور أبناء جماعتك هو قشور لا تمتّ لحقيقتهم بصلة. واعلمي أنّ هناك ترتيبًا للوجود لدينا، اضطررنا إليه. وهذه الترتيبات هي ترتيب التكوين وترتيب العالم الماورائي وترتيب القدرة وامتدادها. الترتيب الأوّل يحكي عن الماء والتراب والهواء والنار؛ وهو التركيب الطبيعي للوجود (حن، بم، طم، رم) والرموز الباقية (جن، جان، بر رحيم) فهي تعني الجنّ والجانّ أوّل الخلق. واستخدمت هذه الرموز كشيفرات ووسيلة تعارف بيننا.

الترتيب الثاني: له علاقة بجوهر الفلسفة الدينيّة وغاياتها، أي ترتيب العالم الماورائي، وهو عالم العقل الفعّال. ومسمّياته مأخوذة من القرآن الكريم «رتق، فتق، فسخ، نسخ، رسخ، خلق، معاد» فأمّا الرتق والفتق فمأخوذ من الآية «كانتا رتقًا ففتقناهما». وفي الفلسفة: الفتق والرتق هو التناهي والتشكّل، أمّا الفسخ فيعني التقسيم، والنسخ هو التشابه، والرسخ يعني الموجودات وماهيّتها وهويّتها والمعاد والخلق، ويعني البحث في كلّ موجود من موجودات هذا الكون. والترتيب الثالث سأورده لكما في معرض حديثي عن إخوان الصفا.

والرموز هذه التي استخدمناها لم تكن كفرًا ولا زندقة، كما اتُّهمنا، بل كانت صيغة سرّيّة أُجبرنا عليها حتى نأمن الموت والمذابح. كلّ ما لدينا مرمّز وباطني ومعروف بأنّه يجب البحث في ما ورائيّته...».

تتوقّف ليلى عن القراءة، وتعود للانثناء على جذعها. يرتطم جبينها بالنافذة، تتخيّل أنّ عليًّا يقف إلى جانبها، يذرّ الهباب ويقرأ، أو ربّما يكون جالسًا معها، وتخاف من كلمات الرسالة الأخيرة. فقد شعرت لوهلة أنّ الجدّ يراقبها، ولا بدّ أنّه شاهد ما فعلته بنفسها وبأخيها. رمت الصفحة المحترقة التي لم تكن بحاجة حتى للرمي. كانت بحاجة لتتحسّسها فتنفرط وتلتحم بالهواء. مسحت عينيها، وتمعّنت في الصفحة الجديدة، فانفرطت الأوراق السفليّة في باطن كفّها. وتحوّل قسم كبير منها إلى غبار لم تتركه الريح على حاله، ذرّته بعيدًا وبقيت في كفّها بضع ورقات صفراء، طرفها العلوي وطرفها السفلي محروقان، وفي المنتصف بقيت سليمة. لعنت حظّها من جديد، وهي تبعد خيالات الجدّ وعليّ عنها، ثم ارتخت ثانية وابتعدت عن الحائط الطيني المنهار، وتوجّهت إلى سنديانة الجدّ التي احترقت معظم أغصانها، ثم جلست على الأرض، فصارت قدماها بلون الهباب مثل وجهها، وفردت كفّيها في حضنها، تحدّق بذهول فيما تبقّى من ورقات محروقة، وتراقب بعد ذلك الخطّ الأسود الذي صنعته آثار الورق الطائر من يدها. تمعّنت في الجملة

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الواضحة في الورقة، تململت، تحاول معرفة ربط كلام الجدّ ببعضه، وشعرت بالضجر، وخمّنت أنّها ربّما لن تعثر على ما يريح قلبها، فتابعت القراءة، ولم تعثر على ما تريد. تنتهي الرسالة دون ذكر لها أو لأخيها، فتذروها مع الرّيح، وتتفحّص بدقّة الرسالة التي تلتها. كانت كلماتها غير واضحة، لكنّها فهمت السطور الثلاثة الأخيرة، لماذا كتب لهما كلّ هذا الكلام؟ عندما قرأت الصفحة التي تتحسّسها، قرّرت في لحظة حزن، أن تذرّي الباقي:

«.. سواء أدركناها أم لم ندركها، الحقيقة موجودة في ذاتها، والعقل سبيل للمعرفة» ذرّت الأوراق واستبدّ بها الغضب، فصارت تهشّ الهواء من حولها، وتبصق في الهواء وتبكي، ولم تجد ما كانت تبحث عنه. ولوهلة شعرت بحرقة في أسفل بطنها، جعلتها تصرخ: لمَ رميتُه؟

كانت تنظر إلى الهباب، لا تصدّق أنّها رمت ما تبقّى من أوراق، لكنّها قالت لنفسها: ما الذي أراده من هذا الكلام؟ هل قرأ عليّ الرسائل؟ ولِمَ نسيتها كلّ هذا الزمن؟

كانت تختنق تحت ثقل جبل؛ فقبل هذه اللحظة كانت تشعر أنّ سعيدًا هو كلّ ما أرادته. ولم تهتمّ إن كان من أعداء جدّها وناسها، أم كان حاميهم. وهي لا تريد الدخول في أتون العذاب هذا. لقد أحبّته منذ زمن لا نهائي؛ وهذا يكفيها. أو

اعتقدت أنّه يكفيها. في تلك الدقائق القليلة وهي تتلفّت إلى البيت الطيني وتلوي جذعها من شدّة ألم استقرّ في بطنها، وسكاكين تقطع أمعاءها. في تلك الدقائق انسلّت روحها منها وخرجت عن مدارها. ركضت بسرعة، تنحدر من الهضبة لا تنظر إلى الخلف، تشعر أنّ حبلاً من نار يلتفّ حول عنقها. سيّارتها تنتظر في أسفل الهضبة. لوّحت من بعيد للسائق، وهي تلهث، فأدار محرّك السيّارة استعدادًا للانطلاق.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

ليلى والسباحة في الخدر

الحياة الجديدة بدأت مع غليون سعيد ناصر.

كان غليونًا من طراز رفيع، معشّق بخيوط الذهب، لونه أبنوسي ورائحته زكيّة، وهو الغليون نفسه الذي بقي في حوزة ليلى حتى لحظة خروجها صباح البارحة من السجن، ما يزال ملفوفًا بمحرمة قماشيّة نظيفة مطرّزة، صنعتها إحدى السجينات، وطرّزتها بخيوط ملوّنة من نوع «دي إم سي». خطوط تتحوّل إلى فراشات وطيور، وفي الوسط اسم ليلى مطرّزًا بألوان مختلفة، وصلت نهاية الاسم بأجنحة فراشات. كانت السجينات يرسمن كلّ الأشياء التي توحي أنّ هذا المهجع ليس سجنًا، بل هو مدرسة لتعليم الأطفال الرسم. وعندما انتهت منه السجينة ووقعت عينا ليلى عليه، قرّرت أن يكون بيت الغليون الذي احتفظت به. فقد كان الشيء الوحيد الذي استطاعت حمله من أثر سعيد ناصر.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

كانت تبحث عنه في رائحة الغليون التي لم تحدّد تسمية لها. فهي ليست رائحة التبغ المحشوّ فيه، ولا كلّ أنواع الحشيش. كانت رائحة الخشب نفسه. ذكر لها سعيد يومًا اسم الخشب الذي صُنع منه، لكنّها نسيت، وعبثًا حاولت في أيّام سجنها معرفة ذلك الاسم. محاولاتها ذهبت عبثًا، لأنّها فقدت جزءًا من ذاكرتها.

في الحفرة الصغيرة التي يشكّلها انحناء الغليون مع ساقه، كانت ليلى وسعيد يتناوبان على السعادة، أو هكذا قال لها، وهو يريد حثّها على الحكي. كانت اللعبة بدأت منذ اليوم الذي حكت فيه ليلى عن حياتهما السابقة معًا، واستطاع ملامسة جنونها وشغفها في اختراع الحكايات. خاف بداية، لكنّه صار يشعر بحاجته لسماعها، ومعرفة أخبار الحيوات التي مرّت بها، جعلها تدخّن الحشيش دون أن يخبرها. قال لها: هذا نوع ممتاز من الدخان! يومها تحوّلت إلى جنّيّة ترقص بجنون معه. علّمته كلّ أنواع الرقص. الأنواع التي لم تكن تجيدها أصلاً، ولكنّها حفظتها من متابعة الأفلام وقراءة الروايات. كانت تقول له: إنّ الروايات والأفلام تشبه عرضًا سريعًا لدوران ألف سنة على رؤوس البشر، وقادرة على تحويل كلّ الخرافات التي تقلّل من الشأن الإنساني أمام قوّة الإله إلى هباء. وهي دفاع البشر الضعيف ضدّ فنائهم المحتوم.

وكان ينظر إليها مفتونًا بجنونها وخيالها الجامح، فيطلب منها الصمت ويأخذها بين ذراعيه، وهما يدخّنان الغليون، ويدوران ثم يسقطان ويقومان من جديد. ويطلب سعيد كما يحدث في كلّ مرّة، وكما صار فيما بعد، طقسًا ملّته ليلى، أن تعيد على مسامعه حكاية موتهما في حياتهما السابقة.

ليلى لم تكن امرأة غبيّة؛ عرفت أنّ سعيد ناصر أراد أن يكون هو نفسه الرجل الذي طعن امرأته في قلبها، استجابة لرغبتها في تفضيل الموت على الاغتصاب، وصارت في كلّ مرّة تضيف على الحكاية قصصًا جديدة يطير فرحًا بها، ويتوقّف في كلّ مرّة ليطلب منها إعادة المقاطع الجديدة كأن تصف له وجه ابنتهما الكبرى الشقيّة السمراء التي تلعب في حضنه، وتوقظهما دائمًا عند منتصف الليل، وتحشر نفسها بينهما على فراشهما. كان يتذلّل لها وهو مخمور بالويسكي، ويضمّها في حضنه ويحمل لها الغليون ويقرّبه من شفتيها بهدوء، ثم ينزعه ويراقب سحابة الدخان الذي يخفي وجهها عنه، ويطلب منها وصف لون عينيه، إن كانت تتذكّر، فتصف له عينين جميلتين حادّتين، وتتمتّعان بنظرة ثاقبة تفيض رجولة ورغبة فينتشي، لكنّها تهمهم بعد سهرتهما، وعندما تستيقظ في الصباح، أنّ ما وصفته هما عيناه حقيقة، وليستا عينيْ ذلك الرجل الذي تلبّس روحه قبل مئات السنين.

صارت ليلى تعرف متى تتحدّث، ومتى تصمت، ومتى ترقص، أو متى يكون جاهزًا لفراشها. حفظته. كلّ ما أراده سعيد أن يتخلّص من سطوتها عليه، فلا يريد تثبيت تفاصيله معها. يغمض عينيه وهو يهمّ بتقبيلها، ويشدّ على جفونه كلّما زادت رغبته بها، ولا يفتح عينيه حتى تنتهي رغبته فيها، فيتهالك على نفسه، ويفتح عينيه، ولا ينظر في عينيها. أمّا ليلى فتترك عينيها مفتوحتين على اتّساعهما. تحدّق بكلّ تفاصيله. تحفظ جسده، حتى تكوّرات بطنه، والتجاعيد الصغيرة حول شفتيه، وذلك الانتفاخ البسيط المحبّب إليها بين بروز عضوه، وأسفل بطنه، تحفظ كلّ ما فيه، حتى التفاف أصابع قدميه أحدهما حول الآخر. كانت تقصّ له أظافره وتبردها، وتقبّلها إصبعًا إصبعًا، وتشترط عليه في كلّ مرّة يضاجعها أن تمسح بلسانها كامل مساحة جسده. تقول له وهي تضحك: أنظّفك مثل قطّة شباطيّة.

تحديدًا في جلسات التحشيش تلك والغليون ينتقل بين شفاههما، كان يفتح عينيه، وكانت هي من تغمض عينيها وتحكي. يراقب اختلاجات وجهها، وحركة يديها، ولا يسمح لها بإمساك الغليون. يلقمها إيّاه، مثل رضيعة، ويصغي بعيون متوهّجة، ويهمس لها عندما تصمت: أكملي. وهذه الكلمة بحدّ ذاتها لم تكن لتنتهي إلاّ في عناق وقبلات محمومة بينهما، حيث تكون غير قادرة على الحكي. تتلعثم في الكلام، ويكون ذهنه قد تبخّر، وتندفع في عروقه الرغبة.

بعد ذلك اعتادت ليلى في وحدتها، وسعيد ناصر منهمك في أعماله ومسؤوليّاته، أن تجلس مع غليونها ورائحته، عندما يكون عملها قد انتهى في أحد المسلسلات، وانتهى نهار طويل ومتعب من الوقوف أمام الكاميرا، فتقوم بالاسترخاء على الطريقة التي اعتادتها مع الغليون السحري، وبضع كؤوس من الويسكي. ولأنّها لم تكن تريد التفكير، وتحديدًا بإحساسها المذلّ الذي يطفو على سطح قلبها، كانت تبحث في بيتها الكبير عن مرآة، لتقف أمامها وتنظر إلى نفسها. ولم تكن لتجد إلاّ مرآة الحمّام التي تكره برودتها، والمرآة في غرفة نومها والتي تمقت اعتياديّتها، فلا تنظر في وجهها إلاّ في أوقات استعدادها للخروج وللتزيُّن. وفي المساء الذي وصلت فيه عائدة من القرية تبكي موت عليّ، افتقدت مراياها. كانت عيناها محمرّتين، وشفتاها تنزّان دمًا وتؤلمانها بشدّة، فقد اكتشفت أنّها كانت تعضّ شفتيها طول طريق العودة من القرية، وهي تلتفت خلفها، وترى الطريق التي لن تعود إليها. الطريق المنحنية التي تدخل القرية بوداعة. وصلت العاصمة، وقفت أمام باب السيّارة، والسائق ما يزال واقفًا ينتظر أوامرها، طلبت منه الانصراف. قال لها إنّه سيكون في الصباح أمام البيت. ردّت بنزق: لا تأت إلى هنا أبدًا. ثم ركضت وصعدت الدرج، وعرفت أنّ إحساسًا بالذنب سيقتلها منذ هذه اللحظة. وعندما ضغطت زرّ المصعد، وانفتح أمامها، لمحت وجه عليّ في الداخل على مرآة المصعد،

فارتجفت، وصعدت الدرج الطويل. كان بيتها في الطابق الخامس في بناء مكوّن من أربعة عشر طابقًا، مطلاً على المدينة. أمامه منطقة المزّة ومن خلفه جبل قاسيون. وقفت لاهثة أمام باب بيتها. كان عليها أن تقوم بأصعب عمل، وهو فتح حقيبتها وإخراج مفاتيح البيت، ووضع المفتاح في القفل ثم الدخول. انقصفت ركبتاها، وسقطت على الأرض. فتحت حقيبتها ونبشتها بعصبيّة، وهي ما تزال تجهش بذلك الصوت الذي عرفت لاحقًا أنّه مخيف، عندما خرج الجيران وصاروا يساعدونها على النهوض، ويبحثون في حقيبتها عن المفاتيح، وبعد وقت ليس بالقصير عثروا على المفتاح، ودخلت البيت.

نسيت إن كان الجوّ حارًّا أم باردًا. أشعلت التدفئة المركزيّة، لأنّ بردًا تكتك في عظامها، وخلعت عنها ملابسها، وجلست في الصالة الفسيحة، وصبّت لنفسها كأسًا من الويسكي، وكان أمامها الغليون. وبحركة ما بين الصحو والغياب جرّت قدميها، وقامت، وفتحت الدرج الخاصّ بسعيد ناصر، وأخرجت الكيس المخصّص لسهراتهما وليالي الحكايات. الكيس الذي صار طعامها لأيّام.

كانت تدخّن الغليون لتبتعد عن حكاياتها، وتحاول استرجاع آخر صورة لعليّ. كيف كان شكله؟ كان يجلس على طرف الأريكة الأخرى؟ كان بالكاد يجلس على طرف الأريكة!

تسأل نفسها. ما الذي كان يريده؟ يريد العودة بها؟ لا تفلح في استعادة صورته، وتشهق ثانية وتغرق في نوبة بكاء. تحاول رسم خطوط وجهه، أو تَذَكُّر نتفٍ من حديثه، تذكر أنّه يريدها أن تعيش بسعادة. تخبط على رأسها وهي تدور حول نفسها شبه عارية، مغلقةً نوافذها، بعد أن قطعت أسلاك الهاتف وأطفأت الإنارة، وأشعلت شمعة فوق شمعدان من العاج، بالكاد تضيء بقعة صغيرة أمامها، قالت وهي تهرش صدرها: لا بدّ أن أستعيده في لحظة. لكنّ تدخين الحشيش كان يجعل رأسها أكثر ثقلاً، ودمها جامدًا، فترتخي وتثقل حركتها، وتغيب في عالم متداخل الوجوه والأمكنة والألوان.

ما الذي حدّثني عنه غير السعادة.. الحقّ في الحبّ؟ لكنّه ذكر شيئًا ما عن سعيد ناصر.. أذكره؟ لماذا عندما بدأ بذكر سعيد لم أسمعه؟ ولم أعد أرى إلاّ شفتيه وهما تتحرّكان: ماذا قال؟ تصرخ بصوتٍ عال: ماذا قال؟ لم أسمعه، لِمَ تركتُه يرحل؟

تشعر فجأة أنّ عدسة كاميرا مسلّطة على وجهها. تخبط الأشياء حولها. ترتطم بالكراسي، بالتحف. تسقط أرضًا ذاهلةً، وكأنّها عاشت في منام طويل، واستيقظت فجأة على أنّها امرأة مختلفة. تتلمّس نفسها، وتقول إنّ ما حدث هو وهم، مثل كلّ الأوهام في رأسها، وما رأته اليوم في القرية لم يكن سوى

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

عرض مسرحي آخر من عروض عقلها المجنون. وربّما هي تحكي الآن إحدى الحكايات لسعيد ناصر، أو ربّما تعيش في حياة أخرى، وسوف تستيقظ بعد قليل. إنّها هي ما زالت ليلى، وعليّ ما يزال هناك ينتظر في البيت الطيني.

لكنّها لم تكن سوى ليلى الممثّلة. هكذا قالت لنفسها وهي تتلمّس جسدها، وتنادي عليًّا. تطلب منه مسامحتها. لا تعرف لماذا أرادت ذلك. تشعر بوخزات حادّة في قلبها، لم تكن تعي ما يحدث من حولها، بعد أن بقيت لسنوات في عالمها البهي المطرّز بحكايات الليل. نسيت حلمها بالتحوّل إلى ممثّلة محترفة. نسيت كلّ شيء، وفكّرت في أنّها تريد أن تكتب نهاية الحكاية بينها وبين سعيد، حتى تهدأ روح عليّ. قد تسامح نفسها على ما فعلته بنفسها، لكنّها في تلك اللحظات، لم تسامح نفسها على نسيان عليّ، ولن تستطيع أبدًا أن تفعل. وستسأل نفسها وهي تسافر إليه الآن. السؤال الذي بقي معلّقًا في حنجرتها طوال سنوات السجن: هل هي ذاهبة لقتله أم لعشقه من جديد؟

كان جزءًا منها، وألقته جانبًا، كما فعلت لاحقًا بكلّ ما تبقّى منها. لذلك بقيت أيّامًا على هذه الحال، تخبط وتدخّن الغليون والحشيش وتحتسي الويسكي وتصرخ بخادمتها، ولم تصحُ لولا مجيء سعيد ناصر بعد يومين، وهو في أشدّ حالات قلقه. كانت

مرميّة وسط الصالة. المصباح الصغير إلى جانبها، وتسبح في بركة من القيء والغليون في يدها، وقد اصطبغ جلدها ببقع حمراء غريبة. وعدا ذلك، كانت تبدو كأنّها تنام بعمق.

منذ تلك اللحظة عاشت ليلى بعيدة عن سعيد مع أنّه لم يفارقها. بقي لأيّام يعودها صباحًا ومساءً، ويعتني بها، ومنع عنها الغليون، وهي لم تكن تنظر حتى في عينيه، وهو لم يفعل. كانت صورة بركة القيء ما تزال عالقة في قلبه، ودموعها التي لم تتوقّف، وصورة عليّ التي أثقلت قلبها والحكايات التي تناقلها أهل القرية عن طريقة موته. وعلى الرّغم من أنّ كلاً منهما اعتقد أن الحزن يمرّ، وهو جزء من العيش، ولا بدّ أن يمرّ ويصغر مع الزمن، ويهرب بعيدًا كلّ صباح، إلاّ أنّ شيئًا لم يغيّر هذا الحزن. هي عرفت في أعماقها أنّها لن تعود إلى ما كانت، وهو صار يشعر بثقل في قلبه كلّما التقى بها. لكنّهما معًا لم يدركا إلى أيّ حدّ كانت الحياة تسير بهما: مبتعدين قاتلين، ينتظر أحدهما الانقضاض على الآخر. وهو في أعماقه، كان يخاف في ليالي الهلوسة والتحشيش بينهما، وهي تحكي الحكايات، أن يعترف لها. وخاف أن يسألها عنه، أو يأتي على سيرته، ولم يتحدّثا عن موته. كلاهما صمت وعرف أنّ الحديث عن عليّ محظور عليهما، وعندما عادا في أزمنتهما اللاحقة، بعد أن استعادت ليلى عافيتها، واستطاعت المشي على قدميها، عرفت أنّ ما مضى لن يعود أبدًا.

الفراق

حدث ذلك في ليل رابع يوم، بعد مضيّ ثلاثة أشهر على انتحار عليّ. كانت كوابيس الأشجار المحترقة والبيت الطيني قد تحوّلت إلى ليالي ليلى ونهاراتها. وحينها لم تكتف بالغليون، صارت تستخدم الإبر لحقن نفسها، والنوم والاسترخاء. لم تسمح لأحد برؤيتها. بقيت وحيدة في بيتها. حتى سعيد عندما كان يحضر في آخر الليل، يجلس قربها بصمت. وعندما تجرّأ في إحدى المرّات أن يلمس يدها، ارتجفت وصارت تبكي بشدّة. لذلك كان يقوم بتأمين كلّ ما يلزمها من احتياجات، ويغادرها مسرعًا. وشيئا فشيئًا تباعدت زياراته، وصار يقضي عندها وقتًا قليلاً، يتفحّصها بعينين حزينتين لدقائق، ثم ينصرف. يتمتم مع الخادمة بكلام مبهم. صمته كان نوعًا من التكفير عن ذنب شعر به. ذنب لم يعترف به، لكنّه في كلّ مرّة يرى فيها حزن ليلى العميق، كان العذاب مثل سهم ناري يشطره نصفين. وعندما زارها في أحد الأيّام، ووجدها زيّنت نفسها، وضحكت

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

بخفوت، ومدّت يدها إليه، تنهّد، وزفر زفرة الأمان، فقد عادت أخيرًا، وسوف يرحل شبح الأخ المتأرجح تحت سقف طيني متهدّم.

كان ذلك إذًا، في ليل اليوم الرابع من الشهر الثالث، وقد مضت الكثير من الليالي، وليلى غائبة بين غليونها وكوابيسها، وإحساس بالبلاهة أسعدها. وكالعادة كانت خادمتها تنام بعمق في الغرفة الصغيرة، تكوّر جسدها وعظامها الناتئة، وتضع إلى جانبها منبّهًا صغيرًا يوقظها في الساعة السابعة، حيث تستيقظ وتقوم بشراء ما يلزم البيت من حاجات، ومن ثم تعود، وبالكاد تحادث سيّدتها، إلاّ عند الضرورة. كانت صامتة، ونادرًا ما شعرت ليلى بأنّ إنسانًا يعيش معها. لا تعلّق على ما يحدث ولا تسأل. فقط عندما يقوم سعيد ناصر باستجوابها، تتحدّث. وعندما تفعل ذلك لا تصمت حتى يُطلب منها ذلك.

في تلك الليلة انتظرت الخادمة حضور سعيد، وعندما دخل غرفة نوم سيّدتها، ذهبت للنوم وأغلقت باب غرفتها. كانت ليلى في سريرها الواسع، تنتظر قدومه، وكأنّها أفاقت من نوم وصارت أكثر شحوبًا. وجهها تتخلّله عروق زرقاء. أعلى الجبين، حول الشفتين، ورأس الخدّين. جلس قربها وصبَّ لها كأسًا، ومسح على جبينها، يتفحّصها بقلق. كانت صامتة وعيناها بدتا أقلّ توحّشًا، ولم يكن الفراغ يشعّ منهما. استعادتا

قليلاً من بريقهما، لكنّ السائل الرقراق فيهما كان ما يزال ناشفًا.

ـ عدتِ أخيرًا.

قال بصوت جهوري فرح، وارتشف من كأسه، فأحسّ بحرقة. ابتسمت باقتضاب، وارتمت على صدره؛ تريد استعادة نفسها. قامت من سريرها، وجلست على الأريكة، وأومأت إليه ليجلس جانبها. قام بألفة وطواعيّة، وحمل الطاولة الصغيرة التي رتّبت الخادمة عليها كلّ ما كانا يحتاجانه في لياليهما الطويلة. كان سعيد خائفًا منها، أخبره الطبيب عن إدمانها وحالة الضعف الذي وصلت إليه نتيجة تعاطيها الهيروبين، وطلب معالجتها، لكنّ سعيدًا قرّر تأجيل الحديث في الأمر. في تلك الليلة بالذات لم يكن ينوي التحدّث في هذا الأمر، لأنّه أرادها أن تحكي، واشتاق إلى حكاياتها في حضنه، تلك المرأة ذات الوجه الطفولي البريء والجسد الساحر، والتي تختلط معها الطفولة بالشهوة، وبأشياء لا يمكنه تحديدها بدقّة. حدّثها عن وحدته من دونها، والأيّام الطويلة التي مرّت وهو يفتقدها. كانت تنظر إليه بوله، ومن ثم تصير نظراتها باردة وحياديّة. وعندما تمسّ أصابعه، كانت ترتجف، وتشمّ رائحة التراب والحريق، فتجفل من جديد. وعندما تعاود المحاولة تحبس تدفّقًا حارًّا في صدرها، فتسعل سعالاً قويًّا. لكنّ سعيدًا كان مصرًّا في تلك

الليلة على استعادتها. يلقمها الطعام، ويمسك بكأس الويسكي، ويجعلها ترتشفها، ثم يشعل الغليون، ويطير معها في فضاءات الغرفة التي تحوّلت إلى كرة ضبابيّة، وأثناء محاولاته التي حمّستها قليلاً، لم يلمح الارتجافات اللذيذة في عينيها الجامدتين، ولم ينتبه إلاّ لضحكاتها التي تفلت، وهي تحاول صنع جملة واحدة في بداية الحكاية، فتقع في تأتأة مضحكة تطلق على أثرها ضحكات فاجرة، وترتمي على الأرض من الضحك. كانت سعادته بدأت وهو يستعيدها. يلمسها ويصدّق أنّ الشؤم الذي رافقهما زال، وقد عادت إلى ما كانت عليه، وسينعم بها خلال أيّام كثيرة قادمة. كان يتوق لحكاياتها، وعودتها إلى ذلك الزمن الذي صمتت عنه. قلتِ لي إنّ واحدًا من أعمامنا نجا من المذبحة؟ قال لها وهو يمسح جبينها برفق. حدّقت فيه بذهول وكأنّها تريد فهم ما يقول. ضحك وسألها ثانية بالرقّة نفسها التي بدأت تنفده الصبر: نسيتِ؟ قال وقبّل جبينها. أيّة مذبحة؟! قالت باستنكار. المذبحة التي متنا فيها أنا وأنت في حلب قبل مئات السنين! قال وهو مستلذّ بلعبته وتسليته. المذبحة؟ قالت. همهمت بكلام غير مفهوم، وسوّت ثوبها الشفّاف الرقيق الذي غطّى جسدها والذي لا ينفر منه سوى نتوءين صغيرين، لحلمتيها اللتين تبدوان مثل حلمتي مراهقة صغيرة. خبطت رأسها وصمتت، وغرقت في نوبة ذهول، فانتظرها واقفًا.

بعد وقت ليس بالقصير، وهو واقف ينتظرها، كانت صامتة، كأنّه غير موجود، تحدّق في أرض الغرفة. جلس إلى جانبها، وأمسك وجهها ورفعه عاليًا محدّقًا في عينيها. كانتا حادّتين تنظران إلى الفراغ: انظري إليّ. قال بصوت أجشّ غاضب. لم تستجب. عيناها مصوّبتان نحو نقطة ثابتة كعمياء. ألن تحكي لي اليوم؟ قال.

ـ ولا في أيّ يوم آخر.

قالت بصوت قوي حادّ وخشن، كأنّ الذي يتكلّم امرأة مختلفة. كانت تنظر في عينيه بقسوة وكراهية. لا تعرف من أين خرج صوتها، هل من حلقها أم من بطن امرأة أخرى؟ كانت مذهولة بكلماتها. لكنّها صدّقت نفسها، ولن تحكي بعد الآن. تمالك غضبه، وعاد للالتفاف حولها، ضمّها برفق من كتفيها، وقبّل رأسها. ستحكين ليلى. قال بلهجة آمرة. صمتت. فنزل برفق بيديه يتحسّس جسدها النحيل والضئيل، ويقبّل شعرها وظهرها. فارتجفت وأبعدته عنها، صرخ:

ـ ما الذي يحدث.. قولي.. هل أغضبتك؟

ـ أنا في حداد. قالت بحياديّة، فأمسك كتفيها وهزّها بعنف:

ـ الحداد انتهى، ولا وقت عندي لدلالك.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

قال كلمته وابتعد عنها، ووضع بعض قطع الثلج، وصبّ فوقها الويسكي، وبدأ يدخّن غليونه. نظرت إليه بتحدّ واستغراب. قامت من مكانها، وهجمت عليه، أخذت الغليون، ورمته على الأرض، ثم حملت كأس الويسكي، وكسرته، تناثر الزجاج، وارتجف سعيد، وقف خائفًا، تذكّر لحظة خوفه التي لا ينساها، الإحساس نفسه الذي سحب خيط الحياة من قلبه لدقائق، عندما فتح نافذته قبل سنوات طويلة، ورأى الجنود يحيطون بمنزله، تذكّر تلك اللحظة وهو واقف أمامها، كانت تقف أمامه بصمت، تحدّق فيه بقسوة، وتتنهّد بصوت مسموع وبقوّة، يداها ممدودتان، وكأنّها تدعوه للقتال، صرخ ثانية:

ـ ماذا تريدين؟ قال وهو يرتجف.

ـ ما حدث بينك وبين عليّ. تقول بثقة.

ـ لم يحدث أيّ شيء.

ـ هل كنت من أمر باعتقاله؟ هل أنت من فعل به هذا؟

ـ هو فعل ذلك بنفسه، أخوك هذا مجنون، وأنت مجنونة.. أنتم عائلة مجانين.. لا دخل لي بما حدث لعليّ.. عرفت من الآخرين أنّه سجين.. لا تحمّليني أخطاء أخيك.. حاولت مساعدته وهو رفض..

ـ كيف حاولت؟

ـ كان هذا منذ زمن طويل.

ـ كيف حاولت؟ تقول بإصرار.

ـ هذا أمر لا دخل لك به، هذا عملي وجزء من واجبي ومهامّي الوطنيّة.

ـ الوطنيّة. تقول بسخرية، وتهجم عليه، تضربه على صدره، تصفع وجهه، وهو صامت لا يتحرّك. كان مذهولاً بقدرته على احتمال هذه المرأة، والأدقّ كان خائفًا من أيّة حركة سيقوم بها، إنّه جاهز لقتلها فورًا. هذه المرأة تضربه، هو الذي لم يتجرّأ مخلوق على لمسه. هدأت بعد وقفة حياديّة، كان لا يزال مصرًّا على استعادتها، بقي واقفًا باستقامة. وعادت إلى سريرها. اقترب منها. أمسك يدها وقبّلها مع رغبة اجتاحته لعصرها وتفتيت عظامها، لكنّه قرّر أن يكون أكثر ذكاء، قَبّل أصابع كفّيها، وقال: أحبّك، ولن أعيش دون حكاياتك. لا تردّ، تنسلّ من يديه، ترمقه باستهزاء وتنزلق في فراشها مثل سمكة، ثم تتكوّر حول نفسها وتدير ظهرها، وتعيد جملتها:

ـ لن أحكي لك بعد الآن.

ـ ستحكين لي... هيّا قومي.

ـ هل تظنّ أنّي أقرّر الحكي، الحكي يخرج عندما يريد ذلك، أنا لا أقرّر. هو من يقرّر، الحكايات من تقرّر، وهي من

امتنعت، لم تعد تريد الخروج من مكانها، إنّها تختبئ.

يزداد غضبه، يقول بسخرية:

ـ وأين تذهب حكاياتك عندما تختبئ؟

ـ تختبئ في الزمن في انتظار من يستحقّها.

ـ لا أحد يجرؤ أن يختبئ منّي..

تغمض عينيها، وتضيف:

ـ أريد أن أنام، اذهب.

يحدّق فيها مذهولاً، لدقائق يقترب ويبتعد عنها، ثم يقف بعيدًا، يتراجع نحو الباب، وهو غير مصدّق ما تفعله هذه المرأة به، يراقب تكوّر ردفيها، وانسياب ثوبها فوق فخذيها، يهتزّ جذعه من فرط رغبته فيها، يقرّب فخذيه من بعضهما البعض. ثم ينتفض ويقفز من مكانه، يخبط الأشياء من حوله. ينبت كره عميق في قلبه. يودّ لو تتمزّق أمامه، وتختفي من حياته، لو أنّه يستطيع محوها عن وجه الأرض ليستريح.

تستفيق وتنتبه إليه. يخبط كلّ ما حوله. في لحظة ما استعاد غضبه، وهو يركل جسد عليّ، ويسحق رأسه تحت قدميه. وقفت تنظر إليه بذهول، وبكتْ بصوت عال. ترك أثاث البيت، استفزّته دموعها، وركض إليها هائجًا، عندما اقترب منها، مزّق ثوبها الشفّاف، كانت باردة. لم تقاومه. رماها على السرير

فارتمت كخرقة، وبعد أن ارتمى عليها، وهو يصفها بأبشع الألفاظ، كانت أكثر برودة. وبعد قليل عندما هدأت ثورته، وهو يلجها، أمسكها بوجهها، فكانت عيناها تحدّقان في الفراغ، وانتقلت برودة جسدها إليه، فقام فزعًا كأنّه يبتعد عن جثّة. ارتدى ثيابه على عجل. راقبته بحياد. جسدها ساكن تمامًا كما كان عندما قام هو بتثبيتها على الفراش. شعرها منكوش. يداها ممدودتان، وساقاها منفرجتان بقوّة، حتى كأنّهما ستنفصلان عن جسدها. شعرت بتدفّق هواء عبر فرجها. لم تغلق رجليها، وهي تراقبه. آخر ما لمحته منه، وهو يركل ما حوله، كتفاه العريضتان، تختفيان في الظلام، بعد أن فتح الباب بقوّة، وخرج يكسر أثاث الصالة. كانت تنظر إليه بفزع، وصوت مبحوح يخرج من حنجرتها ويتحوّل إلى حشرجة.

في ليال قادمة، ستكون مذهولة ممّا حدث، على الرّغم من أنّها حاولت التمتمة بكلام ما، وهو يموج ويعتليها، وصارت شفتاها تنفرجان وتنغلقان، مع ألم يحرقها من حركة إيلاجه فيها. فيما بعد ستعرف، أنّها أرادت أن تقول له كلامًا كثيرًا، بقي في حلقها مثل مشنقة معلّقة في رقبتها.

العِداء

كانت ماري بحاجة لتأمين ثياب لائقة لضيفتها. لذلك، وبينما ليلى تنتظر في الفناء، نكشت خزانتها الحديديّة، وجلست القرفصاء. الأمّ العمياء تحاول تخمين ما تفعله البنت، فتجلس أيضًا في سريرها، وتحرّك رأسها باتّجاه حركة طيران الثياب. تمسك ماري بالثوب تفرده أمامها، تقلّبه وترميه في الهواء خلفها. بعد وقت قصير كانت الغرفة الصغيرة قد تحوّلت إلى ساحة صغيرة لرمي القمامة، أو هكذا كانت تبدو من شكل الملابس العتيقة المرميّة في كافّة الاتّجاهات:

ـ ماري هلاّ توقّفت عن رمي الثياب؟

ـ لا أستطيع أمّي.. ملابسها ممزّقة.. لا يمكن.. الخروج بها..

ـ خذي فستاني. وأشارت العمياء إلى السرير.

توقّفت ماري باندهاش، وانتبهت إلى حركة يدي أمّها التي

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

كانت تطوي فستانها الأسود الوحيد والأنيق الذي احتفظت به ليوم ما، يوم لا تعرف ما هو ومتى سيأتي، لكنّها تفتحه كلّما عادت إليها رائحة الرجل الطيّبة، ووخزات ذقنه الحادّة. أشارت إلى ما تحت السرير، وماري المدهوشة اعتقدت أنّها تخلّصت من الثوب. اندسّت تحت السرير الذي جرح خدّها بالأسلاك الناتئة على شكل دوائر صدئة، وسحبت صندوقًا كرتونيًّا مربوطًا بحبل بلاستيكي أبيض. كانت ليلى تقف وراء النافذة، وتمسّد بأصابعها أصيص الصبّار الوحيد الذي يتوضّع فوق أصص فارغة وكثيرة، محشورة في المسافة القليلة بين الزجاج والحديد ذي اللون الزنجاري. الأمّ العمياء وهي تتحسّس يدي ماري، تفكّ الخيط البلاستيكي، وتنكش محتويات الكرتونة.

ـ إنّه في الأسفل.

صرخت العمياء بحماسة على غير عادتها، وحضنت الكرتونة وأبعدت ماري، وصارت تتحسّس الأقمشة، ذات الرائحة العطنة. أمسكت بالثوب ورفعته عاليًا. ولأوّل مرّة منذ زمن طويل، رأت ماري ابتسامة تنفرج من شفتيها، ولمحت أسنانها المصفوفة البيضاء، فاقتربت منها وشدّت على يدها، وأخذت الفستان، وفردته في الهواء، ثم نفضته عدّة مرّات، وقالت بالحماسة نفسها:

ـ يحتاج لبعض الهواء.

ضحكت ماري، وخرجت إلى الفناء، تحمل الفستان وتضعه على جسدها أمام ليلى التي ضمّتها برفق، وقالت: بقي الحذاء.

عادت العمياء للحماسة نفسها وصرخت من الداخل: إنّه هنا!

ركضت المرأتان وبحثتا حيث أشارت العمياء تحت السرير أيضًا. كان هناك كيس بلاستيكي، مغلق بإحكام ومربوط بعناية بواسطة الخيط البلاستيكي نفسه. قامتا بحلّه، ورأتا مجموعة من الأحذية الملوّنة ذات الجلد اللامع:

ـ هذه الهدايا كانت بعض السيّدات تأتي إليّ بها.

علّقت العمياء بصوت حيادي وهادئ. صمتت ماري مستغربة وجود هذه الأشياء تحت سرير أمّها، وعثرت ليلى على حذاء دقيق الكعب ذي لون أسود. وعندما دخل الحذاء بانسياب في قدمها، وقفت تضحك معلنةً انتصارها. صفّقت ماري بيدها، واهتزّ رأس العمياء، وصارت ليلى تتحسّس باطن قدمها القاسي الذي توزّعت على حوافّه قشور الجلد الميّت. شعرت بقليل من التعاسة لأنّ قبحًا ما سيبدو من الحذاء الأنيق، لكنّها فكّرت أنّ ذلك سيكون موقّتًا. أغلقت ماري الباب بقوّة، واقتربت من ليلى، كما كانت تفعل في الأيّام الخوالي:

ـ اخلعي ملابسك ولْنرَ كيف سيكون الفستان.

كانت تريد منح ليلى المزيد من لحظات السعادة لا أكثر ولا

أقلّ، فصارت تتحسّسها بكثير من الألم وتمسح بأصابعها جلدها الناشف، بينما تقوم بإدخال أكمام الفستان في جسدها الذي اكتسب وزنًا زائدًا. في نهاية الأمر استطاعت حشر جسدها في الفستان. كان مخرّمًا بدانتيلاً سوداء من أسفل الصدر وحتى نهاية الرقبة، وأكمامه من الدانتيلا نفسها، ولكنّه طويل بالنسبة لها، فالعمياء ذات طول فارع.

ـ أحبّه هكذا. قالت ليلى وربّتت على كتف ماري، وهي تدور حول نفسها.

ـ إنّه جميل.. جميل.. جميل. أضافت ماري.

ـ أحبّ الفستان تحت الركبة... مثل أفلام الخمسينيّات.

ضحكت ماري، وتذكّرت الصور المتفاوتة الحجوم، التي كان صالون ليلى يمتلئ بها؛ صور أودري هيبورن، ريتا هيوارث، وإيفا غاردنر، وكلّهنّ يلبسن الفساتين التي تشبه هذا الفستان.

العمياء مدّت ذراعها، وحاولت ملامسة النافذة تبحث عن الصبّارة. ناولتها إيّاها ليلى وهي تدور حول نفسها. اختفى عالم السجن، نسيته عندما استطاعت ملامسة جمالها في فستان تفوح منه رائحة العطن، وقد انسدل قماشه على جسدها، فلم يكن بحاجة للكيّ. بقيت سعادتها مطلقة حتى وقفت أمام المرآة المكسورة والتي تتوزّع داخلها خطوط سوداء، وشعرت أنّ خيط

السعادة ينسلّ من تحت جلدها، عندما تذكّرت مراياها وبيتها القديم. وقفت تتحسّس نفسها. كانت وركاها قد صارتا أضخم، وخصرها أقلّ نحافة، وصدرها يميل إلى الارتخاء. لكنّها جميلة! قالت لنفسها وغلب عليها إحساس مشمئزّ من جسدها، حين كانوا يُعرُّونها في السجن، ويقهقهون: ها.. ها.. ها الممثّلة.. الممثّلة. ها.. ها.. ها.

كانت الخطوط السوداء داخل المرآة هي ما جعل ذكرى السجن مقيتة بالنسبة إليها. فالمرآة نفسها على حائط هذه الغرفة، وإن كانت بحجم أصغر، تشبه مرآة السجن التي كانت معلّقة على جدار الحمّام الخاصّ بالسجينات؛ مرآة مقسّمة إلى ثلاثة أقسام، مكسورة من عدّة أطراف، وذات نتوءات جارحة. كانت بحاجة لرؤية وجهها دائمًا، فتفتعل الدخول إلى الحمّام، وتقف تحدّق في المرآة التي تعكس وجوهها الكثيرة. ليست كثيرة. ثلاثة وجوه تحتاج للنظر إليها كلّها، كلّ وجه يحدّق فيها بطريقة ما. تنظر في عينيها، تريد التعرّف على صورتها القديمة داخله، والتأكّد من أنّها هي نفسها، وليست امرأة أخرى تلبس جسدها دخلت على حياتها وأخذتها منها بقوّة. لكنّها في كلّ مرّة تكتشف أنّها نفسها، ليلى الصاوي داخل جدران السجن. كانت تسأل نفسها: لماذا أنا هنا؟ اعتقدت أنّ كلّ الرؤى والأحلام والتجلّيات التي ظنّت أنّها عاشتها هي أكثر حقيقة من وجودها في هذا المكان. ولم تعرف إن كانت عاشت تحت تأثير جنون ما، عندما بدأت بعشق الرجل الذي حوّل

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

حياتها، لم تفكّر أبدًا بكراهيته أو حتى أن تحبّه بمزيد من الجنون. أرادت فقط أن تفهم ما حدث. وفي ليالي سجنها، تحاول استنطاق ذاكرتها عن اللحظة التي نسيت فيها دنياها، وعاشت على وجوده فقط. متى حدث ذلك! تذكر حديثًا مبهمًا عن إحساس ما راودها بأنّها عرفته من أجيال قديمة، وأنّ روحه بقيت معها، ثم تذكر أنّه اتّهمها بالجنون، كما قال لها في إحدى الليالي:

ـ الأمر بسيط.. كلانا أراد الآخر، ولكلّ منّا سببه.. أنا أعرف السبب، وأنت تخترعين حكايات مجنونة عن حبّك، وأنا سعيد بتلك الحكايات. لا يوجد داع للتفسير. لا نستطيع تفسير رغباتنا دائمًا.

تذكر حديثه هذا عندما غرقت في نوبة بكاء وهو يقبّلها، قالت له:

ـ لن يكون هناك تفسير منطقي لما يحدث بيننا، سوى القوّة الروحيّة القادمة من الزمن الذي حدّثتك عنه.

حينها ردّ عليها بجملته السابقة، وضمّها وهو يعتقد أنّه محظوظ بالمرأة الشبيهة بالألعاب، ليس في شكلها فقط، بل في طريقة تفسيرها لحياة الناس.

أنهت ماري لملمة الثياب، وحملت برميل الألمنيوم العتيق. عبّأته من الخارج بالماء، ثم دخلت الغرفة مترنّحة.

وضعته فوق رأس الغاز المشتعل، وبدأت بمسح الغرفة وتنظيفها، بينما ليلى تدور حول نفسها في المرآة. قالت لها: هيّا استعدّي. وغمزت لها بعينها.

نظرت ليلى إلى العمياء والغرفة، ثم ابتسمت. تستطيع الجلوس على الأريكة.

خلعت ملابسها، وسمعت من المطبخ الخارجي صوتَ طرطشة ماء، وشمّت رائحة السكّر والليمون الحامض. كانت قلقة لأنّ ماري سترى ترهّل جلدها، وتوضّع طبقات من اللحم في وسطها، فلم تخلع سروالها الداخلي كما اعتادت، ولا حتى سوتيانها. قالت إنّها ستكتفي بنزع شعر رجليها وما تحت إبطيها فقط.

أغلقت ماري الباب. واستغرب الجيران أنّ العمياء لم تفتح نافذتها، ولم تحمل صبّارتها وتنظر من النافذة. كانت تفعل ذلك يوميًّا، صيفًا وشتاءً، وتبحث في حركة رأسها عن مصدر الحركة داخل الفناء، وتتحسّس صبّارتها بسعادة وصفاء غريبين، يغمران وجهها. اليوم الستائر مسدلة والباب مغلق، وحركة غير معتادة داخل الغرفة. لذلك كان الجيران قد فتحوا عيونهم وآذانهم لمعرفة ما يجري داخل الغرفة الصغيرة التي كانت تشكّل لهم مصدرًا يوميًّا للحديث: متى خرجت البنت البشعة؟ متى أطلّ رأس العمياء؟ ماذا حملت البنت لأمّها داخل الأكياس السوداء؟ ولماذا عجينة الحلاوة

الآن؟ ولماذا هذه البنت الغريبة الشكل ذات الوجه الجميل عندهم؟ إنّهم يعرفون أنّ البنت وأمّها مقطوعتان من شجرة، ولا بدّ أنّ حدثًا استثنائيًّا يحصل في الداخل.

بالغت ماري في إحكام إغلاق الباب؛ فهي تعرف فضول الجيران، وطلبت من ليلى الهدوء، وعدم الإتيان بأيّة حركة من الحركات التي كانت تقوم بها عند نزع شعر جسمها، كالصراخ والضحك أو حتى التأوّه؛ فذلك سيجعلهم أكثر فضولاً، وربّما دقّوا الباب عليهنّ وأزعجوا عملها. استجابت ليلى لتوصيات ماري، وصمتت حتى انتهت من نزع آخر وبرة تحت إبطيها. كانت رائحتها قد تغيّرت، ولم تعد الرائحة التي تشبه رائحة العشب تحت مطر لم تطأه قدم إنسان. رائحة غريبة، لم تعد تثير ماري التي أنهت عملها بسرعة، وطلبت منها الاستحمام بماء البرميل الذي يغلي فوق عين نار الغاز.

عادت العمياء للاستلقاء، ولم تسأل ابنتها عمّا تفعل. لزمت الصمت. كانت تميل لعدم التدخّل بأيّ حدث لا يعنيها، فكيف إذا كانت الحال مع الضيفة الوحيدة التي دخلت بيتهما، منذ أن افترقتا عن الراهبات. باختصار كانت مبتهجة مهما حدث وسيحدث. ليست السعادة المطلقة لكنّه الفرح بملامسة كائن حيّ غريب.

جعلت ماري ليلى تجلس فوق دفّ من الخشب، وبدأت

بدعك جسدها وشعرها. ليلى الصامتة تغرق مع الماء ودموعها، اعترافًا بالامتنان لهذه البنت، بعد أن طردها كلّ من عرفتهم أيّام سعيد ناصر، وبعد أن باعت كلّ ما تملك لشراء الهيروبين، أعطوها القليل من وقتهم وأصغوا إليها، ثم وقفوا يتفرّجون على البنت التي جاءت قبل سنوات مثل فراشة، وتحوّلت إلى جذع شجرة يابس.

بعد الليلة المشؤومة التي توقّفت فيها ليلى عن الحكي، وخرج سعيد ناصر آخر الليل، مهانًا كما صار يردّد لنفسه بصوت عال وهو يرتدي سترته، ويرمي مفاتيحه جانب السرير، متجاهلاً الشكل المفزع الذي تركت نفسها فيه أمامه، حيث بدت أشبه بذبيحة مقطّعة الأعضاء، وهي مفتوحة الفخذين. شعر بتقزّز. نزل الدرج بسرعة، وركب سيّارته وهو يشعر بحاجة للتنفّس.

لقد انتهى الأمر إذًا.

هذا ما أراده منها وانتهى الأمر. ليست أكثر من حفيدة ذلك المجنون، قال بصوت عال وغاضب، خائفًا من فكرة معرفتها بما حصل مع عليّ الصاوي الحفيد. تسارعت نبضاته: لتذهب إلى الجحيم. قال بصوت عال.

كان غموضها يشكّل غواية له. وفشل في معرفة كيف تفكّر، وكيف ستتصرّف، ولم يستطع تخمين أفعالها وردّات فعلها، تفاجئه بعفويّتها وحكاياتها. وصل سيّارته ونفث من

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

صدره غيمة من الهمّ. أدار مقود السيّارة بسرعة جنونيّة، وأنّب نفسه على انغماسه بلعبة حكاياتها. لقد سحرته وهو رجل غير قابل للسّحر. عرف ما يريده منها. أرادها له وانتهى الأمر. والآن لن تجرؤ على الاقتراب منه. لقد ملّها. خبط على مقود السيّارة من جديد وصرخ: انتهت.. انتهت. لقد رفضته، هي رفضته. أحسّ بذلك، وما تزال رائحة القيء في أنفه. لماذا عاد إليها؟ يا لي من رجل جبان.. كيف أعود إلى تلك المجنونة؟ المجنونة حفيدة المجنون. تعال أيّها الشيخ وانهض من قبرك وتفرّج على من بقي.. أنا أم أنت؟ انظر إلى حفيدتك الساقطة ما حلّ بها.. انظر.. لم تتوان عن فعل كلّ ما أريده، لم أحتج للّعب معها.. كانت جاهزة لي.. هي بنفسها جاءت.. انهض من قبرك وتفرّج على أحفادك.. الساقطة والكافر الذي قتل نفسه.. هيّا انهض لنرى من ربح منّا: أنت وعائلتك كلّها تحت حذائي، أنت وكلّ الأغبياء أمثالك. قال بصوت عالٍ وهو على وشك البكاء: أنا لا أحبّها.. أنت لا تحبّها.. لا تحبّها. يعود وجهه للتقلّص فترتخي عضلات وجهه لثانية، ثم تعود وتنشدّ بقسوة وهو يقول: أنت لا تحبّها.

كان قد وصل بيته عندما شعر أنّ أصابعه تحرقه وقبضته مدمّاة. يا له من يوم عاثر! ألا تكفيه أعباؤه حتى تأتي هذه المجنونة بتخاريفها وحكاياتها؟ أنت لن تضعف أيّها الجبان. هَمْهمَ وهو يغلق بابه ويقرّر أنّها انتهت إلى الأبد، وكلّ ما سيحدث بعد ذلك

غير ضروري. لقد اشتهى جسدها. هذا كلّ ما في الأمر! لعب لعبتها لتزداد شهوته فيها. وكلّ نساء الأرض لا تساوي بالنسبة له أكثر من ذلك، ولن يتذكّرها بعد اللحظة، ولن يلمحها. وهو ما حدث فعلاً حتى اليوم الذي خرجت فيه ليلى من السجن، وأرادت رؤيته وهو الأمر الذي لم يعرفه إلى هذه اللحظة.

بعد تلك الليلة المشؤومة وبعد أن صدّته، وغادرها مثل ذبيحة، جاءت في صباح اليوم التالي إلى مكتبه بعد أن رفض مكالماتها، وأثارت ضجّة وصخبًا حتى اضطرّ عساكره لرميها خارج المكتب. كانت تصفه بأبشع الأوصاف أمام جنوده، وهو الأمر الذي جعلهم يضعون أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوها ويضطرّوا لضربها برؤوس الرشاشات، ولأنّهم لم يستطيعوا فهم ما يحدث بينها وبين سعيد ناصر، وربّما هي سحابة صيف، وقد تعود الأمور إلى مجاريها بينه وبين عشيقته، وعندها سيكون جزاء من ضربها قاسيًا، لذلك رموها خارجًا وسدّوا آذانهم ولم يحرّكوا ساكنًا، بينما رذاذ بُصاقها يصل وجوههم. وهي لم تكترث بما حدث، أو بدت لهم على الأقلّ غير مكترثة، وذهبت لتبدأ مجونها في ليالي المدينة.

بعد أن طردها سعيد ناصر من حياته استيقظت من الحلم، وقالت لكلّ من حولها إنّها تريد العودة إلى التمثيل، لكنّها لم تفعل. بقيت في تلك الأيّام إمّا مخمورة، وإمّا غارقة في عالم

تائه من الهيروين والحشيش، حتى قامت في ليلة أكثر شؤمًا من كلّ ليالي حياتها بمواجهة سعيد ناصر.

لم تفهم ليلى اللحظة التي صارت تبحث فيها عن الحشيش، ولن تذكرها فيما بعد، كانت تريد أن تعود كما كانت وفي أعماق روحها تحنّ إلى ليالي سعيد والحكايات. كانت تريد أن تتعلّم الحكي من جديد، وكأنّها فقدت القدرة على النطق، تريد انتزاع الصخرة الثقيلة من صدرها، تبحث عن طريقة لتفتيتها وتحويلها إلى غبار. لذلك لم تعرف متى بدأ هوسها اليومي بالحشيش، ولم تصل إلى وصف دقيق لما حدث معها، كيف جاءت بالهروبين؟ ومن جلبه؟ هل هو أحد أصدقاء سعيد ناصر؟ هي طلبت منه؟ لم تعد تذكر، لكنّها ستذكر في ليالي السجن الطويلة، وهي تستعيد ما حدث، أنّها كانت بحاجة لإحساس الثقل والخفّة معًا، ولم تعرف كيف تجمع ذلك التناقض، ثقل دمها وخفّة قلبها وعقلها، أرادت أن تكون ثابتة في مكان يجذبها كمغناطيس، وفي اللحظة نفسها أن يتفرّع جسدها في أنحاء الكون، ولم يمنحها الحشيش سوى لذّة الثقل والخدر والبلادة. باعت كلّ ما تملك من مجوهرات واشترت الهيروين، غابت عن عقلها التفاصيل، تعيش في منطقة غائمة، يغيب عنها الوضوح والدقّة، هل كان يخطر ببالها أنّها ستتحوّل إلى مدمنة؟ تسأل نفسها لاحقًا، وهي تقبع في زاوية متكوّرة بين السجينات، فتؤنّب نفسها على ما فعلته بنفسها، هل كان هذا هو

الهباء الذي أرادته من العيش؟ إبرة سحريّة قادرة على إسعادها، هكذا هو الإدمان، يبدأ مع دغدغة السعادة وينتهي برغبة ملحّة كالجوع. جوع لا يسكته سوى مزيد من الإبر. ذكرياتها تبدأ مع صورة واحدة؛ ذراعها الممدودة وإبرة، ثم الخلاء والدغدغة.

كانت كتومة إلى الدرجة التي يعجز فيها أحد عن اختراق أسرارها، عدا سرّها المفضوح مع سعيد، ولمّا صارت تحتاج شراء كمّيّات إضافيّة من الهيروين، أفلست. عاشت في غرفة على سطح بناء قديم في منطقة الشعلان، تطلب المال من كلّ معارفها. وأثناء ذلك لا تترك يومًا، إلاّ تذهب فيه إلى أمام مكتب سعيد، وتصرخ أمام الجنود، ثم تعود وتقضي الليالي تحاول الاتّصال به، وتسبّ وتشتم، وتنادي قبل دخولها في الغيبوبة أخاها عليًّا.

الأمر لم يبق على حاله، لأنّ صبر سعيد ناصر عليها كان قد نفد. بعد أن صارت تسبّب له الإحراج، ليس لنفسه فقط، وإنّما لمنصبه وعمله وواجبه الوطني. وهو أهمّ من كلّ شيء.

كانت المدينة تلمع بسحر غريب، كعادة المدن ليلاً. كلّها جميلة واستثنائيّة. العاصمة في الليل تستعيد تاريخها. ليلى تمشي في شوارعها وتضع شالاً خفيفًا حول جسدها شبه العاري، وتبكي وهي ترغب بشيء واحد فقط؛ شيء كان من المستحيل أن يعود إليها. كانت تتّجه إلى بيت سعيد ناصر. تتعثّر

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

بقدميها وشهقاتها، ثملة، تقف لها بعض سيّارات الأجرة، ويصفّر بعض الرجال، لكنّها تتابع المشي، ثم تقف قرب بيت سعيد ناصر أمام حارس يغطّ في نوم عميق داخل محرسه الخشبي. تدخل وتوقظه بعنف، وتقول: قل لسيّدك أن ينزل إن كان رجلاً.

ارتبك الحارس الشابّ، وصوَّب بندقيّته نحوها، فأمكست بياقته وهزّته بقسوة، وهي تحكّ جسدها وترتجف: قل لسيّدك أن ينزل إلى هنا إن كان رجلاً!

وشدّدت على كلمة «رجلاً» وهي تصرخ وتنظر إلى النوافذ. اشتعلت الأضواء في إحدى الغرف، وظهر رأس سعيد ناصر. خرجت من المحرس، ووقفت في منتصف الشارع، وسعيد ينظر إليها مدهوشًا، ويلتفت حوله، فصرخت ثانية بصوت أقوى:

ـ انزل إلى هنا إن كنت رجلاً؟

الأضواء تُطفأ مباشرة، ويرنّ جرس الهاتف في المحرس، يرفع الحارس السمّاعة، ثم يغلقها، ويتّجه نحو ليلى التي صارت في منتصف الطريق، وهي تصرخ: انزل... انزل..

يصفعها الحارس، فتبصق في وجهه، وتدير ظهرها له. يضربها بعقب بندقيّته وترتمي على الأرض، ويرتطم رأسها بالإسفلت الذي ينيره ضوء قمر خافت.

ماري في العاصمة

ظلّت ماري واقفة أمام البوّابة الرئيسة التي تخرج منها الحافلات في الكاراج. تنتظر خروج ليلى، قبل أن تكتشف أنّ الحافلة غادرت منذ وقت طويل، فزفرت وهرولت نحو أوّل باص. الوقت ما يزال مبكرًا على العودة إلى البيت، والصالون مقفل ليومين آخرين، حدادًا على موت الرئيس، وأمامها نهار طويل قبل أن يأتي نهار آخر، ويمضي ثم يعود نهار، وتبدأ عملها. كانت تفكّر في أنّ يومي عطلة هما مدّة زمنيّة طويلة، وسيكون عليها تدبير ما ستصنعه فيهما. ربّما تقنع أمّها بالخروج والمشي!

صعدت الباص الصغير الأبيض، الذي صُنع خصّيصًا لبشر قصار القامة، وهو ما يناسبها. لكنّ المشكلة أنّه لم يُصنع لامرأة مدوّرة. فكّرت وهي تكاد تختنق، وتحشر نفسها داخل المقعد. ضحكت على نفسها، وشمّت رائحة جسدها التي اختلطت

بروائح الركّاب الآخرين. كانت رائحة تعرفها كلّما استبدّ بها الغضب، تشمّ تلك الرائحة المنعشة، فتمدّ أصابعها تحت إبطيها وتتحسّسَ الشعر قليلاً، ثم تقرّب الأصابع من أنفها وتتشمّم بعمق وتبتسم. من النادر أن تلمس جسدها بفرح، اعتادت أن تلمس أجساد النساء، ولم تشعر بفضول لتلمس جسدها بهذه الطريقة، فكّرت لثانية خاطفة؛ كيف يكون ملمس جلد الرجل؟ انكمشت. أعادت دسّ أصابعها تحت إبطها، انتقلت حرارة جسدها إلى أصابعها، وتسرّب حبور غريب إلى قلبها، فهي لم تفكّر بمعرفة ملمس جلدها على الرّغم من أنّها تقضي حياتها بين الأجساد العارية.

تريد الآن إبعاد صورة ليلى عن مخيّلتها. تتمتم وتراقب المكان الذي وصلت إليه. كانت قد تجاوزت ساحة العبّاسيّين. ستعود. قالت لنفسها، ثم رفعت رأسها، كأنّها انتصرت في معركة حاسمة، وزمّت شفتيها. تشعر بالغيظ، فكيف يمكن لمعبودتها أن تعود إلى ذلك الرجل؟

تهزّ رأسها: سيطردها.. هذا إن اكتفى بذلك. تعود للتمتمة وتهزّ رأسها مثل عجوز شامتة، ثم ترتجف أطرافها. تهزّها تلك القشعريرة كلّما دعت في قلبها لحدوث أمر ما. كانت تعرف أنّها تملك القدرة على الإتيان بالأشياء إليها، وربّما هكذا خُيّل إليها، وهي تسبّ إحدى السيّدات اللواتي تنتف لهنّ شعر أجسادهنّ،

وينظرن إليها بقرف ويطلبن منها نزع شعر جسدها. تصمت. وعندما تنتهي من نتف أجسادهنّ تدعو في سرّها عليهنّ. وكلّما دعت على واحدة منهنّ، تزحلقت على الأرض ووقعت، أو نزّت الدماء من عاناتهنّ اللامعات وهي تُنتف، فتشعر بالرضا، أو نسيت إحداهنّ حقيبتها، أو تعود إحداهنّ في مرّة مقبلة لتقول وتروي للنساء من حولها، أنّ سيّارتها اصطدمت بجدار ما. وكانت ماري تتابع باهتمام مصير النساء اللواتي تكرههنّ ويتردّدن على الصالون، فتعرف أنّها قادرة على إيذائهنّ، وتعرف أنّ الله يحبّها، فتشعر برضا أكبر. ولم يكن مهمًّا أن تكون حادثتا السيّارة، أو الزحلقة، قد حدثت بعد وقت بعيد من دعاء ماري. المهمّ أن يكون مكروه قد حلّ بهنّ. وفي أحاديثهنّ الطويلة، لم تكن أذنها تتلقّى وتنتظر إلاّ حكايات سوء حظّهنّ.

نزلت من الباص الأبيض الصغير، ونفضت شعرها المجعّد. كان ثقل صدرها كبيرًا، وتشعر بارتجاجه تحت سوتيانها القماشي الزهري، وتفكّر أنّها ربّما بالغت في تمنّي حدوث مكروه ما. قطّبت حاجبيها وقالت: إلاّ ليلى!

لكنّها فعلاً تمنّت طردها من كلّ مكان تذهب إليه. تمنّت ذلك، وهي تعرف أنّ كلّ شيء ممكن، وأنّ المستحيل كلمة لا وجود لها في حياة البشر. لكنّها بحدسها المعتاد تقول وهي تهشّ دخان السيّارات المتصاعد أمامها: لن تذهب إليه؟ رفعت خيط

السوتيان، والتفت بعض المارّة إليها فتجاهلتهم، وهم بدورهم نظروا بخفّة إلى البنت المقلوب رأسها على عقبها، كأنّ الله أراد صنع لوحة تجريديّة في خلقها. هكذا قالت لها يومًا زوجة رسّام مشهور، وقالته يومًا الأخت تيريز، وهي تصفعها على وجهها أمام الأخوات، لأنّها بالتْ على نفسها، لكنّها في ذلك الحين لم تشعر بالغضب. لذّة الإحساس بالسائل الحارّ الذي يغرق فيه سريرها أيّام الشتاء الباردة، كانت تمنعها من الغضب، وفي كلّ مرّة تنال عقابًا ما، تفكّر أنّ عليها تذكّر تلك المتعة؛ حرارة السائل الذي يخرج من جسمها ويدفئ فراشها، الحرارة التي كان جسدها يمنحها إيّاها كلّما قامت بنتف شعر ليلى. وعلى عكس النساء السمينات، كانت تشعر ببرد دائم يوجع مفاصلها، لا يفارقها سوى أشهر قليلة في الصيف، حتى إنّه يعود ليلاً أيّام الربيع. تعرف تلك الحرارة، وهي تقوم بتقليب ليلى أمامها مثل دمية، تفتح فخذيها، وتدقّق في اللون الزهري الذي يتفتّح مثل وردة، وهي تنتف شعرة إثر شعرة، حريصة على عدم شعور ليلى بألم بسبب العجينة التي تحوّلها إلى قطع صغيرة الحجم تشبه قطرات المطر. تنتف حتى الجزء الداخلي من الشفرين، وتبتسم وتقول: كما ولدتك أمّك، فتبتسم لها ليلى، تلعب بها وهي تشعر بامتلاء لا تعرف سببه، وتدلّك جسدها وتنتف الشعيرات الصغيرة في أصابع قدميها. وليلى تترك نفسها مغمضة العينين للبنت اللطيفة التي تصفها بذلك، وتقول لها إنّها تثق في عملها ونظافتها.

وعندما تنتهي منها كانت ماري تنظر بإعجاب وزهو إلى الجسد الصغير الأبيض اللدن، وفي كلّ مرّة تفعل ذلك، كانت تعود إلى بيتها بعد تلك السعادة الغامرة بشعور غامض من الأسى، يمنع عنها النوم، وتفيق في الصباح وغمامة غريبة تطوف داخلها، تجعلها ثقيلة الحركة والفهم. ولم تكن تتخلّص من تلك الغمامة إلاّ بعد مرور أيّام، وهي تفكّر في مرور شهر آخر، حيث ستأتي ليلى من جديد.

الآن سيكون انتظارها أسهل. انتظار مرهون بتعاسة ليلى. فكّرت وهي تفتح باب البيت دون أن تحقّق أمنيتها بالمشي. نسيت كيف اتّجهت، لكنّ قدميها قادتاها إلى البيت. فتحت الباب ودخلت. الفناء صامت، فقط عينا أمّها شاردتان في الظلام، وهي تداعب بأناملها نبتة الصبّار الصغيرة التي تشبه أشواكها ملمس أوراق الصنوبر الإبريّة. وقفت تسند ظهرها إلى باب الغرفة، ووجهها يحدّق في الباحة الصامتة، وتشعر بارتياح كبير لأنّ المكان فارغ.

ـ رجعتِ ماري؟ قالت الأمّ بصوت مخنوق.

ـ رجعت.

قالت وهزّت رأسها بعد اعتقادها أنّها غيّرت خطواتها، وأنّ أمّها لن تتعرّف عليها، لكنّ الأمّ عرفتها منذ أن فتحت الباب، وعندما لم تدخل الغرفة، سألت سؤالها وهي خائفة.

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

صمتت ماري أيضًا، وراقبت وجه الأمّ وراء نافذة الحديد، وصبّارتها ذات الورود الأرجوانيّة الصغيرة، وتمنّت أمنيتها لهذا النهار. كانت الأمنية الأولى، ولا بدّ أنّها ستتحقّق. قالت لنفسها ثم قامت، وهي تشعر أنّها أكثر خفّة ممّا سبق، وكان ضميرها مرتاحًا. تهزّ رأسها وتؤكّد أنّه لن تكون هناك أيّة مشكلة، إذا تعرّضت ليلى لأذى من هذا الرجل، أو حتى إذا ضربها! أو ربّما... كلّ الاحتمالات ممكنة، وكلّ ما قد يحدث وارد، أو بالأصحّ هذا ما يجب أن يحدث. تمتمت أيضًا بصوت عال، فارتجفت الأمّ وهي تتابع مكان صوت ماري التي اتّجهت إلى المطبخ، تفكّر بإعداد طعام أمّها اليومي، وترتّب ما سيحدث نهار اليوم التالي؛ عندما تستيقظ والباب يُدقّ. يُدقّ بعنف، ويفتح الجيران الغاضبون أبوابهم بسبب الدقّ القوي. وفجأة، ووراء الباب، ستكون ليلى واقفة! أجل هذا ما سيحدث!

وضعت المقلاة ذات الحوافّ السوداء فوق النار. النعاس يجعلها تتحرّك بصعوبة. لم تنم في الليل الفائت. أضافت إلى المقلاة قطعة صغيرة من الزبدة، ثم ركضت إلى الغرفة. كانت الأمّ تحرّك رأسها بقلق كلّما سمعت صوتًا. عادت ماري بكيس أسود وفقشت ثلاث بيضات. تنظر إلى اللون الأصفر المحاط بالبياض في المقلاة، وتفكّر أنّ كلّ شيء لا بدّ أن يكون على أحسن حال.

عادت بالمقلاة إلى الغرفة، وأمسكت بكتف أمّها، فهمست الأمّ:

ـ راحت الضيفة؟

ـ راحت.

كان صوت الأمّ مبحوحًا. خافت من صوت ابنتها الخشن الذي تحوّل فجأة إلى مقاطع منفصلة من الحروف المتهدّجة:

ـ ستعود اليوم؟ قالت العمياء بحذر.

ـ ليس اليوم. قالت ماري، وأمسكت على أصابع الأمّ برغيف الخبز، وقالت: كلي الآن. أنا سأنام قليلاً..

شعرت الأمّ بسعادة مباغتة. سيتسنّى لها أن تأكل وحدها هذه المرّة. لم تعلّق بحرف. غمست الخبز في صفار البيض بحركة عشوائيّة، بينما كانت ماري تضع رأسها على مخدّة صغيرة فوق الأريكة، جانب فخذ الأمّ، ودقّات قلبها تتسارع. نظرت إلى أصابع الأمّ المغمّسة بالزيت والبيض بلا مبالاة، ولمحت بقعًا كبيرة من الزيت فوق ثوبها، وقالت:

ـ الضيفة تعود غدًا.. ربّما تعود..

ودون أن تفكّر بأيّ أمر، عادت إلى الاستلقاء، وغرقت في نوم عميق بانتظار غياب النهار.

سعيد وليلى في الطريق

السيّارة البيضاء التي خرجت من البيت، لم تغادره منذ شهر، وهو الوقت الذي أمضاه سعيد داخل حدود البيت مطلاً على البحر. والزائر الوحيد الذي نعم به طول الشهر ذاك كان عجوزًا من القرية، اعتاد اصطحابه معه في جولات الصيد إلى الصحراء. لذلك كان وهو يغادر قصره، يسمع صوت اصطفاق الحديد، والبابان يخبطان بقوّة. يرتجف ويتنهّد ممعنًا التحديق في القرية، كأنّه يعاين مشهدًا غير مألوف، حيث انتبه للمرّة الأولى في حياته إلى أنّ البيوت المحيطة به تبعد عنه عدّة كيلو مترات، وتشكّل بعد ذلك دائرة شبه مكتملة ومتراصّة من البيوت القبيحة. ارتمى برأسه على مقعد السيّارة ثم قال:

ـ أبو محمود. . عليك أن تقود بهدوء. وقبل أن نخرج من الضيعة، أريد الدوران حول المزار.

وضع السائق يده على صلعته وحنى رأسه، ثم زمَّ شفتيه

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

وأغمض عينيه، ومال برقبته نحو سعيد ناصر، ثم انعطف ودخل أزقّة القرية. كانت مرايا السيّارة من الزجاج الأسود الذي يسمح برؤية الخارج دون أن يعرف الناس وجوه راكبيها، وهو تقليد طالما اتّبعه سعيد في القرية، فكان يتجوّل ويرى الناس الذين يفسحون الطريق بطواعيّة، وهم يحدّقون في السيّارة، ثم يراقبونها حتى تختفي. وعلى الرّغم من أنّ فضولهم انتهى بعد عدّة جولات قام بها، إلاّ أنّه ظلّ راغبًا في التسلّي بالتحديق في وجوههم ومراقبتهم. هذه المرّة لم يكن يأبه لذلك. كان فعلاً يريد الدوران حول ضريح جدّه، قبل السفر للمشاركة في عزاء الرئيس. دارت السيّارة عدّة دورات والسائق ينظر إلى وجهه، منتظرًا أمرًا بالانتهاء. لكنّ سعيدًا كان يحدّق في نقطة ما وهو يدور حول الهضبة، يحدّق في القبّة الخضراء والناس الذين يلتفّون حولها. مال السائق برأسه قليلاً وهمس: سيّدي هل نتابع؟ أفاق من شروده وأشار له بيده ليخرج من القرية. انطلقت السيّارة، تبتعد عن الهضبة وسط لامبالاة الناس الذين ملّوا وجودها الدائم حول الضريح، وملّوا حتى سعيدًا نفسه، بعد أن ترك العاصمة وعاش بينهم. انفضّوا عنه ولم يعودوه أو حتى يفكّروا بمشاركته أفراحهم وأحزانهم. بعد فقدانه منصبه اختفى، وكأنّه لم يكن بينهم، وهو ما جعله يحتقرهم ويبصق عليهم، كلّما خرج للدوران حول الهضبة بسيّارته. لقد عرف أخيرًا أنّه كان وحيدًا، وضابطًا عازبًا

متقاعدًا. التفت إلى الوراء يراقب الهضبة تختفي من خلف الزجاج. يسيطر عليه الخوف، ويعتصر قلبه مثل إسفنجة. من جديد اجتازت السيّارة الطريق المنحني، وهو الطريق نفسه الذي تذكره ليلى، أو هو الذكرى الوحيدة التي بقيت لها من القرية. وعند ذلك الانحناء، كانت تبدأ الهضبة الصغيرة الأخرى التي دُفن فوقها جدّ ليلى، ووُضع عليها شاهد قبر صغير.

صرخ سعيد: عَجّلْ.. بسرعة!

أسرع السائق. يعرف أنّ سيّده يطلب منه العجلة عند هذا الانحناء. بقي قلب سعيد يخفق، يحاول الالتفات إلى الجهة المقابلة متجاوزًا بعض البيوت، وما تبقّى من الهضبة. كان الحرّ شديدًا، ومكيّف السيّارة يعمل. فكّ أزرار قميصه، وخلع سترته، ورباط عنقه، ورمى بهما في المقعد الخلفي، ثم أدار المسجّل على صوت تلاوة قرآن. كان يحبّ ذلك الصوت، صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، وخاصّة في سورة مريم المفضّلة لديه. أرخى رأسه إلى الوراء، ولم يسنده إلى المقعد، ومال به مع صوت الشيخ القارئ يمينًا ويسارًا. قرّر أنّ عليه واجب الحزن، وطرْد ذكريات الرائحة وصورة الجديلتين، والهضبة الملعونة مع شاهدة القبر. لكنّ الصوت الشجي لم يُنسهِ ما كان يشغل باله؛ صوت ليلى الذي عاد

إليه، ورائحتها التي يعرفها. الصوت نفسه الذي كان يصرخ في أحد شوارع العاصمة في ليل مشؤوم: انزلْ إنْ كنتَ رجلاً.

في ذلك الليل كان يجلس في سريره، عقله فارغ يحاول نسيان حرقة قلبه، وحكايات الشيطانة التي حوّلته إلى مهرّج. كان مترعًا بالخوف من حنينه إليها. يحاول إقناع نفسه بالذهاب في رحلة صيد مع بعض الضبّاط لصيد الغزلان. سمع زعيقًا فلم يكترث في البداية. الزعيق عاد وعلا وناداه باسمه. زعيق مبحوح وصوت متهدّج، عرف أنّها ليلى. خرج نصف عار وفتح باب شرفته ووقف. هناك وسط الشارع، كانت تقف كائنًا بلا ملامح، منكوشة الشعر، تلوّح بيدها، تبكي، وتصرخ، تسبّه وتشتمه، وتطلب منه النزول إن كان رجلاً. خطر على باله أن ينزل إليها، ويضمّها ويطلب من الخادمات تنظيفها، ومن ثم يجعلها تعود للحكايات. خطر له ذلك لثانية، وهو يفكّر بمتعة الجلوس قربها وسماعها تحكي له نزهاتها الساحرة. لكنّه بدلاً من ذلك، دخل من شرفته واتّصل بالحرّاس، وطلب منهم إبعادها بأيّة طريقة. كانت أصابعه يابسة، وكانت عيناه مفتوحتين مثل عيني ضفدع، تتحرّكان بسرعة لولبيّة جنونيّة، وكأنّه يراقب رقّاص ساعة، وقبضته متكوّرة مثل ملاكم محترف، يلاكم الهواء. أغلق السمّاعة. لمح عينيها الحادّتين ترمقانه بقسوة، وهي تصرخ به وتصفعه، فارتجف. ساد الصمت. خرج إلى

الشرفة ثانية، ورأى ليلى مطروحة أرضًا، فعاد ورفع سمّاعة الهاتف من جديد، وأجرى اتّصالاً سريعًا. وعندما خرج ثانية أومأ إلى الحارس الشابّ الذي كان خائفًا، وينتظر تقريعًا من سيّده، حتى إنّه ركض وترك محرسه الذي تتكوّم ليلى على أرضه الخشبيّة. فتح سعيد الباب، ثم شدّه من ذراعه، فارتجف الشابّ من جديد وصرخ: والله العظيم يا سيّدي حاولت منعها ولمّا عرفتها خفت أن أتصرّف بما يغضبك.

أمسك سعيد ناصر الشابّ من ياقته، ثم ربّت على كتفه، وهمس له: لا عليك يا بنيّ، أريدك أن تقف في المحرس، سيأتي رجلان ويأخذانها.. ساعدهما وانس ما حصل.

بلع الشابّ ريقه، وانتفض وهو يؤدّي التحيّة العسكريّة: حاضر سيّدي.

أومأ إليه سعيد بالانصراف، فخرج، وهو ينزل أولى الدرجات، قال له سعيد بصوت جهوري حادّ: في المرّة القادمة، سأقتلك عندما تسمح لأيّ إنسان بالصراخ أمام بيتي.

هرب الحارس منحنيًا أمامه، وتعثّر بالدرج ووقع، وأكمل نزوله على أطرافه الأربعة. وعندما صار في الشارع ركض إلى المحرس ينتظر وصول الرجلين. كان سعيد حينها يقف وراء نافذته عندما سمع صوت السيّارة. خرج إلى الشرفة، ورأى

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ثلاثة رجال يحملون ليلى التي ضُربت على رأسها، ويضعونها في المقعد الخلفي، فعاد ودخل ثانية وأجرى اتّصالاً هاتفيًّا من جديد. كان يهمس ويتمتم، ويقوم ويقعد، ثم يخرج إلى الشرفة ويومئ إلى أحد الرجال بالصعود. فتح باب بيته. كانت الخادمات قد استفقن على الضجّة، فأشار لهنّ بالانصراف. دخل رجل ضخم يرتدي ثيابًا أنيقة، لوجهه ملامح طفل وديع. أمسكه من كمّه: تعرف عنوان بيتها الجديد؟ نعم. قال الرجل صاحب الوجه الوديع. حسنًا.. عليك أن تضعها في سريرها.. وأنت تعرف الباقي.

ـ حاضر سيّدي.

همَّ الرجل بالانصراف، فأمسك بكمّه مرّة أخرى، وذقنه يرتجف، وهو ما جعل الرجل يرتجف أيضًا، فسيّده يرتجف ولا بدّ أن يرتجف أيضًا:

ـ بعد أن تضعها هناك أَجْرِ الاتّصال فورًا، وانْسَ ما حدث.

هزَّ الرجل رأسه، وأغلق سعيد الباب، وصوتها ما يزال يمزّق أذنيه: «انزلْ إنْ كنتَ رجلاً».

فينتفض ويهزّ رأسه، وكأنّه يكشّ عنه عشًّا من الدبابير. خرج إلى الشرفة الثانية، وكان يدور بهستيريا حول نفسه ويراقب

السيّارة التي اختفت في الليل. وعندما خرج الحارس الشابّ ينظر إليه، صرخ فيه بصوت استغرب هو نفسه من أين أتت قوّته: ادخل يا كلب.

أغلق نوافذه ودخل مكتبه المطلّ على أشجار الكينا العملاقة، أقفل بابه وجلس وراء مكتبه، قدماه لا تصلان الأرض، يفردهما باستقامة مثل لاعب جمباز، يحدّق في الفراغ. كان خائفًا من عودتها إليه، تحديدًا خاف من عينيها، وصوتها الخشن الذي يخرج من أحشائها، فيظنّ أنّ وحشًا سيخرج منها ويقتله. الخوف نفسه الذي لا ينتهي، الخوف من المنحدر الذي تهاوت فوقه الأخت ذات الجديلتين، والخوف الذي لم ينسه عندما هلع من حركة الجنود المتحلّقين حول بيته، جنود يمشون بحرّيّة ويحملون أسلحتهم، ويتوزّعون من باب البيت، وحتى نهاية الشارع، يومها نظر إليهم، وبصق في الأرض، وهو يتمعّن في وجوههم، ويتهاوى على أريكته، ويفكّر بطريقة ما لنزع خوفه من قلبه واسترضاء الرئيس. يشعر بأنّه سيفتح نافذته وتعود إليه تلك الأيّام. الآن ستمضي إلى غير رجعة وينتهي قلقه.

عندما وضع قدميه فوق الأرض، شعر بنار تحرق ركبته، وتأكّد أنّه لن يستطيع نسيانها بسهولة، لن يفعل، لكنّه محكوم بنفسه، إنّه هو نفسه ولن يكون شخصًا آخر، لن يكون عاشقًا في

يوم من الأيّام، هو رجل عسكري فقط، تأتي النساء وتذهب في حياته، كما تأتي أشياؤه الأخرى، طعامه وملابسه، ومعارفه. إنّه يكرهها في أعماقه، لا يعرف هل يكرهها إلى الدرجة التي يفكّر بالتخلّص منها، أم يحبّها إلى الدرجة التي يخاف من قربها إلى هذا الحدّ؟ لقد منعت نفسها عنه، وهذا ما لم يحتمله أبدًا، وهي الآن تنال عقابها. هذه هي الحياة، قال بصوت عال. العقاب أحد أهمّ أسباب نجاح البشر، بدون عقاب وخوف لا يوجد استمرار.

بعد ذلك اليوم لم يسمع عنها شيئًا. كانت دوريّة من الأمن أحاطت بالبناء الذي تسكن فيه، وهلع الجيران من هذه الجلبة التي تأتيهم عند طلوع الفجر.

دقّوا على بابها. كانوا أربعة. دقّوا بشدّة، لم تفتح. كانت غائبة عن الوعي من أثر الضرب المبرّح الذي طال أسفل رقبتها بعقب البندقيّة، وكأنّها تنام منذ عدّة قرون، ولم تكن لتفيق لو اهتزّت الأرض من حولها. خلعوا الباب وركلوها وضربوها، بدت لهم مثل جثّة هامدة. عندئذٍ اضطرّ اثنان لحملها. كانت خفيفة. نزلا بها والجيران الذين وقفوا خلف الأبواب يتابعون ما يحدث، كانوا يعرفون أنّ مصيبة ستجرّها عليهم هذه البنت، لكنّهم لم يتوقّعوا أن تكون مصيبة بهذا الحجم. وأحدهم وهو مالك البناء كان عجوزًا وبالكاد يقف على رجليه. تجرّأ وفتح

بابه، بعد أن تجاوزوا مدخل بيته. سألهم عمّا يحصل، فصرخ أحد الأربعة، وهو آخر من نزل منهم: ما الذي يحصل؟ هل تجهل من يسكن عندك.. هذه امرأة تتعاطى المخدّرات وتتاجر بها!

عندما انتهت هذه الجملة اصطفقت الأبواب، وساد صمت طويل، وصارت الستائر تتحرّك من وراء زجاج النوافذ في كلّ الطوابق، ثم تجرّأ أحد الساكنين وفتح نافذته، ورأى بأمّ عينيه، كيف أنّ الرجل الذي يحمل جارتهم السابقة، رمى جسدَها في أرض السيّارة، وسمع صوت ارتطام رأسها بالمعدن، ثم دوّى اصطفاق باب السيّارة. فنظر الرجال الأربعة حولهم، ورفعوا بنادقهم معًا، ونظروا إلى النوافذ. كانت العيون التي تتابعهم مغمضة نصف إغماضة، تريد الاختباء وتخاف التحديق بوضوح. حين ارتفعت البنادق، اختفت الأعين وأُسدلت الستائر، وساد صمت لدقيقة ثم انطلقت السيّارة بسرعةٍ جنونيّةٍ، محدثةً زعيقًا حادًّا، جعل سيقان ساكني البناء تتكتك في العتمة.

لم يعرف سعيد ناصر ما حدث بعد هذا التفصيل. عاد إلى سريره وحاول النوم، لكنّه بعد تلك الليلة بقي مستيقظًا، وعيناه محمرّتان، يدخّن في مكتبه، وينتظر هواتف كثيرة وغامضة، جعلته بعد ليال ثلاث ينام بعمق.

الآن وهو في سيّارته متّجهًا إلى العاصمة، يشعر بذلك

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

الإرهاق الذي خبره في لياليه الثلاث الطويلة، قبل أن يتأكّد أنّ ليلى الصاوي ستتعفّن في السجن، وتنال عقابها. تحديدًا هذه الجملة تذكّر كم ردّدها مرارًا: ستنال عقابها.. ستنال عقابها. داس على قلبه. كان يشعر بأنّ أحدًا ما داس عليه! هذه المرأة التي سحرته بالحكايات، ثم منعتها عنه، والآن هذا الإحساس بثقل العالم فوق قلبه.

في اللحظة ذاتها وسيّارته تتّجه إلى العاصمة، كانت الحافلة التي استقلّتها ليلى تتّجه إلى القرية، السيّارة والحافلة سوف تلتقيان في لحظة ما، لحظة لا يعرفها، ولا تشعر هي بوجودها، لكنّها لحظة! حيث الاتّجاهان المتعاكسان على الأتوستراد العريض يمشي بهما، لحظة ستجعل الهواء والريح الباردة من حولهما ثقيلة وساخنة، ولن يعرفا في لحظة قادمة وهما يتجاوران في الطريق، كلّ منهما في اتّجاه، أنّ تلك السخونة المفاجئة جاءت من تلك اللحظة التي احتملت مصادفة اللقاء بينهما، ولم تتحقّق؛ الهواء. الأرض. الضوء. المشهد نفسه، لكنّه يمشي بالمقلوب.

وفي الحافلة التي مرّت تلك اللحظة على بعد أمتار من سيّارة سعيد وابتعدت بسرعة، كانت رائحة مقزّزة تنبعث من الراكبة، ولحمها المترهّل يفور حولها. تنحشر ليلى في مقعدها إلى جانب الراكبة ذات التسعين كيلو والتي لا يتجاوز طولها مئةً

وخمسين سنتيمترًا. رائحة تعرفها جيّدًا من الأيّام الأولى التي دخلت فيها المهجع الكبير. رائحة تَعرُّق قدمين أنثويّتين زنختين. فكّرت في أنّ الرجال لا يمكن أن تصدر منهم روائح مثل هذه الرائحة. إنّها رائحة تفسّخ أوّلي وتحوّل. رائحة أقدام الرجال تشبه نهاية التفسّخ والتحلّل. هكذا فكّرت، وهي تحدّق في القدمين المدوّرتين. أغمضت عينيها، ثم فجأة فتحتهما على اتّساع كبير، فقد تذكّرت أنّها خرجت من السجن البارحة، وهي ترغب في رؤية كلّ ما يحيط بها، وستترك تعبها جانبًا، وتنظر إلى الطريق، وتحدّق في المسافرين، وتسمع زعيق الأطفال في أحضان أمّهاتهم، وتمعن التحديق بهم ببلاهة، حتى إنّ إحدى الراكبات نظرت إليها بوقاحة، وقالت بصوت عالٍ: ومن شرّ حاسدٍ إذا حسد. انتبهت ليلى إلى أنّ النظرات العدائيّة للمرأة تحوّلت إلى شرّ في نهاية كلمة حسد، فأدارت وجهها. وعندما تحرّكت دبّ نمال خفيف في جسدها، بعد انزياح كتلة اللحم عنه. فكّرت بتلك الطريق المنحنية المؤدّية إلى الهضبة والتي تجعل من قلبها خليّة نحل، لا تعرف كيف تفصل لسعات نحلاتها عن حلاوة صورتها. فكّرت بكلّ الروائح المنعشة والطازجة التي تجعل قلبها يرفرف، وهي تحلم بأرجوحتها، بينما عليّ يصرخ بها: هيّا يا بطل يا كونتا كينتي.. ثم لمست خدّها، تحاول تقليد حركة أصابعه، وهو يمرغ الوحل على وجهها ليجعلها ذلك الفتى الأسود المعذّب. ابتسمت، وخفّ

ثقل السمينة المجاورة لها، وشعرت ببعض الإشفاق عليها، وهي تلمح وجهها المتعب والمتعرّق من ثقل لحمها على عظمها.

شخير السمينة أيقظها من التفكير بوجه عليّ، وانتبهت أنّها تتّكئ برأسها الصغير على كتفها، فخافت أن تتحرّك، أو حتى أن توجّه ملاحظة ما لها فتوقظها. كان وجه سعيد يبتعد عنها، ولم تنتبه في أعماقها أنّ وجهه غاب، واحتلّت لسعات النحل قلبها، وصارت تكبر وتكبر حتى خُيّل إليها أنّها ستنفجر، وتهطل كالمطر فوق المسافرين، وتتحوّل إلى قطرات من العسل الذي لن يتبقّى منه سوى تلك الحرقة القارصة لقلبها التعيس، وهي تحلم بالبيت الطيني وصندوق الجدّ دون أن تفكّر في المصير الذي ينتظرها في القرية. وفي اللحظة التي اشتعلت فيها حرّكت رأس المسافرة وأزاحتها، فأفاقت مذعورة تحدّق في ليلى وبصعوبة تفتح عينيها، وتقول بصوت مبحوح: عذرًا.. في تلك اللحظة والحافلة تتجاوز مدينة النبك التي تبدو من الأوتوستراد العريض مثل لوحة طينيّة يابسة، انتبهت ليلى أنّها لم تقرّر إن كانت تريد رؤيته أم لا. هل انتظرت كلّ هذه السنوات لتكتشف أنّها لم تودّ رؤيته، وأنّها كعادتها كانت تتذرّع بترّهات كيلا تعترف لنفسها بحقيقة واضحة، كانت واضحة جدًّا منذ تلك الليلة التي امتنعت فيها عن مبادلة سعيد ناصر الحبّ، ومنذ تلك

الليلة التي لم تعرف أن تحكي له فيها أيًّا من حكاياتها وهذياناتها، اللحظة التي قام فيها بمضاجعتها، وتركها على سريرها منفرجة الساقين، كذبيحة.

لا تصدّق أنّ كلّ الليالي الطويلة التي قضتها في السجن، تنتظر خروجها لتراه، قد ضاعت. هي الآن خائفة مذعورة، وتريد إيقاف الحافلة والهروب من الطريق العريض لتضيع في زحام العاصمة.

هل ستعود إلى العاصمة؟ قالت بصوت هامس، والتفتت إليها السمينة متسائلة، فابتسمت ليلى باقتضاب، وعاد النمال الخفيف يدبّ في كافّة أنحاء جسدها. النمال يقتلها ويتحوّل إلى سكاكين حادّة ناعمة تسبح في دمها. حاولت أن تتحدّث إلى السائق بصوت أعلى، وهمّت بالنهوض. صوتها لم يطاوعها. ولأوّل مرّة منذ سنوات، وضعت يديها حول عينيها وارتمت على المقعد، وبكت بصوت عال، صوت قوي مبحوح. وهي تفكّر إن كانت فعلاً راغبة في الذهاب إلى القرية أم الاختفاء إلى الأبد.

كانت خاصرتا السمينة تتدلّيان من حوافّ المقعد مثل يقطين طازج. تنظر بذهول وقد ترقرقت عيناها بالدموع، وهي تلمح ارتجاف كتفي ليلى، ففتحت حقيبتها، وبصوت حزين أكثر نعومة قالت وهي تلمس بمنديلها الأبيض خدّها:

www.mlazna.com-^RAYAHEEN^

ـ لا شيء في هذا العالم يستحقّ البكاء، لا شيء... اسأليني أنا.. لا تبكي.. لا شيء يستحقّ البكاء...

تنهي جملتها، وتبكي مع ليلى بصوت مسموع أيضًا. الركّاب ينظرون إلى المرأتين بفضول. تسحب السمينة من حقيبتها كومة من المناديل، وتمسح وجهها. تتمخّط بصوت عال. تنشم وتتنهنه ثم تناول ليلى المزيد من المناديل. وهي تتمتم بكلام غير مفهوم، يقطعه صوت بكائها العالي.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^